كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

تلاحظ عزيزي القارىء في هذا العدد والعدد القادم بإذن الله تركيزا في نشر الابحاث الخاصة بفترة الاستعمار البرتغالي . وقد دفعنا الى ذلك عدة اسباب منها :

اولا : أن مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة بدولة الامارات العربية المتحدة نظم بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ندوة في ٢٩ اغسطس ١٩٨٧ . دُعي اليها مجموعة كبيرة من الاساتذة والمؤرخين العرب وخصصت لمناقشة مجموعة الابحاث التي اعدها هؤلاء الاساتذة والمؤرخون ودارت كلها حول موضوع حدد سلفا وهو فترة الاستعمار البرتغالي . وقد استهدف منظمو الدورة بهذا التحديد حشد أكبر عدد ممكن من الابحاث حول فترة محدودة ومعالجة القضية الواحدة من شتى جوانبها ومختلف زواياها . حتى يتم تناول كل ما دار فيها ، وحتى يجد الباحثون بعد ذلك المعلومات التاريخية الكافية عن فترة بعينها مما يوفر عليهم جهدا كبيرا في الرجوع الى شتى المصادر بالاضافة الى عرض لكل الآراء ووجهات النظر حول أحداث وشخصيات تلك الفترة لتصبح بعد ذلك سجلا سهل التناول لمن أراد وهو اتجاه محمود كان محور اهتمام الامانة العامة لمركز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية في دورتها العاشرة التي عقدت بعد ذلك بالكويت الشقيقة في الفترة من ٢١ الى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م . حيث أوصت بالاتجاه الى اقامة الندوات ذات الموضوع الواحد لما ثبت من فائدتها في تغطية الاحداث المتعلقة بكل

فترة من الفترات التي مرت بالمنطقة نظرا لنقص المادة التاريخية وللمآخذ التي برزت حول بعض المصادر التاريخية التي كانت متاحة في السابق والتي اعتمد معظمها على مصادر اوروبية ليست سليمة من المآخذ ، أو خالصة من الشوائب أو بريئة من سوء النية .

ثانيا : إتجاه المراكز في المنطقة الى تعميق روح الأخوة وترسيخها وتنسيق العمل فيما بينها في مسيرتها الواحدة لتحقيق الهدف الذي تصبو اليه وفي هذا الاطار فإن أي جهد هو ملك للجميع واذا كانت «الوثيقة» تصدر في البحرين الا انها وغيرها من الدوريات التي تصدر عن المراكز الشقيقة تفتح صفحاتها لأي جهد يصدر عن أي مركز توفيرا للفائدة المرجوة ونشرا لأي عمل جيد على نطاق المنطقة كلها انطلاقا من أمر يؤمن به كل المتصدين للعمل التاريخي في هذه المراكز وهو أن الابحاث أو الدراسات مهما بلغت من الدقة والموضوعية وعظم الفائدة تصبح عديمة الجدوى اذا لم تنشر حتى يستفيد منها أكبر عدد من الطلاب والدارسين والمهتمين . وان دراسة عظيمة أو بحثا ممتازا يصبح لا قيمة له ولا فائدة منه اذا ظل حبيس الملفات أو الأدراج .

هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فإن روح التعاون الذي يربط بين المراكز في المنطقة ـ كما ذكرنا من قبل ـ والاحساس بالاخوة العميقة والتنسيق الكامل الذي يتحرك على أساسه كل جهد يبذله الاخوة سواء عن طريق الاتصالات المباشرة والدائمة أو عن طريق التنسيق عبر الامانة العامة والذي حول كل جهد يبذل في كل مركز الى اضافة رائعة لعمل كل المراكز الشقيقة مما يدفع بالعمل خطوات ملموسة دائما ويحقق الكثير من طموحات الهدف المنشود من اقامة المراكز على الساحة التي نحيا على ارضها . هذا الروح الاخوي دفع «الوثيقة» الى ان تفتح صدرها وصفحاتها لجهد بذل في مركز شقيق ناقلة ثمار هذا الجهد الى القراء في كل دول المنطقة جاعلة من نفسها جسرا يدعم أواصر التعاون والتآزر والتآخي القائم بالفعل .

ثالثا : لقد جاءت الهجمة البرتغالية امتدادا للحروب الصليبية التي تبلور فيها الصراع التاريخي بين الشرق والغرب والتي تحطمت في مدها

الأول عند الشام . وان كانت أشد منها ضراوة ووحشية فلم يكتف البرتغاليون بتدمير المدن وقتل الابرياء والتمثيل بهم وانما سلبوا ابناء المنطقة الكثير من مصادر الرزق بعد ان سيطروا على طرق التجارة الى الهند واستنزفوا الموارد وسلبوا الثروات ووزعوا قلاعهم الشهيرة التي انشاوها أو التي استولوا عليها على السواحل التي عاشت آمنة . بالاضافة الى ان الاستعمار البرتغالي فتح الباب امام الوان اخرى من الاستعمار سواء الهولندي أو الانجليزي مع اطلالات لبعض النفوذ الفرنسي والالماني واطماع لمختلف القوى الدولية بعد ذلك . وقد استفاد المستعمرون الجدد من الاخطاء التي وقع فيها الاستعمار البرتغالي فلجاوا الى اساليب أكثر خبثا وأكثر دهاء . واذا كانت فترة الاستعمار البرتغالي لم تستمر طويلا اذ سرعان ما لفظته المنطقة الا ان هذه الفترة كانت ولا شك احدى الفترات الهامة اذ تعكس صور الصراع المرير الذي دار بين ابناء المنطقة والأساطيل الدخيلة وتقدم دروسا يمكن الاستفادة منها في كيف أمكن التخلص من هذا الاستعمار البغيض ومحو آثاره .

رابعا : لقد نحت مجموعة الأبحاث التي قدمت والتي سوف تقدم بإذن الله منحىً طيبا . اذ لم تقتصر جهود العلماء فيها على الجانب السياسي فقط وانما تناولت الموضوع من جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية بل واللغوية في بعض الأبحاث مما يقدم للباحثين باقة مختارة من جهود نخبة مختارة ايضا . ومما يمثل أساسا طيبا لأي أبحاث قادمة حول الموضوع وهو خط سليم نأمل أن يتحقق في المستقبل عبر جهد مماثل يخصص لفترة الاستعمار الهولندي والاستعمار الانجليزي ويعرض لظروف المنطقة اثناء التواجد العثماني وهكذا .

ذلك ما أردنا أن نلفت النظر اليه راجين أن تكون «الوثيقة» دائما عند حسن الظن وأن يحقق ما بذل ويبذل فيها من جهد هدفا نسعى جميعا لتحقيقه .

والله من وراء القصد ،،

عبدالله بن خالد آل خليفة

لمحة في بعض الوثائق التاريخية حول

العوامل المؤثرة في الخليج

يرجع تاريخ اهتمام الانجليز بالخليج العربي الى ١٦١٥ م حين حاولوا كشف أسواق لمنتجاتهم الفائضة فقد أبحرت سفينة جيمس في عام ١٦١٦ م الى ايران وعلى متنها البضائع التجارية من المخازن الواقعة في ميناء (سورت) بالهند وكان رئيس البعثة الانجليزية هو ادوار كونوك ونتيجة محاولاته فتح الانجليز مكتبا لهم في بندر عباس في عام ١٦٢٤ م هكذا اقتصر اهتمام الانجليز بالخليج على المصالح الاقتصادية آنذاك . ولمدة قرن ونصف قرن فيما بعد تداخلت الحروب مع الأعمال التجارية وتورط فيها كل من البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين وان المكاتب التجارية الانجليزية التى أنشئت في البصرة في ١٦٤٣ و في بوشهر في ١٧٦٣ حرسها الحراس كما حولت السفن الى سفن مسلحة وأبحرت في قوافل منتظمة من أجل سلامتها .

وقد أقامت شركة الهند الشرقية علاقات مع الخليج العربي في عام ١٦١٦ م وذلك عندما أرسل وكيل الشركة في سورت (بالهند) حملة استطلاعية الى (جسك) الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي بقصد استكشاف أسواق جديدة هناك وخلال بضع سنوات فقد فتحت مكاتب تجارية في كل من شيراز واصفهان في ١٦١٧ م وفي بندر عباس في عام ١٦٢٣ م وامتد نطاق هذه المكاتب ليشمل الموانىء العربية كالبصرة في عام ١٦٣٥ م . وقام مجلس الشركة في بومباي بادارة هذه المكاتب وأصبح قاعدة لأنشطة بريطانيا الاقتصادية في الخليج لمدة

على المصالح الاقتصادية البريطانية

العـــربي عـــام ١٩٠٧ م

إعـــداد :
دكتور علي أبا حسين
و ب. ك. نارين

قرن ونصف قرن [١] . ولا شك ان لهذه الشركة أهدافا سياسية أخذت تتضح تدريجيا بمرور الزمن .

وفي عام ١٧٦٣ م نقل المكتب الانجليزي من ميناء جمبرون (بندر عباس) الى (بوشهر) وذلك لتدهور التجارة في جمبرون وقد أدى ذلك الى ازدهـار التجـارة في مسقط التى استفادت كثيرا من موقعها الجغرافي المتوسط بين الهند والبحر الأحمر من جهة وبلدان الخليج العربي من جهة أخرى وزاد عدد السفن التجارية فيها وكـان إمام مسقط يفتخـر بكثرة اسطوله البحري الذي صنع في الهند وفي ميناء مسقط . هذا بالاضافة الى السفن الأوربية التى تزور مسقط بصورة متزايدة [٢] .

واحتلت البصرة مكانا مرموقا في تجارة الخليج العربي وقد كانت ميناء تجاريا هاما ومقراً لشركة الهنـد الشرقية حتى عام ١٧٧٣ م اذ كان يـأتيها التجـار من القسطنطينية ودمشق وحلب وديار بكر والموصل وبغداد ومعهم السلع المتنوعة حيث يتعاملون بالسلع الهندية . وكانت ترسو فيها السفن الانجليزية علاوة على السفن الأوربية الأخرى كما ان التجار المسلمين كانوا يأتونها من (سورت) في الهند وفيها تتم الصفقات التجارية بالمقارنة بسلع الأساس إلا ان انتشار مرض الطاعون حوالى عام

١٧٧٣ م أدى الى ضعف النشاط التجاري وتدهوره [٢] .

و لما انتهى التهديد الأوربي للمصالح الانجليزية تجسد الخطر القواسمي الذى حل محل الأوروبيين المنافسين في الخليج العربي مما أدى الى جلب القوات البحرية الهندية الى مياه الخليج للدفاع عن السفن الانجليزية .

وكتب السير الفنستون في ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ما يأتي :

(يرى جميع الضباط العسكريين والبحريين والسياسيين المستخدمين في الخليج بأنه لا يمكن كبح القرصنة دون أن تقام محطة في تلك المياه) .

وهكذا أنشىء مركز للانجليز في (باسيدو) عل الساحل الشرقي للخليج العربي ولكن تم اخلاؤه والانسحاب منه فيما بعد بسبب رداءة الطقس هناك .

وكانت سياسة بريطانيا ما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٦٩ م ترتكز على حجة كبح القرصنة والحروب التى أدت اليها متخذة إياها ذريعة للوصول الى أهدافها الأخرى فأبرمت بريطانيا معاهدات لهذا الغرض مع شيوخ كل من ساحل المهادنة وقطر والبحرين بحجة أن القرصنة قامت بتهديد التجارة .

وأبلغت بريطانيا حكومة ايران في عام ١٨٦٩ م أن الهدف الوحيد لحكومة بريطانيا في ابرام الاتفاقيات مع الشيوخ هو الاحتفاظ بالأمن في مياه الخليج .

وفي أواخر القرن الثامن عشر حلت المقيميات والمعتمديات محل مكاتب الشركة وكانت لها مسئوليات سياسية أكثر من المسئوليات الاقتصادية وأهمها حماية الطرق المؤدية الى الهند بحرا وبرا في وجه تدخل متزايد من الدول الأوروبية . وفي فترة بين ١٧٦٣ و١٩٤٧ أقيمت مقيميات أو وكالات بريطانية في كل من (بوشهر ومسقط والبصرة وبغداد والبحرين والكويت والشارقة) وكانت مسئولة أمام دائرة الهند فيما بعد وشركة الهند الشرقية سابقا ومارست حكومة الهند سلطتها عليها مباشرة أو عن طريق حكومة بومباى بصورة غير مباشرة حتى نالت الهند استقلالها في ١٩٤٧ [٤].

و بعد عام ١٨٧٣ م نقلت مسئولية ادارة شئون الخليج من بومباي الى حكومة الهند وبدأت المقيميات والوكالات البريطانية بارسال تقارير ادارية سنوية لها وفي البداية كانت هذه التقارير مجرد احصائيات تجارية مع خلاصة للأحداث الأخرى الا انه في عام ١٩٠٥ قسمت التقارير السنوية الى قسمين سياسي وتجاري [٥] .

وفي ١٢ ابريل ١٧٦٣ م عقدت شركة الهند الشرقية اتفاقية مع شيخ بوشهر وحصلت بوجبها على تصريح مطلق لاقامة مكتب تجاري فيها . وبعد ثلاثة شهور أكد كريم خان الحاكم الايراني هذه الاتفاقية بل مد مدتها واعطاها امتيازات عديدة بما فيها الاعفاء من الجمرك لكافة صادراتها ووارداتها وحماية لأفرادها وأموالها .

واحتكرت الشركة وفقا للاتفاقية تجارة المنسوجات الصوفية وتصديرها لايران. ودون شك ساعدت هذه الاتفاقية في تدارك الانحطاط الاقتصادي الذي نتج عن اغلاق مكتب جمبرون (بندر عباس) قبل عدة شهور. ثم اصبحت البصرة مقرا رئيسيا لتجارة الخليج (٦).

وبعد ست سنوات أي في فبراير ١٧٦٩، تخلت الشركة عن بندر عباس أيضا بسبب تدهور آخر في التجارة وبروز مشاكل سياسية بين المقيم من جهة والسلطات التركية والايرانية من جهة أخرى. ثم تأسس مكتب للشركة من جديد في (بندر عباس) في عام ١٧٧٥ الا أن الأوضاع التجارية في الخليج ظلت متدهورة. ولم تتخذ الشركة أية خطوات لمواجهة التدهور التجاري في الخليج لأن الأوضاع تحسنت في البنغال ووجدت الشركة أسواقا جديدة في الصين في السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر في حين واجه الخليج آنذاك موجة من عدم الاستقرار السياسي.

فقد ورد في مذكرة مؤرخة في أول مارس ١٨٧٢ م من حكومة الهند «ان المواصلات تيسرت ونشطت التجارة وتقاربت الدول الآسيوية الى الدول الأوروبية فنظرا لهذه التطورات اتخذت علاقاتنا السياسية مع البلدان الآسيوية أهمية بالغة».

ومنذ يناير عام ١٨٧٣ م خولت الهند السلطة التامة لادارة الخليج.

ان تاريخ سيطرة الانجليز على الخليج في الحقيقة يرتبط بتاريخ الهند منذ احتلال هرمز من قبل البرتغاليين. ومع انحطاط نفوذ البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين في الخليج نجحت شركة الهند الشرقية الانجليزية في تثبيت أقدامها عقب انشاء مكتبها في بوشهر حيث أبرمت بريطانيا اتفاقيتين مع الشاه عباس لوضع سفينتين حربيتين في الخليج للدفاع عنه. وكانت الشركة آنذاك قد احتلت بعض الأراضي في الهند وبدأت في ممارسة السلطة كحكومة ذات سيادة وكانت لديها قوة مسلحة أيضا

ولمدة حوالي قرنين من ١٦١٦ حتى نهاية القرن الثامن عشر تركزت أنشطة بريطانيا على الشئون الاقتصادية وتجنب التورط في النزاعات السياسية. وقام التجار الانجليز بزيارة كل من العراق وايران وآسيا الوسطى من الموانيء الهندية لتقدير الموقف التجاري وكان اهتمامهم بالخليج مرتبطا بمصالحهم في الهند. وتمت ادارة الشئون الخليجية من قبل الحكومة الهندية وليس من قبل لندن وكانت مراكزهم التجارية مثلما كان في جمبرون (بوشهر) مراكز مهتمة بالشئون الاقتصادية ولم يكن لديهم أي اهتمام بالساحل العربي آنذاك على الرغم من زيارة سفنهم أحيانا للقرين (الكويت) ومسقط.

ثم بدأت سياسة بريطانيا نحو الخليج تتخذ بعدا سياسيا في أواخر القرن الثامن عشر وسجل معدل تجارة

الانجليز مع ايران والعراق هبوطا حادا . وقد أسفر توطيد وتمديد علاقات الانجليز مع الخليج العربي عن نتيجتين أولاهما توسعة ممتلكاتهم في الهند والثانية عزم شركة الهند الشرقية على ضمان طرقها التجارية للهند خاصة في بداية القرن التاسع عشر . وفي عام ١٧٩٨ م حصل غزو نابليون لمصر واكتشف الانجليز خطته لغزو الهند مما حثهم على التأكد من ضمان مصالحهم الاستراتيجية في الخليج وابقائه في أيد أمينة بالنسبة لهم، وفي أواخر القرن الثامن عشر مارس الانجليز حملة دبلوماسية لاحباط مخططات فرنسية في غرب أسيا وتم توقيع اتفاقية بينهم وبين سلطان بن أحمد حاكم مسقط في ١٧٩٨م وزال خطر نابليون لغزو الهند في ١٨١٠ بعد ان انتزع الانجليز موريشيوس من فرنسا.

وبدأت الإضطرابات تزداد في مياه الخليج من ١٧٨٠ م حين حاولت عمان بسط سيطرتها على الخليج لاحتكار تجارته كما حاولت مناطق عربية أخرى أيضا كالبحرين وقطر والكويت تثبيت أقدامها في مجال حرية التجارة . فثبت الانجليز نفوذهم في القرن التاسع عشر من عدن الى الكويت . بواسطة ابرام اتفاقيات مع الشيوخ العرب في الخليج [٧] .

المصالح الاقتصادية البريطانية :

على الرغم من ان حجم تجارة شركة الهند الشرقية في الخليج كان محدودا فقد حقق أرباحا متواضعة واصبح الخليج سوقا ملائمة لصادرات بريطانيا نافست فيه المنتجات الفرنسية كما زودت بريطانيا بالمواد الخام التى تصنع في بريطانيا كالحرير والصوف الكرماني.

ومن جهة أخرى فإن تجارة شركة الهند الشرقية مع الخليج كانت عنصرا سلبيا في تنمية القوة الاقتصادية الخليجية لأن المنتجات البريطانية كانت تنافس الصناعات المحلية وقد ألحقت بها أضرارا بالغة . وان تصدير المواد الخام الى بريطانيا من منطقة الخليج لم يسمح بالنمو الاقتصادي لمنطقة الخليج . كما ان النقص في الميزان التجاري بين بريطانيا والخليج لصالح بريطانيا أدى الى نقص حاد حتى في توافر العملة في الخليج [٨] .

لقد أعدت المقيمية البريطانية في الخليج مذكرة في ٢٧ نوفمبر ١٩٠٧ ركزت فيها على المصالح التجارية البريطانية في الخليج العربي وعلى ضرورة توطيد دعائمها.

أما النشاط الألماني في الخليج فقد بلغ درجة جعلته يهدد النفوذ البريطاني بصورة خطيرة أولا تجاريا ثم سياسيا وحان الوقت لاتباع سياسة ايجابية تتطلب عملا جادا بدلا من السياسة الدفاعية وتتكون من اعلان صريح تعلنه بريطانيا توضح فيه بأنها تعارض بالقوة اية محاولة أجنبية لتأسيس قاعدة محصنة في الخليج .

(وأصدر اللورد لانس داون اعلانا في مايو ١٩٠٣ م ينذر فيه روسيا التى كانت تتطلع الى احتلال (شاربار) كما

استهدف منع تشييد محطة محصنة على خط سكة حديد بغداد. وربما لم ترد المانيا خلق مشاكل نظرا لعزم بريطانيا معارضة خططها بشأن سكة حديد بغداد.

واستطرد قائلا : فمن المرجح لألمانيا ان تستوعب الخليج بالامتصاص التدريجي اقتصاديا مما لا يثير احتجاج بريطانيا ويشهد تاريخ الخليج أيام البرتغاليين والهولنديين والانجليز بأن الازدهار التجارى يؤدى الى السيطرة السياسية فيجب علينا ان نفكر في اتخاذ اجراءات استثنائية لتشجيع المشاريع الانجليزية في الخليج لتخدم المصالح السياسية).

(وأن أحسن وسيلة لادراك هذا الهدف هي توطيد دعائمنا في البحرين المستقلة التى تقع في وسط مغاصات اللؤلؤ داخل خليج عميق مواز لولاية القطيف التركية فى الغرب وشبه جزيرة قطر شرقا حيث لا نعترف فيها بالسيادة التركية).

وفي عام ١٨٩٢ ابرمت بريطانيا اتفاقية مع البحرين وقد صادق عليها الحاكم العام الهندى اللورد لانس داون. وبموجبها يتعهد حاكم البحرين بعدم مراسلة اية قوة أجنبية أو يسمح لأي وكيل لأية حكومة أخرى أن يتخذ مقرا له في أقاليمه.

(وعلى الرغم من موقف بريطانيا فقد برزت شركة وونك هاوس (الألمانية) مع انه كانت توجد شركة انجليزية كبيرة (كرى باول) في البحرين وقد حاولت شركة وونك هاوس رفع العلم الألماني على مبناها).

وقد علق شخص امريكي في عام ١٩٠٠ على النفوذ البريطاني في البحرين قائلا بأن الحماية البريطانية للبحرين لم تسفر عن أية نتائج مفيدة لها (أي للبحرين) ولا تعنى كلمة الحماية الا ممارسة الحياد في الشئون الداخلية واملاء السياسة تجاه الدول الأخرى كلية.

(وحاول المقيم البريطاني في أغسطس ١٩٠٦ إقناع حاكم البحرين باعطاء حق جمع الضرائب الجمركية لحكومة الهند مقابل مبلغ محدد بدلا من منح هذا الحق لمقاول ما وقد رفض الشيخ قبول هذه التوصية. وكان رفض الشيخ امرا محزنا للغاية بالنسبة لبريطانيا نظرا لأهمية البحرين المتزايدة كمركز تجارى هام واستطرد المقيم يقول : وعلينا ان نبحث خطوات أخرى لاقناع الشيخ لتعديل موقفه الرافض).

وأذا تم تعيين موظف بريطاني مديرا للجمرك ولديه الملم بالشئون التجارية فيمكن له ان يؤسس مستودعا تجاريا في سوق حرة في البحرين مما يساعد في خدمة المصالح التجارية البريطانية. وتجلب هذه الخطوة عددا كبيرا من التجار من لنجه وأماكن اخرى لأن تعيين مدير جمرك بلجيكيا هناك قد سبب سخطا وغضبا بين التجار. وان البحرين ملائمة لانشاء محطة بحرية فيها من الناحية الجغرافية لموقعها المتوسط بين رأس مسندم ومدخل شط العرب

وارضها خصبة ومناخها يلائم الأوروبيين أكثر من جزيرة قشم أو مسقط . ورغم ترددنا في اقامة محطة بحرية فيها نظرا لكونها جزيرة مستقلة الا انه لا مبرر لاغفال فرص متاحة لنا لنخدم مصالحنا التجارية . ويجب علينا ان نعرض للبحرين مبلغا مغريا مقابل ادارتنا للجمارك مما يعود علينا بأرباح طائلة . ويمكن لنا ان ندرك حجم تجارة البحرين من تصدير اللؤلؤ في عام ١٩٠١ إذ بلغ ٤٧٥٠٠٠ جنيه وقد سجل حجم التجارة الكلي ارتفاعا قدره ٣٠٪ ما بين ١٩٠٥ و١٩٠٦ وبلغ ١,٤٥٤,٠٠٠ جنيه عدا اللؤلؤ .

وبلغت شحنات السفن في ميناء البحرين في عام ١٩٠٦ ما يلي :
المراكب البريطانية نقلت ٥٧٥٨٣ طنا وشحنت السفن الامريكية ٣٩٤٣ طنا والسفن الالمانية حملت ٢٤٤٤ طنا والسفن الروسية نقلت ٢٠٠٠ طن .

ويجب علينا ان نناقش هذه المذكرة مع دائرة الهند ولجنة التجارة (البريطانية) لمواجهة المنافسة الالمانية فانه رغم صغر حجمها فهي تكاد تتضخم بمرور الوقت بسبب الدعم الذى تتلقاه من حكومة المانيا كما تتلقى الخطوط الملاحية أيضا مساعدة الحكومة [٩] .

معارضة الشيخ عيسى للضغط الانجليزى

قدم اللورد كرزون في ٢١ سبتمبر ١٨٩٩ مذكرة لدائرة الهند طلب فيها أيضاح حكومة بريطانيا لموقفها تجاه الاحتفاظ بمصالح بريطانيا في الخليج وجاء ذكر هذه المصالح في الحقول المختلفة في وثيقة لحكومة الهند مؤرخة في ٢١ سبتمبر ١٨٩٩ م . ولقد شعر كرزون بأن هذه المصالح كانت مهددة بسبب تدخلات كل من روسيا وفرنسا والمانيا وتركيا . وطلب اتخاذ الشدة في تنفيذ التزامات الشيخ عيسى المترتبة عن الاتفاقيات المبرمة بينه وبين بريطانيا .

ونظرت حكومة الهند الى الوضع في البحرين والذى كان مماثلا لما حدث في مسقط حيث كانت فرنسا تحاول ان تحصل على موطىء قدم لها في الخليج . فأرسل المقيم تقريرا ذكر فيه حجم التجارة الخارجية للبحرين والذى سجل ارتفاعا من ٢,٢٢٩,١٧٧ روبية في ١٨٧٨ الى ٨,٨٢٧,٦٥٠ روبية كما زادت الصادرات من ٢,١٨١,٩٩٥ روبية الى ٧,٩٤٠,٨٨٠ روبية واعتمدت تجارتها الخارجية على بريطانيا تماما .

ورأى الكولونيل (ميد) ان الشيخ عيسى بن علي آل خليفة لا يأخذ بنصيحة الضباط البريطانيين ويعطى إهتماما أكثر للأتراك والفرنسيين فأوصى بتعيين مقيم جديد في البحرين بمسئوليات أوسع بما فيها اعطاء المشورة لحاكم البحرين في الشئون التجارية وعلى الرغم من التزام الكولونيل (ميد) في مارس ١٨٩٩

للشيخ عيسى بن علي بأن بريطانيا لن تتدخل في شئون البحرين الداخلية فقد كره الشيخ عيسى بن علي التدخل البريطاني في شئون الجمارك ورفض رفضا متواصلا تعيين مدير انجليزي للجمارك خشية ان يفتح الطريق الى التدخل اكثر فأكثر (١٠) .

أما بخصوص انشاء محطة لاسلكية ومحطة فحم بالقرب من رأس مسندم في ١٨٦٣ فقد اوصى الكولونيل (بيلي) في مذكرة للحكومة البريطانية جاء فيها :

١ - ان الأهداف الرئيسية في اقامة مقيمية في الخليج هي كبح القرصنة وتجارة الرقيق وتطوير التجارة فقد نجح الانجليز في تدارك هذه الأنشطة .

٢ - وفي البداية كانت توقعاتنا بشأن التجارة في الخليج متواضعة لكن حجم التجارة يزداد يوميا وتدخل البضائع التجارية في الخليج من أوروبا والهند ومسقط وشرق افريقيا وساحل عدن بواسطة السفن أو القوافل البرية القادمة من طهران واصفهان وشيراز الى بوشهر أو بواسطة البواخر من البصرة بالاضافة الى تجارة اللؤلؤ داخل الخليج نفسه ونقل وتبادل البضائع المختلفة بين كل من موانيء الساحل الغربي للخليج العربي من الكويت (القرين) شمالا الى رأس الخيمة جنوبا .

٣ - ومن المفضل تأسيس محطة للفحم عند مدخل الخليج نظرا لهبوب الرياح الموسمية ولموقع هذه المحطة في الوسط بين غرب الهند والبصرة مما يجعل هذا الوقود يكفى لقيام السفينة بجولات داخل الخليج من جهتين دون صعوبة وفي نفس الوقت يمكن للسفن ان تحمل شحناتها من الموانيء الخليجية على طول خط سيرها .

٤ - يجب ان نختار مكانا مناسبا في الخليج يتصف بالمزايا التالية : (أ) أن يكون مركزيا وصالحا لنقل البضائع كأنه ميناء حر ، (ب) أن يكون في الوسط من ناحية الاتصال اللاسلكي في حالة عطب (الأسلاك) ، (ج) صالح لغرض انضباط بحري بسهولة مع الاقتصاد في اجتياز المسافات ، (د) وأن يكون بالقرب من مراكز المدن ، (هـ) وخاليا من المشاكل السياسية ، (و) وملائما للصحة ويتوفر فيه الماء الصالح للاستخدام ، (ز) وأن يعطينا مركزا قويا في حالة نشوب حرب ، (ح) واختيارنا لبوشهر خطأ بينما رأس مسندم يفى بالمزايا المطلوبة .

٥ - ان الكويت نهاية خط طبيعي للمواصلات مقارنة بالبصرة وتوفر لنا مسافة ٧٠ ميلا عبر النهر وهى مكان أنسب من حيث انشاء محطة للفحم ومن السهل ان نربط الكويت بأية نقطة على شط العرب بواسطة القوارب وكانت الكويت مركزا للبضائع التجارية بين الشرق والغرب على السواء منذ زمن بعيد .

جدول تقريبي للصادرات والواردات في بوشهر

الصادرات	روبية	الواردات	روبية
الى بومباى	١,٠٠٠,٠٠٠	من بومباى	٣,٧٠٠,٠٠٠
الى جاوا	٣٥٠,٠٠٠	من جاوا	١,٠٠٠,٠٠٠
الى جـــدة	١٨٠,٠٠٠	من جـــدة	ـــــــــــ
المجمـــوع	١,٥٣٠,٠٠٠	٤,٧٠٠,٠٠٠	

نص قرار صادر من لجنة مدراء شركة الهند الشرقية مؤرخ في ١٢ مايو ١٨٦٣ م

تعرب اللجنة عن تقديرها لما قدمه الكولونيل (بيلي) من توصيات قيمة كالعادة وعلى الرغم من انها تتفق معه في توصياته الا أن هناك عوامل أخرى في اتخاذ قرار نقل المقيمية من (بوشهر) الى احد الموانىء في ساحل مسقط فقد تنظر ايران الى هذه الخطوة نظرة الحقد والحسد لذا نرسل توصيات الكولونيل بيلي لحكومة الهند لدراستها واتخاذ القرار حولها .

الحفاظ على المصالح البريطانية في الخليج ـ ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ م

خلاصة توصيات قدمها (جورج ماكنزي) في ديسمبر ١٨٨٥ لدائرة الهند :

١ ـ لنا قنصل عام في بوشهر وفيها وال يخدمه عدد كبير من المواطنين ورغم ذلك ليس هذا الوالي الا تاجرا محليا . وفي اصفهان حيث يوجد مقر للحكومة لا يمثلنا الا كاتب أنباء أرمني وليس له ثقل لدى الأوروبيين أو المحليين .

٢ ـ فيجب على القنصل العام البريطاني ان يختار اصفهان مقرا له بدلا من بوشهر حيث يوجد حاكم يحكم كلا من لورستان وعربستان وفارس وكرمان أي جنوب ايران بأكمله .

٣ ـ ليست لبوشهر أية أهمية الا كميناء شحن ويكفي تعيين وكيل محلي هناك .

٤ ـ ونظرا لتوفر البواخر والمواصلات اللاسلكية يمكن للقنصل البريطاني في كل من مسقط والبحرين بالتعاون مع الوكيل المحلى فى بوشهر مراقبة

السواحل الخليجية كلها . ولا داعى لتوزيع السفن الحربية لهذا الغرض كما كان فى السابق .

لم تقبل الحكومة البريطانية التوصيات المذكورة أعلاه لأسباب شتى سياسية وعسكرية كما عارض الكولونيل (روس) هذه التوصيات كتوصيات غير جادة ومبنية على افتراضات خاطئة . ومن أهم هذه الاعتراضات ان سحب السفن الحربية من الخليج يؤدى الى فقد الثقة في قدرة بريطانيا في الخليج مما يدعم نشاط كل من روسيا وتركيا .

التنافس الدولي بين ١٨٩٦ و١٩٠٤ م

روسيا .

بدأت روسيا تتطلع الى ايران والخليج منذ القرن السادس عشر وكسبت أراضى في القفقاس وآسيا الوسطى ولم يحل بين روسيا والهند الا أفغانستان وايران في عام ١٨٨٤ م وخاف الانجليز من وصول روسيا الى الموانىء الدافئة في الخليج وممارسة ضغطها على المستعمرات الهندية .

وقد أقامت روسيا قنصلية عامة في بغداد في عام ١٨٨٠ وعينت الكولونيل (أيبرهارد) قنصلا عاما لها الا انه غادر بغداد في يناير ١٨٨٦ قائلا بأن فرنسا تحافظ على مصالح الروس هناك . وبدأت شركة روسية (بوجنهوف) عام ١٨٨٦ م أعمالها التجارية في بندر عباس وفي نفس العام أرسلت روسيا مهندسا باسم سابينزا Sapienza الى طهران ومعه مشروع لاقامة سكة حديد بين بحر قزوين والخليج العربي لكنه لم يحقق أية نتيجة .

أكدت ايران لبريطانيا بأنها لن تتنازل عن أي ميناء لها في الخليج لصالح روسيا . وقد وصل مندوب روسي الى قارون في مارس ١٨٨٩ م لمراقبة التحركات البريطانية في نهر قارون ونظرا لاحتمال فتح نهر قارون للملاحة عينت روسيا قنصلا عاما في ١٨٨٩ م مرة أخرى في بغداد . وفي ضوء المنافسة القائمة بين بريطانيا وروسيا بخصوص انشاء سكة حديد ابرم شاه ايران اتفاقية مع روسيا بعدم انشاء أي خط حديدى في ايران من قبل أي طرف خلال الـ ١٠ سنوات التالية وترددت عدة شائعات حول موضوع سكة حديد بين سنتي ١٨٩٠ و١٨٩٢ م وتبودلت البرقيات التالية بين لندن وطهران في ابريل ١٨٩٢ م ومنها :

من المندوب البريطاني في طهران الى (السير فرانك لاسل) ..

الى الحاكم العام . ١٩ ابريل ١٨٩٢ ..

قد أرسلت البرقية التالية الى لندن : رقم ٥٩ : يقال بأنه تم التوصل الى اتفاق بين مواطن روسي وشركة انجليزية لانشاء خط حديدى بين قزوين والخليج ومن المحتمل في الظروف السائدة ان تميل ايران الى الموافقة على المشروع . أرجوكم افادتي اذا كان هناك أي مانع من قبل الحكومة البريطانية لارساء الامتياز على مواطن روسي على شرط ان يكون الجزء الأكبر من رأس المال انجليزيا .

من الناحية التجارية ان المشروع المقترح يفيد انجلترا ويساعد في تنمية ايران ..

وبرقية من لندن الى المندوب البريطاني في طهران

رقم ٣٠ ، ٢٥ ابريل في ١٨٩٢ ..

بالاشارة الى برقيتكم المرقمه ٥٩ بخصوص مشروع اقامة سكة حديد من قزوين الى الخليج العربي أود أن اقول بأنه لا مانع من إرساء العقد على مواطن روسي مبدئيا اذا كان معظم رأس المال انجليزيا وكان للانجليز حظ كبير في ادارة المشروع واذا تم تنفيذه بحسن النية . لكنني أود أن أطمئن أولا على الشروط المذكورة والا يكون الامتياز أداة لممارسة مكيدة سياسية أو بعد اكمال سكة حديد طهران يمكن ان يأخذ المشروع اتجاها معاديا لمصالح الانجليز أو قد تنتهي السكة في عاصمة ايران .

وقد قامت سفينة سوفياتية بزيارة مسقط في سبتمبر ١٨٩٣ وعقد بعض ضباطها اجتماعا سريا مع السلطان وشاعت أنباء عن مؤامرات روسية وتواجد عميل سري دبرها . كما قام ضابط روسي في ١٨٩٥ بزيارة هرمز ومسحها .

وفي عام ١٨٩٧ م أرسل قنصل روسي لبغداد لغرض الحصول على تصريح لروسيا في اقامة محطة فحم في الخليج ولكن دون جدوى وكانت لروسيا مصالح تجارية في كل من بوشهر وبندر عباس كما جاء طبيبان روسيان لبوشهر في ١٨٩٧ م لدراسة أسباب انتشار الطاعون وكان برفقتهما ضابط في المدفعية .

حاول كونت كابنست Count Kapnist ابن أخ السفير الروسي في فيينا الحصول على امتياز من الباب العالي لبناء سكة حديد من طرابلس في سوريا الى الخليج العربي وعلى الرغم من ان السفير الروسي في القسطنطينية أيد المشروع الا انه لم يكن متحمسا في تنفيذه وفضل ان يمد الخط من ساحل بحر قزوين الى الخليج بدلا من طرابلس لأن مشروع طرابلس لم يكن تنفيذه ممكنا دون رأسمال انجليزي ولقد تمت دراسة المشروع واقترح ان يمد الخط من الاسكندرونه وليس من طرابلس ويمر بحلب وبغداد والبصرة ومحطة في الخليج .

وحين قام القنصل الروسي في اصفهان بزيارة بوشهر في يونيو عام ١٨٩٩ م اقترح اقامة قنصليات في كل من بندر عباس ومسقط والمحمرة وكذلك اقترح تأسيس محطة للفحم في هرمز ولكن أخبرت روسيا المندوب البريطاني في سان بيترس بورج بأنها لا ترغب على الاطلاق في مزيد من المسئوليات بالحصول على موانيء بعيدة أو محطات قد تحتاج الى دفاع بحرى عنها في أيام الحرب .

ووردت الأنباء في مارس وابريل ١٨٩٩ م بأن وزيرا روسيا في طهران خول شركة روسية لأصحاب رؤوس الأموال إنشاء خط حديدي من اسكندربول الى شوكتون Chocton في الأراضي الايرانية وامتداده لكل من تبريز وطهران واصفهان ومن ثم الى

الخليج العربي ، وسأل سلطان مسقط في عام ١٩٠٠ م المعتمد السياسي عن رأيه عما ورد في الصحف الروسية عن طموحات روسيا في (جوادر) لكنه لم يكن على علم بالموضوع .

وقد اعتمدت روسيا قرضا لايران قدره ½ ٢٢ مليون روبل في ١٩٠٠ م بالشروط التالية :

١ ـ توفير ضمان تسديد المبلغ في مدة ٧٥ سنة مرتبطا بالعائد الجمركي الايراني ما عدا ولاية فارس وموانيء الخليج .

٢ ـ تتعهد ايران بعدم اقتراض أي مبلغ من أية جهة ثانية مادام لم يتم تسديد القرض الروسي .

وفي نفس العام وصلت جماعة من المهندسين الروس الى جنوب ايران حيث قاموا بمسح الأراضي والموانيء من حيث ملائمتها لانشاء شبكة من السكك الحديدية .

قدم ضابط روسي في عام ١٩٠١ التوصيات التالية :

(١) اقامة خطوط ملاحية ممولة من حكومة روسيا للاتجار في المنتجات الروسية في الموانيء الجنوبية لايران .

(٢) اقامة مصرف روسي في احد الموانيء الخليجية مع قنصلية قوية يحرسها حرس روسي مدعمة بسفينة حربية واقامة محطة فحم في بوشهر .

قررت السلطات الروسية اقامة قنصلية في بوشهر وخط حديدي بين أوديسا وبندر عباس وتشجيع التبادل التجاري بين الشركات الروسية وجنوب ايران .

كما قامت باخرة روسية كورنيلوف بزيارة كل من مسقط وجسك وبندر عباس ولنجه في مارس ١٩٠١ م واجتمع قائد الباخرة بسلطان مسقط . وكانت الباخرة محملة ببضائع ثقيلة ولم تستطع ان تدخل الى المياه الداخلية في بوشهر الا بعد ان افرغت ١٢,٥٠٠ طرد مكونة من الكيروسين والسكر والقطن والحرير والأواني الخزفية الخ . حاول الروس بيع البضائع الى المحليين دون جدوى فخسروا الصفقة . وكان عدد الركاب على الباخرة (كورنيلوف) ١٠ منهم روس وفرنسيون بما فيهم المستر موزمان مندوب شركة (هوتز) في بوشهر وهي شركة هولندية تمتعت بحماية بريطانيا لكنها كانت قد اعلنت عن وضع نفسها تحت حماية روسيا . عادت الباخرة الى بوشهر في ٢٢ ابريل ومعها ٢٥٠ طنا من البضائع من البصرة و٢٠٠ بالة قطن اشتراها الروس في بوشهر و١٤٠ كيسا من التبغ لشركة (هوتز) .

أما بخصوص النشاط الفرنسي فقد أرسلت دائرة الهند رسالة للخارجية في عام ١٨٩٤ م بتاريخ ١٧ يوليو جاء فيها ما يلي :

ان الهدف من تعيين نائب قنصل فرنسي في مسقط معروف لدى الحكومة البريطانية قد رأت الحكومة آنذاك انه يصعب عليها معارضة حق الحكومة الفرنسية في تعيين قنصل لها في مسقط مادام قد بقى الاعلان الانجلوفرنسي لعام ١٨٦٢ سارى المفعول لكن الظروف الحالية تختلف بخصوص روسيا لأنه لا يوجد أي اتفاق بين

روسيا وسلطان مسقط يلزمه قبول قنصل روسي ونعتقد بأن السلطان لا يرغب فيه لذا نقترح بأنه اذا استشار السلطان الكابتن كوكس في الموضوع عليه ان ينصحه بعدم قبول قنصل روسي على أساس ضآلة حجم التجارة بين روسيا ومسقط حيث لا يزيد عن ١٠,٠٠٠ دولار فقط لعام ١٩٠٠ م - ١٩٠١ م كما ورد في التقرير الاداري للمقيمية .

وفي اكتوبر ١٩٠١ م وصلت سفينة كورنلوف الروسية الى لنجه بعد ان زارت كلا من مسقط وبندر عباس حيث افرغت فيهما ٥٠٠ عبوة من الكيروسين . وطلب القنصل الروسي من مدير الجمرك في لنجه احصائيات عن ايرادات لنجه من السجاجيد والصدف والسكر واللؤلؤ لكنه فشل في الحصول على هذه المعلومات .

وقد اشترت السفينة من بندر عباس ولنجة التبغ والنسيج والسجاجيد والصمغ .

مغبة احتلال روسيا لميناء في الخليج

وهذه مذكرة صادرة للقوات البحرية حول مغبة احتلال روسيا لميناء في الخليج وآثاره على موقف القوات البحرية البريطانية (تتعلق المذكرة بخطاب السير هاردنج المؤرخ ٢٧ اغسطس ١٩٠٢ م) وقد جاء فيها : نظرا للتفوق الذى تتمتع به القوات البحرية البريطانية يجب ان يكون الميناء الذى تختاره روسيا في موقع يمكن الدفاع عنه والا تتعرض حركة السفن والبضائع للمصادرة والتدمير على يد سرب من الاسطول البريطاني .

ان أمن وكفاءة المواصلات البرية للمناطق التى تجلب منها كميات كبيرة من المؤن العسكرية وكذا المواصلات البحرية تكتسب أهمية كبرى الا أن المواصلات البحرية تكون غير آمنة في وجه الاسطول البريطاني ذى الكفاءة العالية فيجب ان يقع الميناء الذى تختاره روسيا على البر الرئيسى أو على جزيرة مجاورة له . ويبدو ان أحسن موقع استراتيجي يكون في مدخل الخليج من حيث القوات البحرية أو على الساحل الفارسي ومن حيث الأفضلية الاستراتيجية للقوات البحرية من المرجح ان يكون الميناء في مدخل الخليج في موقع متقدم وان يتوقف اختياره على المناخ والأوضاع المحلية وهذا الموقع مفيد جدا لأن الاسطول الروسي في هذه الحالة يكون قريبا من خطوط المواصلات لأية قوة بحرية بريطانية قد تعمل في الخليج ويلزم تغطية الحركة قبل ان تحرز تقدما ملموسا في الخليج . وفضلا عن ذلك يكون الاسطول الروسي بالقرب من خطوط المواصلات البحرية البريطانية بين البحر الاحمر والشرق وهكذا يكون في موقع افضل ليهاجم التجارة البريطانية على ذلك الطريق.

ويجب على روسيا ان تنشىء شبكة سكة حديدية كى تتمكن من نقل البضائع والرجال الى السفن ونظرا لان الفحم لا يوجد الا في جنوب روسيا وأقرب مصدر للنفط يقع فى (بابكو) فيمكن نقل الكميات المطلوبة لاسطول كبير عبر سكة حديدية عبر مسافة طويلة لذا يجب ان يكون الموقع مناسبا لمكان وجود الفحم او النفط. ان انشاء وتطوير قاعدة بحرية روسية في الخليج يكتنفه صعوبات جمة وأهمها الحر الشديد في المنطقة ورداءة الطقس وحتى اذا افترضنا تذليل هذه الصعوبات فان تواجد اسطول روسى فى الخليج يعتمد على وجود ميناء محصن ومرتبط بمصدر للتموين بسكة حديدية مما يكون له تأثير على الموقف البحرى لكل من روسيا وبريطانيا، فإذا تم توزيع القوات البحرية الروسية على أربع مناطق منفصلة كبحر الصين والخليج والبحر الاسود وبحر البلطيق ـ بدلا من ثلاث مناطق كما هو حادث الآن فتصبح القوات البحرية الروسية ضعيفة فى العمليات التى تحتاج الى التركيز ففي هذه الحالة تستطيع القوات البريطانية عبر خطوط مواصلاتها ان تكبح هذه الاجزاء المنقسمة .

فرنسا

وكان اهتمام فرنسا يرتكز على مصالحها الاقتصادية من جهة وتوطيد دعائم الاستعمار في المحيط الهندى. من جهة اخرى قدمت فرنسا وبريطانيا ضمانات بشأن الحفاظ على استقلال عمان فى ١٨٦٢م واستهدفت الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا وحكام ساحل المهادنة في ١٨٩٢ احتواء الطموحات الفرنسية فى الخليج وقد انشأت فرنسا وكالة قنصلية فى مسقط في عام ١٨٩٤.

قام يخت بلجيكى يدعى (سليكه) في ٢٧ فبراير ١٩٠١م بزيارة كل من مسقط وبندر عباس وبوشهر ووصل الى مسقط في ٧ مارس وفى اليوم التالى طلب القنصل الفرنسى موعدا مع السلطان لنفسه ولجماعة من اليخت. قال القنصل اثناء لقائه مع السلطان بأن قائد اليخت موظف فرنسى ويريد ان يزور صحار ثم الموانىء الاخرى على الساحل المهادن وقال كمبال فى برقيته فى ٢ ابريل ١٩٠١ بان زيارة سليكة تستهدف البحث عن منطقة ملائمة لصيد اللؤلؤ. ووصل اليخت الى البحرين في ١١ ابريل ١٩٠١ فقامت جماعة منه بزيارة شيخ البحرين في ١٢ ابريل ١٩٠١ واستفسرت عن تجارة الاقمشة والسكر والاوانى الزجاجية وحصلت على عينات منها. سأل احدهم ان كان مسموحا للبلجيكيين بممارسة التجارة في البحرين فقيل له بأنه ليس هناك ما يمنعهم من ذلك فطلب من الحاكم تاكيدا كتابيا في هذا الشأن لكن الحاكم رفض ذلك.

اما الكابتن جرلاش قائد سليكة الذى زار الخليج في أبريل ١٩٠١ فقد عاد الى البحرين في اكتوبر ١٩٠١ واخبر جاسكن نائب المقيم بأنه اشترى اللآلىء الصغيرة من البحرين بـ ٣٠٠٠ فرنك وذلك فى زيارته السابقة وكسب ربحا ١٠٠٪ في اوروبا وجاء مرة أخرى ليساوم على صفقة اكبر لكنه وجد الاسعار هذه المرة مرتفعة جدا لذلك فإن مهمته باءت بالفشل.

ومن مكتب الهند ـ لندن في ٦ يوليو ١٩٠٠م الى الحاكم العام الهندى من جورج هاملتون وردت هذه المذكرة :

لقد أخذت بعين الاعتبار موضوع حماية المصالح البريطانية في ايران وقد علمت بانكم عينتم معتمدا سياسيا مساعدا في البحرين مؤقتا وكذلك ضابطا مؤقتا فى بندر عباس .

أرجو معرفة رأيكم حول اقتراح انشاء سكة حديدية من (كويتا) الى (نشكى). ان نهر قارون وموقع المحمرة ذو اهمية. لحكومة الهند. أرجو تعليقكم حول انشاء طريق يربط بين الأهواز واصفهان. ونحن مهتمون بالدفاع عن الهند ضد اى هجوم محتمل من حدود بلوشستان أو جنوب ايران أو من موانىء الخليج وان بريطانيا تعتمد على القوات البحرية في حين تحتل روسيا بعض الأماكن على أرض ايران والتى تعطى لها السيطرة على ايران كلها تحت ستار الامتيازات والاتفاقات.

أما في الخليج فان بريطانيا تواجه تحديات لاحتكارها التجارة ولسيادتها على المنطقة وقد اكدت فرنسا أخيرا حقها في مسقط وترغب المانيا في مد شبكة سكة الحديد كما زار الخبراء الالمان الكويت بهذا الصدد. وزارت السفن الروسية بندر عباس والموانىء الخليجية الاخرى. وهكذا بدأ ينخفض نفوذنا في الخليج. لقد طرأت هذه التطورات بسبب تطوير المواصلات ووسائل النقل مما يفرض علينا مراقبة الاوضاع في ايران بدقة تامة كي نحتفظ بأمن الهند. وهل هناك مجال للوصول الى التفاهم بين بريطانيا وروسيا بالنسبة الى مناطق النفوذ للبلدين في ايران ؟ اذا قدمنا مثل هذا الاقتراح الى روسيا ربما تشعر ايران باننا نقسم ايران بين بريطانيا وروسيا. فلا داعى لذلك في الوقت الحاضر.

وفي رسالة موجهة من الكابتن كوكس المعتمد السياسي في مسقط الى المستر بارنس في وزارة الخارجية في ١٥/٦/١٩٠١م وقد إرفق بها رسالة في نفس التاريخ منه الى كمبال وفيها يقول «رجعت الى مسقط بموافقة صاحب السمو السلطان في ٢٥/٥/١٩٠١م وفي هذه الرسالة مسألة النفوذ الفرنسي في عمان بالاضافة الى وجود معدن الفحم في صور التي تسكنها قبيلة (المشارفة) وعدد افرادها حوالى ٥٠٠ نسمة

وتسيطر عليها قبيلة بني ابو حسن لانها اقوى عددا. وتنتسب القبيلتان الى فرع الحناوى سياسيا مقابل فرع الغفيرى. وحسبنا اولا بأنه ليس علينا الا أن نحصل على تأييد قبيلة صغيرة في المقاطعة في جمع المعلومات عن تواجد الفحم فيها ولكن الفرنسيين سببوا قلقا لنا بأثارتهم شكوك القبليين في عملياتنا على الرغم من تأييد السلطان لنا ولكن وصول سفينة حربية بريطانية الى صور سهل علينا الامور فقد وجدنا القبليين راضين عن عملياتنا في استكشاف الفحم.(١١)

وهذا نص رسالة (ماركويس أوف لانس داون) الى السير هاردنج في مكتب الخارجية مؤرخة في يناير ١٩٠٢م : ان التقرير الذى بعثت به الى الحكومة البريطانية عن الوضع السياسى والمالي في ايران قد لقى عناية الحكومة حيث تشعر بالارتياح لان ايران ترغب في تطوير علاقات الصداقة مع بريطانيا. وعليك ان تؤكد من جديد لحكومة ايران مبادىء السياسة البريطانية نحو ايران اذ تهدف الحكومة البريطانية للاحتفاظ بسيادة شاه ايران واستقلال بلاده لان ايران تقع خارج مستعمراتنا في الهند بين امبراطوريتنا والقوى العسكرية الكبرى كما نعترف بمصالح روسيا في شمال ايران نظرا لحدودهما المشتركة الطويلة وان السياسة التى اتخذناها تجاه شمال ايران تخدم مصالحنا ومصالح ايران معا. وفي جنوب ايران لدينا مصالح تجارية ضخمة وعلى هذا الاساس لدينا مصالح سياسية أيضا فيه. وقد استفادت ايران من سياستنا لاننا قمنا بتطهير السواحل الخليجية من خطر القراصنة وقمنا بدور الشرطي في مياه الخليج. وهذا هو ما أدى الى ازدهار بوشهر وبندر عباس. كذلك ان امتداد نظام التلغراف عبر البلاد ساعد في تدعيم سلطة شاه ايران في وسط وجنوب ايران بالاضافة الى التقدم الصناعي والرقي التجارى في المنطقة.

وعلى الرغم من ان بريطانيا لا تعارض مصالح روسيا التجارية في الخليج الا اننا لا نحب ان تتخذ روسيا هذا مبررا لتمد نفوذها العسكرى في الخليج وتحتل أماكن استراتيجية فيه. واذا اعطت ايران امتيازات لروسيا كتأسيس محطة للتموين في الخليج أو محطة للتزويد بالفحم للجيش الروسى أو للاسطول البحرى الروسى فإن بريطانيا تعتبر ذلك تحديا لها وتأخذ الاجراءات اللازمة لمواجهة هذا التطور لانه يهدد أمن المستعمرات الهندية. كذلك لا تسمح بريطانيا لروسيا ان تتمتع بحقوق سياسية خاصة في جنوب ايران أو في سيستان وقد أعطت حكومة ايران نفسها في اكتوبر ١٨٩٧م ضمانا لبريطانيا بأنها لن تسمح لاية قوة خارجية ان تتولى ادارة الجمارك في

جنوب ايران. كما أكدت بريطانيا بأن لها مصالح في موانىء المحمرة وبوشهر وبندر عباس ولابد لحكومة ايران ان تستشير بريطانيا قبل ان تنفذ اية تعديلات في الاجراءات الجمركية فيها كما تحرص بريطانيا على ان تبقى ايران دولة مستقلة ذات سيادة كاملة دون ان تتعرض لاى ضغط أو سلطة او نفوذ من الخارج[١٢].

وبخصوص فرنسا فان شركة فرنسية تدعى (ايزورد) استأجرت باخرة سيفين لكي تقوم بزيارة استطلاعية للخليج في ١٨٨١م وحملتها بالبضائع الفرنسية فزارت السفينة مسقط والبصرة لكن المهمة لم تنجح وخسرت الشركة خسائر فادحة.

ثم بدأت شركة فرنسية خطا بحريا من البصرة الى الموانىء الخليجية في ١٨٨٢م وكان لديها عشر سفن لكن الشركة لم تواصل اعمالها وفي ١٨٨٩م انشئت قنصلية فرنسية في بوشهر ولكن لم تستمر طويلا وفي ١٨٩٧ أرسل نائب للقنصل واسمه (فران) الى بوشهر واقامت فرنسا وكالة قنصلية في لنجة فنزل القنصل الفرنسي في سفينة تركية يرفرف عليها علم فرنسي. ورفعت السلطات الايرانية العلم الفرنسى عن السفينة لكنهم رفعوه ثانيا بعد بضعة ايام بصورة رسمية.

وعاش مواطن فرنسى اسمه شابوى في الخليج حوالى ١٨٩١م وكان شبه مغامر وشبه تاجر ولكنه متآمر وورد في رسالة الكولونيل روس قوله: جاء شابوى الى مسقط في ١٨٨١ وادعى بانه مندوب لشركة فرنسية كبيرة في مارسيليا وجمع معلومات تجارية من أجل غرفة التجارة بباريس عن عمان والخليج. وعلى الرغم من انه قام بدعاية واسعة حول اعماله التجارية الا انه فقد ثقة الناس واضطر الى اغلاق مكتبه في ١٨٨٦م. ورجع شابوى لفرنسا في أواخر ١٨٨٦م ولكنه عاد الى مسقط كما جاء في العام القادم وفتح حانوتا لبيع الخمور في (جسك) لكنه لم يفلح في ذلك واضطر لاغلاقه بعد ٤ شهور وفي عام ١٨٨٨م ترك التجارة وعمل على سفينة حربية ايرانية (برسيبولى) لكنه طرد من منصبه بسبب سوء تصرفاته واستوطن بندر عباس ثم مارس شابوى اخيرا تجارة الاسلحة في الخليج في ١٨٩٣م.

المانيا:

أسست قنصلية المانية عامة في بغداد في عام ١٨٩٤ وقنصلية في بوشهر في نوفمبر ١٨٩٧ وحاولت كل من المانيا وتركيا فرض سيطرتها على الكويت عن طريق امتياز لانشاء سكة حديدية من بغداد الى الخليج. كما انشئت شركة المانية في البحرين في يونيو ١٩٠١ باسم (وانك هاوس) وهو عضو لشركة كبيرة في هامبورج.

وقد اتبعت المانيا منذ زمن قديم سياسة تجارية استهدفت فرض سيطرتها على شبكات السكك الحديدية في آسيا الصغرى وامتداد هذه الشبكة الى كل من حدود ايران والخليج الى وادي الرافدين وقد ناقشت الأوساط الالمانية مشاريع امتداد السكك الحديدية من المانيا وتركيا الى بغداد والخليج وكذلك حصلت المانيا على بعض المصالح في المواصلات التركية البرية . ثم اتخذت المانيا خطوات سريعة في ترويج مصالحها في الخليج مما بعث موجة من القلق في الاوساط البريطانية التي اعتبرت اهتمام الالمان بشئون الخليج تدخلا في منطقة ذات اهمية خاصة لها وذات نفوذ فيها(١٢).

تجارة الأسلحة في الخليج

على الرغم من ان حكومة ايران حاربت استيراد وتصدير وبيع الاسلحة والذخائر في ١٨٨١ الا انها لم تستطع ان تنفذ قرارها بسبب ضعفها وقد زاد الاهتمام بالأحوال الأمنية منذ بداية ديسمبر ١٨٩٧ وطلبت ايران من مسقط تعاونها في منع تجارة الاسلحة فلبى سلطان مسقط دعوة ايران ووعد بتنفيذ القانون بشدة ، كما وافقت بريطانيا على فرض رقابة على السفن البريطانية التي تمارس التجارة في الاسلحة سرا . وأصدر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مرسوما في ٦ فبراير ١٨٩٨ اعلن فيه حظر الاتجار في الاسلحة واعطاء الحق للسلطات الرسمية في تفتيش السفن المشتبه فيها .

المصلحة البريطانية وتجارة الإسلحة

تعاونت بريطانيا مع ايران في منع تجارة الاسلحة نظرا لان مسقط اصبحت مركزا لتجارة الاسلحة والذخائر وكان سلطان مسقط خائفا مما تعود عليه به هذه التجارة من المخاطر فالقبائل المتمردة في ظفار ومطرح كانت مسلحة بالاسلحة النارية ولم يكن فرض الحظر على تجارة الاسلحة سهلا نظرا للاتفاقيات القائمة على التجارة بين مسقط والولايات المتحدة الامريكية في ١٩ مارس ١٨٩١ ومع بريطانيا في ١٧ نوفمبر ١٨٤٤ ولم يعتبر فرض حظر على تصدير الاسلحة من بريطانيا الى الخليج خطة عملية . فتقرر اخيرا القيام بتفتيش السفن المشتبه فيها ومصادرة شحنات الاسلحة والذخائر .

وكانت بريطانيا تخاف من الهجوم على السفن التجارية الهندية الانجليزية حينما تعرضت بعض المحطات اللاسلكية داخل ايران للهجوم المسلح .

وكانت معظم الاسلحة من صنع بلجيكا وخسرت بريطانيا في هذه الناحية ايضا . وقد بلغ حجم تجارة الاسلحة البلجيكية المسجلة رسميا في ١٨٩٣/٩٢ ، ١٣٢١٠ روبيات وفي

٩٦/١٨٩٧ ، ٢٣٨٧١٩٥ روبية .
وعندما نظمت حملات التفتيش والمصادرة في كل من بوشهر ومسقط والبحرين تم مصادرة ١٦,٠٠٠ بندقية وحوالي مليونين ونصف مليون طلقة من الذخائر .

وأصدر سلطان مسقط مرسوما في ١٣ يناير ١٨٩٨ يعطي حقا للسفن البريطانية ان تصادر شحنات السفن المكونة من الاسلحة اذا رات انها موجهة الى الهند أو ايران على شرط ان يتم العثور عليها داخل مسافة ٣ كيلومترات من ميناء مسقط .

وطبقا لهذا المرسوم صادرت البحرية البريطانية شحنة اسلحة في ميناء مسقط في ديسمبر ١٨٩٨ وطبقا لمستندات السفينة كانت الشحنة موجهة لبوشهر عن طريق البحرين مع ذكر ميناء مسقط كميناء اختياري للزيارة . واكتشف فيما بعد أن الشحنة في الحقيقة كانت موجهة الى مسقط .

وقد رفعت الدعوى امام المحكمة في لندن ضد مصادرة الشحنة . وأثارت المحكمة عدة نقاط :

١ - هل يعتبر المرسوم السلطاني لمسقط قانونا لدولة ذات سيادة يجب العمل به ؟
٢ - هل يمكن لقائد بريطاني بحري ان يعتمد على هذا المرسوم لعملية المصادرة ؟ هل يتمشى هذا القانون مع القانون البريطاني ؟
٣ - هل اقتصرت عملية المصادرة على البضائع الممنوعة فقط أو شملت اشياء اخرى ؟
٤ - اذا قضت محكمة في مسقط في القضية هل يكون للحكم ثقل قانوني ؟
٥ - هل يكون لحكم محكمة مسقط الذي صدر بعد الحادث ثقل قانوني ؟
٦ - هل يكون المدعي ملزما بحكم محكمة مسقط ؟

وهكذا قضت المحكمة في لندن بالآتي :

١ - يتمتع سلطان مسقط بصلاحيات كاملة ليشرح القانون .
٢ - ان القائد البريطاني البحري على حق في الاعتماد على المرسوم السلطاني .
٣ - وجدت المحكمة البريطانية بأنه تمت مصادرة اشياء اخرى بالاضافة الى الاشياء المحرمة .
٤ - اذا حكمت المحكمة في مسقط في القضية كانت على حق فيه .
٥ - يكون لأي حكم يصدر من المحاكم المسقطية في هذا الشأن ثقل قانوني .
٦ - يطبق الحكم على المدعى على اساس ان المدعي كان عنده فرصة المرافعة امام القضاء في مسقط لكنه لم يمارس هذا الحق على الرغم من انه كان على المام بما يدور حوله بشأن القضية(١٤) .

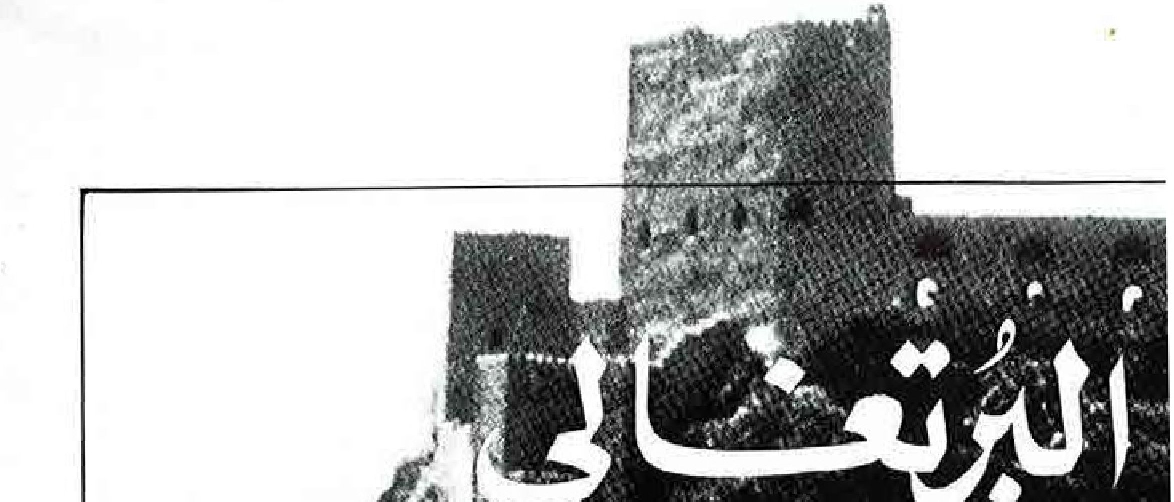
الهوامش

١ ـ سجلات الخليج ـ توسون ـ أئي او أر لندن ١٩٧٩ ص ١.
٢ ـ أ ئي او أر جي ٢٩/٢٥ من رسالة المقيم لوفيت المؤرخة ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤ .
٣ ـ المصدر السابق لوفيت.
٤ ـ تو سون ـ المصدر السابق .
٥ ـ أ ئي او أر ـ سي او ٧٣٢/٢٥ رقم ١٩٢٧/٣٠٦ ، ١٠ سبتمبر ١٩٢٧ رسالة من الكولونيل هاورث المقيم في بوشهر الى خارجية حكومة الهند .
٦ ـ توسون ـ المصدر السابق..
٧ ـ التطور السياسي والاقتصادي في الدول الخليجية سيف الوادي رماحي ، نيويورك ١٩٧٣ .
٨ ـ اف او ٣٧١/٣١٣ ، نوفمبر ١٩٠٧ .
٩ ـ الحماية والسياسة في البحرين ١٨٦٩ ـ ١٩١٥ ـ طلال توفيق فرح ، جامعة بيروت الامريكية ص : ٩١ ـ ٩٢ .
١٠ـ ال بي اس/٢٠/سي ٢٤٦ ص : ١ ـ ١٣ .
١١ـ نفس المصدر السابق ص ٤ ، ٥ .
١٢ـ اف او ٣٧١/٣١٣ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٠٧ .
١٣ـ ال بي اس/ ٢٠/ سي ٢٤٦ .
١٤ـ اف او ٦٠/٦٦٠، ٦٧٠ ، ١٨٩٨ .



الصراع العُماني

بدأ الغزو البرتغالي للبحار العربية في الشرق بعد وقت قصير من اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح وايجاد صلة مباشرة بين المحيط الهندي واوربا، في اعقاب رحلة فاسكوديكاما الشهيرة في ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨. وتركزت المراحل الاولى للغزو، في إخضاع موانيء شرق افريقيا، وانشاء قاعدة قوية على الساحل الغربي للهند. وشهدت سنوات ١٥٠٢ ـ ١٥٠٧، اخضاع كلوة وزنجبار وسوفالة وممباسا، والتقدم الى الموانيء الشمالية: لامو واوجا وبراوة [١]. وبحلول سنة ١٥٠٩، أي بعد مرور حوالى عشر سنوات على دخول البرتغاليين الى المحيط الهندي، تم اخضاع ساحل شرق افريقيا، وايقاع الدمار بالمستوطنات العربية الممتدة من سوفالة في الجنوب، الى براوة في الشمال، مع جزر زنجبار وبمبا ومافيا. وبنجاح البرتغاليين في ايقاع هزيمة كبرى باسطول المماليك في معركة ديو [٢]، تمكنوا من تأسيس قاعدة قوية في غوا، على



البرتغالي

خلال القرن السابع عشر

الدكتور صالح محمد العابد

الساحل الغربي للهند في ١٥١٠ أصبحت مركز ممتلكاتهم في آسيا واندفع البرتغاليون اكثر نحو الشرق، الى جزر التوابل (اندونسيا) والملايو واستولوا على مالقا[٣] في ١٥١٣[٤]. وكان الهدف الاستراتيجي للبرتغال التحكم المطلق بالتجارة الشرقية عن طريق السيطرة على مخارجها التقليدية، ومن ثم محق اقتصاديات العالم الاسلامي المهيمن على هذه التجارة. وهذا يفسر عدم اكتفاء البرتغاليين بالتحكم بالنقاط الاستراتيجية لمرات هذه التجارة، وتبنيهم اسلوب القرصنة والهجمات في البحار العالية ومحاصرة الموانىء لمنع السفن الاسلامية من ممارسة اى نشاط ملاحي او تجارى [٥]. ويتبع ذلك، تاسيس امبراطورية استعمارية تضم شرق افريقيا والهند والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، في المرحلة الاولى، تعقبها مراحل اخرى، باحتلال عدن واختراق البحر الاحمر والتحكم بساحليه [٦].

ويعود الفضل فى تنفيذ ذلك المخطط الى الكابتن افونسو البوكيرك[٧] الذى اخذ على عاتقه بناء امبراطورية قائمة على اساس متين لا يمكن تحديه فى المحيط الهندى. فكان احتلاله لجزيرة سوقطرا فى ١٥٠٧، ودخوله الخليج العربي بعدها مباشرة للاستيلاء على موانئه المهمة تطبيقا عمليا للسياسة التى رسمتها البرتغال. وبالسيطرة على سوقطرا والهيمنة على هرمز ومالقا، ثم تأسيس نظام للتحكم يستمد بقاءه وقوته من استمرار تفوق البحرية البرتغالية وعدم تعرضها لاى ضعف طارىء[٨].

اتسمت عمليات البوكيرك فى خليج عمان والخليج العربي باقصى درجات الوحشية والحقد والتدمير، واسفر عنها احتلال معظم موانىء الساحل العمانى من رأس الحد الى خورفكان [٩]، ثم اجبار هرمز [١٠]، على الخضوع. واقتضى الامر حملة برتغالية كبرى اخرى بقيادة البوكيرك لتثبيت احتلال هرمز فى ١٥١٥ التى اصبحت الى جانب مسقط والبحرين، قواعد الارتكاز البرتغالية الرئيسه فى الخليج العربي. ولحقبة تزيد على القرن، عانى سكان الخليج العربي مرارة الاضطهاد الشرس من جانب البرتغاليين الذين جعلوا انفسهم سادة الموانىء الرئيسه على جانبي الخليج، واستخدموا مركزهم، بقدر امكانهم، لمنع اية سفينة اخرى من التجارة. فكانت سفنهم تسيطر على مياهه، وحكامهم ينظمون تجارته باجازات تصدر منهم، والقلعة العظيمة فى هرمز تتحكم بمدخله ولم تتمكن اى من دول المنطقة ان تكسر القبضة البرتغالية لانه لم يكن بمقدور احداها تحدى البرتغاليين فى البحر [١١]. كما لم تؤد الثورات التى قام بها العرب فى الموانىء المختلفة الى زعزعة تلك السيطرة [١٢].

تعرضت الهيمنة البرتغالية الى الاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة، منها اتحاد العرشين الاسبانى والبرتغالي سنة ١٥٨٠[١٣]، فاصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠، عندما استعادت استقلالها، اذ توجه اهتمام أسبانيا على نحو بين تجاه مستعمراتها فى العالم الجديد [١٤]. ومنها تعصب البرتغاليين وقسوتهم، الى جانب ما اتصف به حكامهم وموظفوهم من جشع وفساد مما جعل سكان الخليج يمقتونهم[١٥]. هذا، بالاضافة الى ظهور قوى اوروبية اخرى منافسة لهم ولاسيما الانجليز والهولنديون [١٦]. ولكن اهم عوامل تفكك وانهيار السيطرة البرتغالية فى رأيي هو تنامى قوة العرب العمانيين فى عهد سلالة اليعاربة التى قدر لها ان تحسم الصراع لصالح العرب، وتقضى

على الامبراطورية البرتغالية لا فى الخليج العربي وحسب، وانما فى غرب المحيط الهندي كذلك.

شكل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي اماما فى نهاية ١٦٢٤ منعطف تحول مهما فى تاريخ عمان، دخلت فيه عصرا جديدا مجيدا «والامبراطورية البحرية التى سيبنيها اليعاربه ستكون ندا للقوى الاوروبية، وبفضل ثروتها اصبحت عمان من جديد قرابة قرن قطرا مزدهرا» [١٧]. وكان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية، هدفا مركزيا للامام ناصر لان ترصين الامامة وثباتها لا يمكن ان يتحقق دون تحرير الموانىء، فاذا لم يتم التحكم بها، والحصول على الدخل الذى تقدمه، فان ذلك سيؤدى الى نتائج وخيمة[١٨] ولكن الامام كان يدرك ان تحقيق ذلك الهدف لن يتم بدون وحدة وطنية تجمع ما بين القبائل العمانية كافة، وان ذلك الهدف سيكون له، دون شك دور حاسم فى قوة القبائل وتلاحمها. ولهذا فما ان تحقق له توحيد البلاد [١٩] حتى وجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير، فى نهاية ١٦٣٢ الى قاعدة الوجود البرتغالى فى مسقط [٢٠]. التقى الجيش العمانى بالقوات البرتغالية فى الدويج، قرب مطرح، وفى القتال الذى تلا ذلك، تم تدمير حصون المراقبة المشرفة على مسقط، وقتل عدد كبير من البرتغاليين، وهرب الباقون الى الحصون الداخلية، ولم يكن بمقدور القائد العمانى ان يحقق نتيجة حاسمة، بسبب الضعف الذى اصاب قواته، وقوة تحصينات مسقط، ولهذا وافق على طلب الهدنة الذى تقدم به القائد البرتغالى، متعهدا بعدم التعرض للعمانيين، ومن ثم، لم تسفر الحملة عن نتيجة حاسمة [٢١]. ولهذا وضع الامام خطة بعيدة المدى تستند الى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل، قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسية في مسقط فوجه اهتمامه اولا الى تحرير جلفار (رأس الخيمة) من السيطرة البرتغالية ـ الفارسية المتمثلة بقلعتين احداهما برتغالية، تعززها عند الساحل سفينتان حربيتان، اما الاخرى ففارسية يقود حاميتها المدعو ناصر الدين.

تقدم جيش الامام يقوده على بن احمد، يساعده عدد من قادة اليعاربة، فحاصر القلعة الفارسية. وكانت الحامية تتلقى الدعم من السفينتين الحربيتين البرتغاليتين، ولهذا فقد كان من المتعذر شن هجوم مباشر. ودفع هذا بالقائد العمانى الى ان يأمر بالهجوم ليلا على برج مرتبط بالقلعة وتمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، واندفعت مقتحمة القلعة، وبعد قتال لم يستغرق طويلا

استسلمت الحامية الفارسية[٢٢] وفي خلال ذلك، وصلت تعزيزات عسكرية جديدة لقوات الامام، تتألف من قوة من قبيلة الدهامش يقودها خميس بن رمضان. فاحكم حصار القلعة البرتغالية، التى اضطر قائدها الى طلب الصلح مقابل اخلاء القلعة وبذلك، تم تحرير ساحل السر باكملة في تموز ١٦٣٣[٢٣]. وقد دفع اندحار الفرس وطردهم من جلفار الى لجوئهم للانجليز طلبا للمساعدة، ولكن المشروع فشل حينما اعدم الشاه صفي حاكم شيراز في العام نفسه[٢٤].

شجع هذا الانتصار الامام على مواصلة الجهاد لتحرير صحار. ففى السنة نفسها، اصدر امره الى والي ليوا، حافظ بن سيف، لحشد قوة لهذا الغرض وتقدمت القوة الى صحار حيث واجهت مقاومة ضارية من البرتغاليين الذين تحصنوا داخل قلعتها القوية.. ومن اجل احكام الحصار على المدافعين، بنى القائد العمانى قلعة قريبة من القلعة البرتغالية[٢٥]. وتم التوصل الى هدنة وافق البرتغاليون بموجبها على وقف القتال وتسليم مراكزهم المحصنة في مطرح والسماح للعمانيين بالتجارة الحرة من مسقط[٢٦].

وباشر الامام في مطلع السنة التالية ١٦٣٤، عملياته لتحرير مينائى صور وقريات، وتمكن من تخليصهما من قبضة البرتغاليين[٢٧].

وهكذا، خلال عشر سنوات من وصوله الى الإمامة تمكن ناصر بن مرشد من طرد الغزاة من الساحل العمانى كله عدا نقطتين فقط، أدت هجماته المتواصلة على المراكز البرتغالية الى تدهور معنوى كبير في نفوس البرتغاليين كان بالامكان استغلاله بمواصلة الضغط على بقية قواعد ارتكازهم في الساحل ولا سيما مسقط. إلا أن تطور الأوضاع الداخلية، عرقل خطة الامام، وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على حركة التمرد التى قادها شيخ بنى هلال ناصر بن قطن، تعاونه بعض القبائل. ووقعت سلسلة من المعارك بين الطرفين استغرقت بضع سنين، استغلها البرتغاليون فأعادوا سيطرتهم على صور وقريات. وتمكن الامام بعد جهود مضنية أن يقضى على التمرد، وفر ناصر بن قطن الى الاحساء[٢٨]، وبذل البرتغاليون جهودهم لتشجيع الانشقاقات الداخلية، ففى ١٦٤٣ دعموا حركة تمرد قام بها الشيخ سيف بن محمد حاكم ليوا وساعدوه بقوة عسكرية، ولكن الامام سارع على رأس قوته فسحق التمرد، وأوقع هزيمة منكرةبالقوة البرتغالية وأسر أفرادها كافة. واتبع ذلك بتطويق الحامية البرتغالية في صحار. وبعد مقاومة غير مجدية أمام إصرار القوات العمانية

التى يقودها الامام بنفسه، استسلمت الحامية فى ٧ تشرين الثانى ١٦٤٣ (٢٩). ففتح ذلك الطريق الى طرد البرتغاليين من السواحل العمانية .

وشهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة فى حرب التحرير، وتتويجا للخطة الأولى بانتزاع قاعدة الارتكاز البرتغالية فى مسقط ، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان الى الهدف. ووصل هذا الجيش الى مسقط فى ١٦ آب، وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١١ أيلول، ونجح العرب خلاله من انتزاع معظم تحصينات الميناء، مما أجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح، وتضمنت الشروط التى عرضها القائد العربى : استلام قلعتى صور وقريات، اعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع فى مسقط التى يجب إزالة أسوارها، أن يدفع البرتغاليون جزية الى الامام (٣٠). وعد القائد البرتغالى دوم جولياودانورنها (Dom Juliao da Noronha) هذه الشروط ثقيلة جدا، ولهذا استؤنف القتال وتمكنت القوات العربية من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين. فورت كابتن ومكلا، واستمر الضغط بإصرار متزايد على البرتغاليين ستة أسابيع أخرى، مما ولد اليأس فى نفوسهم. ووجد دانورنها نفسه مجبرا على التماس الصلح مجددا موافقا على الشروط العربية، وتم توقيع اتفاقية فى ٣١ تشرين الأول ١٦٤٨ تضمنت : تدمير قلاع صور وقريات، إزالة القلعتين البرتغالية والعربية فى مطرح، وانسحاب القوات المتحاربة منهما، واعلان حيادهما، اعفاء العرب من دفع الضرائب وضمان حرية التجارة، امتناع البرتغاليين عن اقامة تحصينات خارج مسقط(٣١) ويمكننا القول أن هذه الاتفاقية حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي فى مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلا محاولة موحدة وقوية لتأمين طردهم منها .

أثارت أنباء الحصار العربى للحامية البرتغالية قلقا كبيرا فى الأوساط البرتغالية فى كل من مستعمرتها فى الهند، وفى العاصمة لشبونة، وسارع نائب الملك فى الهند الدوم فيلبي ماسكارنياس (Mas-carenhas) الى إرسال جزء من الأسطول لنجدة الحامية ووصل الأسطول الى مسقط فى منتصف تشرين الثانى ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التى تمت بين قائد الحامية والقيادة العربية وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الأسطول، فوجه الاتهام الى دوم جولياو لعدم صموده أمام الحصار العربى، وأرسله الى غوا حيث ألقى فى السجن(٣٢). وحينما وصل نبأ حصار مسقط الى لشبونه، أرسل الملك دوم جوا الرابع (Dom Joao) أوامره فى ٤ كانون الثانى طالبا بذل كل جهد من أجل التمسك بمسقط، وزيادة عدد

السفن الحربية فى الميناء، ومنع العرب من البقاء فى المدينة وتقوية حصن خصب [٣٣]. ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه تلك الأوامر الى غوا، كان الأمر قد خرج عن إرادة القادة البرتغاليين، وكان العلم العمانى يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر .

توفى الامام ناصر بن مرشد فى ١٠ ربيع الاخر ١٠٥٩ هـ/٢٣ نيسان ١٦٤٩، بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وأنجز المرحلة الأصعب من مراحل طرد الغزاة. ومع أنه توفى بدون أن يعين خليفة له، فان القضاة وكبار الشيوخ الذين اجتمعوا فى الرستاق يوم وفاته، اجمعوا على انتخاب ابن عمه وقائده العسكرى سلطان بن سيف اماما. وأيدت القبائل كافة هذا الاختيار. وشهد عهد الامام الجديد المرحلة الأخيرة من عملية التحرير وطرد الغزاة نهائيا من البلاد. فما أن أعلنت بيعته بالامامة، حتى تقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التى تكللت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر [٣٤]. وسارعت القبائل بابتهاج مستجيبة لدعوة الامام بحمل السلاح واحتشدت فى (سيح الرمل) خارج مطرح [٣٥] وكانت سنة ١٦٤٩ تقترب من نهايتها حينما تحرك سلطان بن سيف ليباشر العملية الحاسمة التى خطط لها لاستئصال الوجود البرتغالى الذى هيمن على الموانىء المهمة من ساحل عمان، متحديا مشاعر السكان مدة مائة وأربعين عاما .

فى مطلع سنة ١٦٥٠ قامت قوة فدائية صغيرة بهجوم ليلى مباغت فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط مجندلة كل من وقف أمامها من الغزاة. وأصيب البرتغاليون بانهيار معنوى تام، فتدافعوا الى السفن الراسية فى الميناء والى المركز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة. واندفع العرب نحو أعدائهم ونجحوا فى الاستيلاء على سفينتين واحاطوا بالمركز. ولم يتمكن المدافعون وعلى رأسهم الحاكم العام فرانسسكو دى تافونا من الصمود طويلا، فانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن ـ الجلالى) تاركين الحرس البلوش لمصيرهم. وفى يوم ٢٣ كانون الثانى استسلمت القلعة، وبعد ثلاثة أيام استسلم المركز [٣٦]. وتراجع الاسطول الذى يقوده براز كلدارا داماتوس الى ديو، بعد أن فقد اثنتين من سفنه. ونجد من المناسب ان نقتبس أقوال شاهد عيان لعملية الهجوم على مسقط أوردها مايلز [٣٧] :

«**بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدهم ضباطهم على الفور الى الهجوم على أسوار المدينة. وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن أن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل، أصدر أمره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة أطلقها البرتغاليون عليهم من**

قلاعهم على المرتفعات، ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم أن يتراجعوا ولم يبالوا بالأعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الأسوار على أشلاء من سقطوا. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من أبواب المدينة، مجبرين المدافعين على الفرار واندفعوا خلف أعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم أحد بالرغم من فرارهم باقصى سرعة باتجاه القلعة العظيمة حيث مقر الحاكم. وهذه القلعة مبنية على صخرة عظيمة تحيط بها المياه من كل جهاتها تقريبا، والطريق الوحيد المؤدى اليها لا يسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بارتقائه سوية. وأدرك العرب أن اقتحامها أمر مستحيل بدون تضحية جسيمة.

ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل وخسر العرب فى الهجوم ما بين أربعة الى خمسة آلاف من رجالهم... وأجبروا المتحصنين فى الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط» .

وفى الوقت الذى تم فيه تحرير مسقط، نجحت قوة عمانية أخرى فى الاستيلاء على حصن خصب [٣٨]. وهكذا جاءت نهاية ورثة افونسو البوكيرك فى الخليج العربى .

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا كان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو امراً حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد من تعرضها للتخريب. وبعد ان نظم اوضاع مسقط ، وعين عليها ابن بلعرب حاكما وامر بترميم اجزاء السور الذى تعرض للتخريب خلال المعارك، ركز اهتمامه على قوته البحرية. فالصراع مع العدو سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى. ولتحقيق نتيجة حاسمة، كان على العمانيين تطوير بناء سفنهم، وتبني طراز جديد من السفن الحربية. وقد شكلت السفن البرتغالية التى اسرها العرب خلال معارك التحرير، نواة الاسطول الحديث[٣٩] . وخلال وقت قياسي، تحرر العمانيون من الاسلوب التقليدى فى بناء السفن ذات الهيكل الذى تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوروبى من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة . وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبنى بالواح مثبتة بالمسامير[٤٠] . وتمكن ائمة اليعاربة المتعاقبون[٤١] وحتى عام ١٧١٨، من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية فى غرب المحيط الهندى، وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثانى من القرن الثامن عشر .

وصف الكابتن تشارلس لوكير الذى زار مسقط فى ١٧٠٦ المدينة واسطولها بقوله[٤٢] : «تطور هذا الميناء كثيرا على ايدى العرب الذين انتزعوه من القبضة البرتغالية.. ويمتلك العمانيون اربعا وعشرين سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية واحدى سفنهم تحمل ٧٠ مدفعا، وليس فى اسطولهم سفينة تحمل اقل من ٢٠ مدفعا. ومع صعوبة الحصول على البارود، فان العرب اكثر الناس سخاء به فى كل المناسبات... وتجدهم يرفعون راياتهم الحمر بخيلاء على كل صوارى سفنهم» . اما هاملتون، فقد قدر الاسطول العماني في سنة ١٧١٥ بانه يتألف من: «سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا واثنتين بـ ٦٠ مدفعا، وواحدة ذات ٥٠ مدفعا، وثماني عشرة سفينة اصغر حجما تحمل ما بين ١٢ الى ٣٢ مدفعا لكل منها، وبعض سفن الترانكي او السفن ذات المجاديف تحمل من ٤ الى ٨ مدافع لكل منها»[٤٣] . اما السالمي، فقدر قوة الاسطول فى الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما[٤٤] .

جاء رد الفعل البرتغالى على الاندحار فى مسقط سريعا، فما ان وصلت انباء الهزيمة الى نائب الملك دوم فيلبي، حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربى، واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بالسعي للحصول على مساعدة الفرس ضد العمانيين[٤٥]. وبعد ان توقف الاسطول فى ميناء كونك، اتجه الى القطيف وهناك التقى اسطولا عمانيا، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين بعد ان فقدوا سفينة حربية اسرها العرب الى جانب ست سفن تجارية برتغالية[٤٦] .

وفشل اسطول برتغالي اخر اكثر قوة ارسله نائب الملك في آذار ١٦٥٠ فى استعادة خصب او اي ميناء اخر على ساحل عمان، امام مقاومة الاسطول العمانى[٤٧] . وقد ولد النمو السريع للقوة البحرية العمانية اقصى درجات القلق لدى البرتغاليين، فكتب نائب الملك الى حكومته : «اصبح العرب على ثقة كبرى بانفسهم... بحيث تتطلب مواجهتهم ارسال اسطول كبير، لا من اجل تدميرهم فقط، وانما للحيلولة دون توجههم الى ممباسا، وهو امر اصبح بمقدورهم تحقيقه[٤٨] وفشل اسطول كبير ثالث ارسل فى مايس ١٦٥٢ في تحقيق نتيجة حاسمة[٤٩] .

الهبت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققها العمانيون حماستهم فلم يكتف الامام سلطان برد حملات الاغارة البرتغالية على سواحل عمان، بل عمد الى نقل الحرب الى مناطق وجود العدو في المحيط الهندى. ففي ١٦٥٢ هاجمت قطعة من الاسطول العماني الحامية البرتغالية فى زنجبار وابادت معظم افرادها ومن بينهم قائد الحامية[٥٠] وتعرضت المواقع

البرتغالية في الهند الى الهجمات التالية : بومباى فى ١٦٥٥ و ١٦٦١ ، وديو فى ١٦٦٨ ، و١٦٧٠ و١٦٧٦ ، وباسين فى ١٦٧٤ ، وسالست فى ١٦٩٤ و ١٦٩٩ ، وباسلور ومانغلور فى ١٦٩٥ و ١٦٩٦ . وشمل ميدان المعارك غرب المحيط الهندى، وخاض العمانيون صراعا طويلا لتحرير موانيء شرق افريقيا[٥١]. ونجح الامام سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ - ١٧١١ فى تحرير ممباسا بعد حصار متواصل للقاعدة البرتغالية دام اكثر من سنتين[٥٢]. وتقدم الاسطول العماني على طول ساحل شرق افريقيا مجبراً الحاميات البرتغالية على الاستسلام، فتحررت بمبا وزنجبار وباتا وكلوه «واستقبل السكان بسعادة غامرة تحررهم من السيطرة البرتغالية» [٥٣].

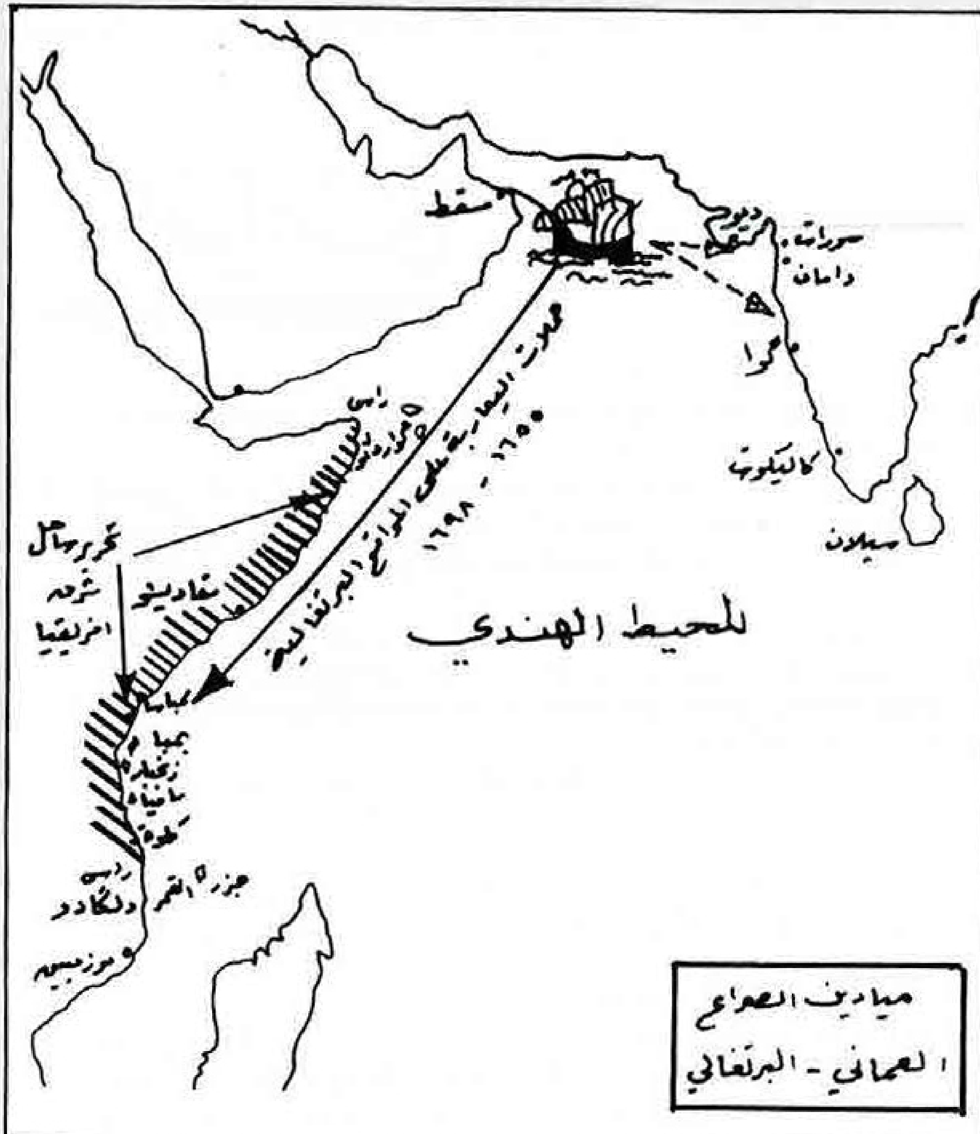
وشجعت الهزائم المتوالية التى اوقعها العرب بالبرتغاليين سكان شرق افريقيا على القيام بثورة شاملة، وتمكن الثوار من تدمير المواقع البرتغالية الاخرى، واصاب الانهيار النفوذ البرتغالي من رأس غوار دانو الى رأس دلغادو[٥٤] .

وادت الضربات التى وجهها العرب للمواقع والاساطيل البرتغالية الى اضعاف البرتغاليين عسكريا وشل تجارتهم مما اتاح الفرصة لمنافسيهم الاوروبيين لتحقيق المكاسب على حسابهم فى الهند وجنوب شرق آسيا وانتزاع ممتلكاتهم. فقد شنت هولندا حرب استنزاف على الوجود البرتغالي فى جنوب شرق اسيا وتمكنت في ١٦٤١ من انتزاع مالقا، وفى ١٦٥٦ استولت على كاليكوت، وفى ١٦٥٨ على سيلان، وتعاقب سقوط القواعد البرتغالية على طول ساحل كورماندل وارخبيل الملايو[٥٥] .

ويتجلى الضعف الذى اصاب البرتغاليين فى لجوئهم الى الانجليز طلبا للدعم . وتعبر المعاهدة المعقودة بين الملك الفونسو السادس وتشارلس الثانى فى ٢١ حزيران ١٦٦١، وكانت ثمرة الزواج بين كاترين ابنة ملك البرتغال وملك انجلترا عن ذلك الضعف، اذ تنازلت البرتغال فيها لانجلترا عن جزيرة بومباى ذات الاهمية الاستراتيجية ونصت مادتها الحادية عشرة: من اجل تمكين ملك انجلترا من الدفاع عن رعايا ملك البرتغال ومساعدتهم وحمايتهم فى تلك الانحاء، فان ملك البرتغال ينقل الى ملك انجلترا وورثته، الى الابد ميناء وجزيرة بومباى بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها»[٥٦] .

وهكذا فقد ادت الضربات العمانية للبرتغاليين فى البر والبحر الى بلوغهم درجة الاعياء «وما ان انتهى القرن السابع عشر، حتى لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين فى اى حقل من حقول التجارة الشرقية»[٥٧] . ولم يبق لهم من قواعدهم المنبثة فى الشرق الا جيوب قليلة اهمها غوا وادامان[٥٨] .


تحرير سواحل عمان
١٦٣٢ - ١٦٥٠
مضيق هرمز
الخليج العربي
جلفار
رأس الخيمة
دبا
خورفكان
صحار
الباطنة
بركة
مطرح
مسقط
قريات
صور
رأس الحد
الرستاق
الجبل الأخضر
نزوة
الشرقية
الظاهرة


مسقط
المحيط الهندي
هجمات اليعاربة على المواقع البرتغالية
١٦٥٠ - ١٦٩٨
تحرير ساحل شرق افريقيا
مقديشو
ممباسا
بمبا
زنجبار
مافيا
كلوة
جزر القمر
موزمبيق
دامان
جوا
كاليكوت
سيلان
ميادين الصراع
العماني - البرتغالي

٣٠- سرحان بن سعيد الازكوى، كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد القيسي ص ١٠١ . Miles p. 194.

٣١- Ibid, pp. 195 – 210.

٣٢- Ibid, p. 195

٣٣- Ibid,

٣٤- Bathurst, Maritime, pp. 98– 9 .

٣٥- G. P. Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, by Sali. Ibn Razik, London, 1871

٣٦- Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 106– 7

ومن الجدير بالذكر ان هناك اختلافا بسيطا فى تاريخ استسلام الحاكم العام فى كتاب (Miles)، ففي الصفحة ١٩٦ يرد التاريخ المذكور فى المتن، وفي ص ٢١١ يحدد يوم ٢٨ كانون الثانى .

٣٧- Miles, pp. 196 – 7.

انظر ايضا :

W. Phillips, Oman, a History, London 1967. pp. 46 – 47

٣٨- Bathurst, The YaRubi, p. 111, Miles, p. 198

٣٩- Bathurst, Maritime, p. 99

٤٠- Robert Landen, Oman Since 1856, Princeton, 1967, p. 54 .

٤١- سلطان بن سيف ١٦٤٩ - ١٦٧٩ ، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩ - ١٦٩٢ سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ - ١٧١١ ، سلطان بن سيف الثانى ١٧١١ - ١٧١٨ .

٤٢- Charles Lockyer, An Account of Trade in India, London, 1711, pp. 206 – 7 .

٤٣- Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. by : W. Fosger, London, rep 1930, Vol. I. P. 51.

٤٤- حدد السالمي طول المدفع بـ (٣٠٠ شبر) ما يقارب سبعة امتار السالمي ص ١٠٠ .

٤٥ - Bathurst, The Ya'Rubi, p. 112.

٤٦- Miles, p. 198 .

٤٧- Ibid, Bathurst, Maritime, p. 99.

٤٨- Quoted in: Bathurst, The Ya'Rubi, p.113.

٤٩- Ibid, pp. 114 - 5.

٥٠- Phillips, p. 47.

٥١- Miles, p. 214-215, R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, pp. 65 - 6; Charles Law, History of the Indian Navy 1613 - 1862, London, 1877, Vol. I, pp. 311 - 312.

Freeman Grenvile, The Coast 1498 - 1840, in: History of East Africa, ٥٢ـ
Oxford, 1963, PP. 141 - 2.

Miles, pp. 220 - 1. ٥٣ـ

Ibid, p. 222; Phillips, p. 49. ٥٤ـ

William Milbrun, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete ٥٥ـ
Guide, London, 1813, Vol. I, p. 308 - 9.

R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Engagements Between the ٥٦ـ
H.E.I.C and the Native Princes. Bombay, 1851, pp. 563 - 4.

Coupland, p. 53. ٥٧ـ

Singh p. 7 - 8. ٥٨ـ

★★★★★

العربُ أسّسوا مُدن شـ

وحوّلوها لمراكز تجاريّة

لعب العرب دورا هاما فى تاريخ القارة الافريقية، وتاريخها الحضارى بصفةخاصة. وكان هذا الدور اكثر وضوحا فى شرق القارة، وفى شمالها وفى شمالها الغربى.

وسنقصر الحديث هنا على دور العرب الحضارى فى شرق القارة. وقبل التعرض لهذا الدور ومظاهره لابد من الاشارة بسرعة للمصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات عن هذه العلاقة بين العرب وشرق القارة، كما أننا سنشير فى عجالة الى تطور علاقات العرب بسكان شرق القارة حيث اننا سنركز على الاثار الحضارية للعرب فى هذه المنطقة فى الفترة بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر.

أولاً: مصادر معلوماتنا عن علاقة العرب بشرق أفريقيا

يرجع الفضل فى القاء الاضواء على علاقة العرب بشرق أفريقيا الى ما كتبه الرحالة العرب وغيرهم ممن زاروا هذه الجهات وكتبوا عنها ـ قبل ان تبدأ

الابحاث الحديثة التى استطاعت على اساس ما كشفت عنه من آثار، وبقايا، ومن دراسات انثروبولوجية وغيرها ـ الكشف عن بعض الجوانب الغامضة

...رق أفريقيا

...هـــامّة



فى العلاقات العربية الافريقية المبكرة.

ومن الرحالة العرب الذين كتبوا عن شرق افريقيا ـ المسعودى وقد زار الهند، والصين وزنجبار والصومال، ومدغشقر، وسجل مشاهداته فى هذه البلاد فى ثلاثين جزءاً وكانت زيارته لشرق افريقيا فى صحبة بعض التجار العرب من عمان، وساحل الخليج العربى، وجاءت آخر رحلاته لهذه المناطق فى عام ٣٠٤هـ (٩١٦م) ووصل فيها الى سفالة وتحدث بتفصيل عن حياة سكانها(١)

اما الادريسى فانه لم يزر ساحل أفريقيا الشرقى كما فعل المسعودى ـ لكن اهميته فيما نحن بصدده ترجع الى انه قضى معظم حياته فى بلاط الملك روجر الثانى (Roger II) ملك صقلية فاستفاد من ثراء هذا الملك، ومن الاخبار التى كانت تتناقلها السفن التجارية المترددة على سواحل جزيرة

صقلية فتحدث مثلا حديثا شائقا عن مدينة مالندى بشرق افريقيا ومناجم الحديد بها، وعن مدن ممبسة، وكلوة، وبراوه، وبركة ونشاطها التجارى كما تحدث عن غيرها من المدن الساحلية الاخرى بشرق افريقيا، وعن جزر المحيط الهندى مثل زنجبار.

ومن أشهر الرحالة العرب الذين زاروا مدن شرق افريقيا ابن بطوطة - فقد اشتهر بكثرة التجوال - إذ زار الهند والصين فى عام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) وزار مدن الساحل الشرقى لافريقيا وكتب معلومات مفصلة عن الحياة فى هذه المدن وما كانت تتمتع به من ثراء وفى مقدمة المدن التى زارها وقدم وصفا لها - مقديشيو، وممبسة، وكلوة، وقد وصف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها معتمدا على مشاهداته هو حين زارها، وكذلك عما سمعه ممن قابلهم اثناء هذه الزيارة من الشخصيات البارزة فى هذه البلاد(٢)

أما عن المصادر الهامة التى تعرضت لتاريخ العرب بشرق افريقيا - خلاف كتابات هؤلاء الرحالة - ففى مقدمتها المخطوطة المعروفة (بالسلوة فى اخبار كلوة) وهى لمؤلف مجهول تعرض فيها لتاريخ مدينة كلوة منذ تأسيسها فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الى وصول البرتغال الى هذه البلاد فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى).

وأصل هذه الوثيقة مفقود لكن النسخة المعروفة لنا ترجع الى عهد السلطان برغش بن سعيد - سلطان زنجبار وهى بخط عبدالله بن مصبح الصوافى وقد أهداها السلطان للسير جون كيرك (Sir John Kirk) الذى اهداها بدورة للمتحف البريطانى وهى محفوظة هناك تحت رقم ٦٦٦، وقد قام بتحقيقها ارثر سترونج (Arthur Strong) ونشرها فى عام ١٨٩٥(٣)

ورغم أنه يتضح مما ذكره المؤلف فى مقدمته - انها من مقدمة وعشرة أبواب اورد محتوياتها وذكر انه سيختم كتابة بولاية الملك العادل السلطان محمد بن حسن بن السلطان سليمان بن السلطان محمد، وأنه صنف هذه المخطوطه بناء على طلب هذا السلطان - فان المخطوطة المنشورة تتوقف عند نهاية الباب السابع وقد كثرت الأقوال حول الابواب الثلاثة الباقية فمن قائل ان المؤلف قد اضطر للتوقف عند نهاية الباب السابع لأن الابواب الثلاثة التالية كانت تتناول فترة السيطرة البرتغالية، وهى فترة حرجة لم يستطع المؤلف معالجتها بصراحة ودقة، ومن قائل ان الامر يرجع لعدم عثورنا على

النسخة الاصلية الكاملة للمخطوطة(٤)

ولابد من الاشارة هنا وقبل ختام المصادر العربية الى انه من أوفى وأبعد ما كتب عن المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ما كتبه الدكتور جمال زكريا قاسم تحت عنوان المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية - المجلد الرابع عشر ١٩٦٨ ص ١٦٩ - ٢٣٠)

اما عن المؤرخين الاجانب الذين تعرضوا للعلاقات العربية الافريقية - فلعل ما كتبه المؤرخ الانجليزى تشيتيك (Chittick) رئيس المعهد البريطانى للتاريخ والآثار بشرق أفريقيا عن كلوة من احسن ماكتب عن هذه البلاد - فقد استند فى كتاباته على ما أسفرت عنه عمليات التنقيب الاثرية فى هذه البلاد كما انه تعرض لبعض ما كتبه الرحالة والمؤرخون الآخرون من العرب وغيرهم عن شرق افريقيا فى دراسة مقارنة طيبة.(٥)

وقد تعرض غيره من الكتاب والمؤرخين الأجانب لدراسة تاريخ شرق أفريقيا وعلاقة العرب بهذه البلاد وتأثيرهم الحضارى فيها - لكن يؤخذ على أغلب الكتاب عدم التزامهم بالموضوعية فى دراساتهم وفى عرضهم للاحداث وتحليلها.

فالمؤرخ الانجليزى جرانفيل فريمان (Freeman - Granville) مثلا الف اكثر من كتاب عن شرق افريقيا - ابرز دور الهنود فى هذه الجهات وقلل من شأن العرب رغم مخالفة ذلك للامر الواقع(٦)

كذلك شأن المؤرخ اوليفر رولاند (Oliver, Roland) فى كتابه عن تاريخ شرق افريقيا وفجر التاريخ الافريقى حيث وصل الامر الى انه رجح ان الاسلام وصل الى شرق القارة عن طريق الهند بعد ان انتشر هناك، وتجاهل تماما جهود عرب شبه الجزيرة العربية فى هذا المجال رغم ان المنطق على الاقل يشير الى غير ذلك(٧)

وقد ركز بعض هؤلاء المؤرخين الاجانب على دور الفرس فى شرق افريقيا وغلبوه على الدور الذى قام به العرب هناك - ومن هؤلاء المؤرخ المعروف كوبلاند(٨)

هذه بعض المراجع والمصادر التى تعرضت لتاريخ شرق افريقيا ودور العرب فى هذه المنطقة فى هذه الفترة وان كنا لا نقلل من اهمية هذه المراجع فى دراسة تاريخ هذه المنطقة فاننا يجب ان نأخذ اقوالها بشيىء غير قليل من الحذر.

وقد افاض الاستاذ الدكتور جمال

زكريا فى بحث وتقييم المصادر العربية بالذات فى بحثه السابق الاشارة اليه والمنشور فى المجلد الرابع عشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٨) فليرجع اليه من اراد المزيد من المعلومات فى هذا الشأن.

ثانياً علاقات العرب المبكرة بشرق أفريقيا قبل الإسلام

تجمع المراجع المختلفة على ان علاقة عرب شبه الجزيرة بشرق افريقيا بدأت في وقت مبكر وبغرض التجارة . ويصعب تحديد زمن بعينه كبداية لهذه العلاقات .

وقد ساعدت عدة عوامل على هذه الاتصالات المبكرة بين العرب وسكان شرق القارة في مقدمة هذه العوامل عامل جغرافي هام ـ ففى ديسمبر من كل عام تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي ويستمر هبوبها بانتظام في هذا الاتجاه حتى نهاية فبراير ، ومن ابريل الى سبتمبر ينعكس اتجاه الرياح فتهب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ـ من زنجبار الى مدخل خليج عدن ثم الى خليج عمان ـ فلقد اصبح في امكان التجار الذين يبدأون رحلتهم التجارية في سفنهم الشراعية الصغيرة ـ التي كان يطلق عليها اسم الداو (Dhows) من الشاطىء العربي في الشتاء ـ الاستعانة بقوة الرياح الذاتية في سفرهم جنوبيا صوب الساحل الافريقي ، وفي اثناء عودتهم ـ الى اوطانهم في الربيع ـ وبعد ان يكونوا قد قضوا بضعة شهور في التجارة ـ يجدون ايضا الرياح مواتية للاتجاه صوب الوطن الاصلي محملين بسلع افريقية متنوعة . وبمضى الوقت اصبحت للتجار والبحارة العرب خبرة تامة بمواقيت الرياح واتجاهاتها ، وأصبحت رحلاتهم بين شبه الجزيرة العربية والساحل الافريقي ومدة استقرارهم بهذا الساحل تنتظم تنظيما دقيقا تبعا لمواسم الرياح المنتظمة المعروفة لهم[٩] .

كذلك من الاسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم ـ العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص ـ انهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الجزيرة العربية ظهيرها طارد فكان طبيعيا ان يتسللوا الى شرق افريقيا في مجموعات

صغيرة انتشرت في البداية في بعض الجزر الساحلية مثل مافيا Mafia وزنجبار Zanzibar وبمبا Pemba ، وفي المراكز الساحلية مثل سفالة Sofala ومالندي Malindi وكلوه Kilwa وممبسة Mombassa ، ودار السلام . واستطاعت هذه المجموعات ان تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وحضارتها وان تندمج مع السكان الوطنيين(١٠) .

وأشير الى ما ذهب اليه بعض الجيولوجيين من أن شبه جزيرة العرب كانت في العصور الجيولوجية القديمة متصلة بالقارة الافريقية ومهما يكن فمن المرجح ان مضيق باب المندب كان في العهود القديمة أصغر مساحة مما هو عليه الآن ، وكانت القارتان اشد تقاربا فلم يكن يفصل بينهما أكثر من خمسة وعشرين ميلا - ولذا كان هذا الباب منذ اقدم العصور - طريقا لدخول موجات بشرية متتالية من شبه جزيرة العرب وبالذات لشرق افريقيا(١١) .

وهكذا اصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والحين بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الافريقي ليكونوا حلقة اتصال بين اخوانهم في الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الافريقية والجهات الداخلية فيها ، وبمضي الزمن زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب امارات عربية في هذه السواحل الافريقية لها اتصال بالجماعات أو الشركات التجارية العربية - اذا صح التعبير - في الجزيرة العربية نفسها ، وبالتجار في القارة الافريقية ونحن نجد وجوه شبه كثيرة بين هذه العمليات العربية وبعض العمليات الاوربية في القرن التاسع عشر وما قبل القرن التاسع عشر في انها كانت عمليات تجارية تدار وتنظم بواسطة جماعات مالية تجارية . وفيما يتعلق بالشركات الاوربية كانت الادارة تستمر مدة في يد الشركة ثم بعد ذلك تتنازل الشركة عن الامتيازات التي حصلت عليها للحكومة ، واشهر مثال لذلك شركة الهند الشرقية البريطانية (British East India Company) التي استطاعت ان تحصل على امتيازات وحقوق في مناطق واسعة من الهند ثم انتقل الامر كله للحكومة الانجليزية ، وبالطبع لم تبلغ الشركات أو الجماعات التجارية العربية هذا القدر من التنظيم الذي بلغته هذه الشركات الاستعمارية الاجنبية لكنها كانت على كل حال تتمثل في مجموعات من التجار يساهمون ويشتركون في هذا النشاط لكن لم تكن وراءهم حكومة مركزية واحدة - فكان الامر ينتقل في النهاية لاحد الرؤساء يطلق على نفسه لقب سلطان أو أمير فتصبح له الكلمة كما ان الغرض التجاري كان

هو الغالب على هذه الجماعة العربية فلم تكن الفكرة كما كانت عند الكثير من الشركات الاوربية - فكرة استعمارية أي استغلال الارض ثم الانتشار منها للداخل ، ولهذا كان الاستقرار غالبا مقصورا على الساحل فحسب ، وفي نقط مختارة تخدم هذا الهدف التجاري ، ولذا كانت تختار هذه النقط بحيث تكون لها مزاياها التجارية ، كثغر من الثغور سهل الاتصال بداخل القارة ، ويسهل ايضا الوصول اليه من الجزيرة العربية المقابلة .

فالغرض الاساسي من الاستقرار العربي بالساحل الافريقي المقابل لشبه الجزيرة العربية هو استغلال الحاصلات الداخلية ونقلها للثغور الساحلية للاتجار فيها ، وكذلك استيراد ما يمكن تصريفه من البضائع داخل القارة - ولهذا لم تهتم هذه الجماعات العربية بامتلاك الارض الا بالقدر الضروري لحماية الثغر

التجاري ومن ثم كانت رقعة الممالك العربية على الساحل الافريقي ضيقة ، ولا شك في ان عوامل طبيعية اخرى أملت الى حد ما عدم الانتشار للداخل ، منها عوائق تتمثل في التضاريس ، والمناخ ، والنبات ، لكن لا شك ايضا في ان الاغراض التجارية حتمت في كثير من الاحيان ارسال حملات للداخل لحماية القوافل وضمان وصولها ، ولعقد اتفاقات تجارية مع امراء افريقيين في الداخل ، ولذا فقد انتقل النفوذ العربي في ظروف كثيرة نحو باطن القارة وترتب على هذا معرفة العرب ببعض الجهات الداخلية في القارة الافريقية قبل ان يتجه اليها نشاط المستكشفين الاوربيين .

ويمكن ان نتصور ان التوسع العربي في ساحل شرق افريقيا قد مر بمرحلتين(١٢) :

١ - اقتصر الامر في البداية على الجزر الساحلية «زنجبار وممباسة وبمبا ، ولامو» وعلى بعض الاقاليم الساحلية .

٢ - انتشر النفوذ العربي بعد ذلك في شرق القارة في المناطق المواجهة للجزر ثم أخذ يتوغل في الداخل وأدى هذا لظهور المدن ثم الامارات العربية بشرق القارة . وبظهور الاسلام برزت عناصر اخرى جديدة دفعت لهجرة العرب لشرق افريقيا .

ثالثاً تطور علاقات عرب شبه الجزيرة بشرق أفريقيا في ظل الإسلام

بظهور الاسلام دخلت علاقات عرب شبه الجزيرة العربية بشرق افريقيا في مرحلة جديدة فقد حدثت اسباب ودوافع أدت لهجرة جماعات من عرب شبه الجزيرة العربية لشرق افريقيا لا للتجارة فحسب بل للاقامة الدائمة والاستقرار في هذه المناطق .

وكانت اولى الهجرات العربية المعروفة الى شرق القارة في فجر الاسلام ـ الى ارض الحبشة فقد اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيرها من البلاد لهجرة اصحابه عندما اتجهت قريش الى تعذيبهم وسجنهم وذلك لأن ملك الحبشة اشتهر بعدم التعصب لفريق دون فريق أو مذهب أو ديانة دون ديانة[١٣] .

وكانت بلاد الحبشة معروفة للعرب فقد كانت لقريش بها صلات وثيقة ومصالح متبادلة ، وزيارات منتظمة وكان التجار العرب يستعينون بالاحباش بكثرة في حروبهم القبلية وفي حراسة قوافلهم كما كان بمكة عدد غير قليل من العبيد الاحباش ـ ادرك بعضهم الاسلام وأسلم[١٤] .

وقد اشار الطبري الى ذلك فقال : «ان ارض الحبشة كانت متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا»[١٥] .

ونشير الى ان الهجرة الى ارض الحبشة كانت أول هجرة في الاسلام وأنها تمت في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة المحمدية (٦١٥م) حيث خرج أحد عشر رجلا واربع نسوة من المسلمين متسللين فوصلوا الى ميناء الشعيبة ومنها حملتهم سفينتان للتجار الى ارض الحبشة[١٦] .

وتوالت بعد ذلك هجرات العرب المسلمين الى ارض الحبشة وبقى المهاجرون المسلمون بأرض الحبشة حتى استقرت الامور للمسلمين في المدينة المنورة ، ويبدو ان المسلمين الذين استقر بعضهم بالحبشة ما يقرب من ستة عشر عاما لقوا من النجاشي معاملة طيبة ، واستمرت العلاقات الودية بين العرب والحبشة بعد عودة المهاجرين العرب لشبه الجزيرة العربية[١٧] .

على ان الاوضاع السياسية في شبه جزيرة العرب كان لها آثارها على هجرة العرب للساحل الافريقي المقابل فحين اشتد النزاع بين احزاب المسلمين كانت بعض الاحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر الى شرق افريقيا وتتخذ هذه الجهات موطنا لها ، فأثناء حكم عبدالملك بن مروان مثلا هاجر عدد من العرب الى لامو واستقروا بها[١٨] .

وأدت سياسة البطش التي اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبدالملك بن مروان على العراق الى هجرة عدد كبير من المعارضين لهذه السياسة الى شرق افريقيا .

وقد أسهمت امارة عمان التي تشغل الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ويحدها المحيط الهندي من ناحيتين والصحراء العربية من الداخل بالنصيب الاكبر في تزويد الساحل الافريقي الشرقي بعناصر جديدة من العرب باستمرار .

فقد كانت هذه الامارة كالجزيرة المنعزلة ، وكان لهذا الموقع أثره في طباع السكان وميولهم فلم يقبلوا الخضوع لاية قوة بل ظلوا يناضلون ضد النفوذ الفارسي ثم العثماني ، بل ان خلفاء المسلمين انفسهم لم يكن لهم الا نفوذ أسمي على عمان .

وفي القرن الثامن الميلادي انتخب حاكم لعمان يلقب بالامام ، وظل يتعاقب على الحكم في عمان عدد من الائمة المنتخبين لمدة عشرة قرون .

والعرب في عمان عبارة عن خليط من عدة قبائل عربية لكن اهمها قبيلة أسد وكانت مدينة مسقط هي المنفذ البحري للامارة وكانت هذه المدينة هي النافذة التي أطل منها أهل عمان على العالم الخارجي فخرجوا لعرض البحر وساهموا في التجارة العربية في المحيط الهندي ، وذاعت شهرتهم في بناء السفن فكانوا يبحرون لجزيرة زنجبار وغيرها من الجزر التي اشتهرت بأشجار جوز الهند الضخمة التي تصلح لصناعة السفن فيقطعون الاخشاب ويصنعون منها السفن ويحملونها بثمار جوز الهند لتسويقها في الجهات البعيدة .

وان كانت مسقط تعتبر بابا للخروج لكنها لم تكن كالبصرة مثلا تعتبر ميناء للخروج كما تتحكم ايضا في الطريق البري المؤدي لاوربا ومنها ، فكان طبيعيا ان يخرج اهلها للبحار وان يبحث هؤلاء البحارة المهرة من أهل عمان عن وسيلة للثراء لا تعتمد على البر بل يستغلون فيها مهارتهم البحرية ومن ثم فقد اندفعوا بكامل قوتهم للبحر وأصبحت لهم السطوة في الخليج العربي والمحيط الهندي وانتهى المطاف بجموع منهم بالاستقرار على الشاطىء الشرقي لافريقيا لخدمة الاغراض التجارية بها وأدى ذلك لتكوين امارات عربية في هذه الجهات(١٩) .

ويعتقد ان العمانيين يرجع اليهم الفضل في تكوين أقدم امارة اسلامية في شرق افريقيا فعندما هاجروا الى لامو كما ذكرنا سابقا واستقروا في المناطق الواقعة شمال ممبسة نجحوا في مستهل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) في تكوين حكومة تعتنق مذهب الخوارج الذي كان منتشرا في عمان في ذلك الوقت(٢٠) .

واستطاع العمانيون ايضا عن طريق المصاهرة بين الاسرة النبهانية صاحبة النفوذ في عمان وبين حاكم جزيرة بات Pate بالساحل الافريقي مد نفوذهم الى هذه الجزيرة . ففى اوائل القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) تزوج سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى امير عمان

بابنة حاكم بات وآلت السلطة بعد ذلك الى الاسرة النبهانية التي ظلت تحكم هذه المنطقة حتى القرن التاسع عشر الميلادي[٢١] .

وقد نجح أئمة عمان في ان يمدوا سلطانهم على ساحل افريقيا الشرقي من ارض الصومال حتى نهر روفوما Rovuma وان يقيموا في هذه المناطق امارات تابعة لهم ، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممبسة وزنجبار وغيرهما من المناطق الهامة وظل سلطان أئمة عمان قويا ومعترفا به في كلوة ، ومافيا ، وبمبا ، وزنجبار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين بدأت الدول الاوربية تلتهم املاك سلطان زنجبار .

هذا فيما يتعلق بالعمانيين ودورهم في شرق افريقيا على اننا نشير بوجه عام الى ان ما تعرضت له الدولة الاسلامية في تاريخها من صراعات وأزمات ادى لهجرات مستمرة من المسلمين لساحل افريقيا الشرقية ، فحدث حين شدد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك قبضته على الشيعة الزيدية باليمن ان هاجر عدد منهم الى شرق افريقيا حيث استقر بهم المقام هناك وأصبح لهم نفوذ على ما عرف باسم ساحل البنادر[٢٢] .

وحدث مثل هذا ايضا حين اشتد النزاع بين الامويين والعباسيين وانتهى بالقضاء على الدولة الاموية وفرار مروان الثاني آخر خلفاء الامويين الى مصر وتوغله مع عدد من اتباعه الى صعيد مصر ووصولهم الى النوبة ، بينما توجه بعضهم الى مصوع ، كما حدث حين احتدم النزاع بين العباسيين والشيعة واستمر هذا الصراع حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعد ذلك وادى لهجرة المغلوبين على أمرهم من وجه قوات اعدائهم ، وكان ساحل شرق افريقيا بموقعه الجغرافي ولمعرفة العرب السابقة به ملجأ لهؤلاء الفارين الراغبين في الاستقرار في اماكن بعيدة عن متناول ايدي اعدائهم[٢٣] .

رابعاً الآثار الحضارية للعرب في شرق أفريقيا

استقر العرب كما رأينا في شرق افريقيا من وقت مبكر وساعدت الاحداث المتتابعة في بلاد العرب على المزيد من الهجرة العربية والاستقرار بشرق افريقيا ، وكانت للعرب الذين استقروا بشرق القارة ومازالت آثار عميقة في حضارة هذه البلاد وسكانها يمكن ان نجملها فيما يلي :

١ . تأسيس المدن والحواضر الهامة وتعميرها وادارتها :

ترتب على استقرار العرب بشرق افريقيا قيام تجمعات سكانية لم تلبث ان نمت وأدت لقيام عدد من المدن الهامة ، وقد قامت هذه المدن في البداية كمراكز تجارية لخدمة التبادل التجاري ثم بالتدريج ازدهرت وتطورت واصبحت نواة لامارات عربية هامة وامتدت هذه المدن بطول الساحل الافريقي من سواكن شمالا الى سفاله جنوبا[٢٤] .

كما استقر العرب في جزر المحيط الهندي مثل جزر بمبا ، وزنجبار ، ومافيا ، وكلوه ، وجزر القمر وغيرها[٢٥] .

ونلاحظ ان بعض هذه الجزر كان قريبا من الساحل لا يفصلها عنه سوى خور بحري ضيق بينما كان البعض الآخر بعيدا عن الساحل وقد عمرت هذه الجزر بقدوم العرب واصبحت هي الاخرى مراكز تجارية هامة .

وقد شبه البعض هذه المراكز العربية بالساحل الشرقي للقارة أو الجزر القريبة منه بالمدن اليونانية (City States) حيث ان استمرار الهجرة الى هذه المناطق ترتب عليه وجود مجتمعات مكتملة منظمة وكان الشيوخ يؤلفون ما يمكن ان نشبهه بمجلس المستشارين يشارك الحكام في المسئولية وكان الافراد يلجأون لهذه المجالس طالبين رد الظلم أو الانصاف من جور اعدائهم[٢٦] .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تاريخ كل مدينة من المدن التي أسسها العرب في شرق القارة وتطور نموها خلال القرون المتعاقبة لكن نشير لأهم هذه المدن .

فبعض المؤرخين يرجعون تأسيس مدينة مقديشيو (Magadishu) عاصمة جمهورية الصومال حاليا الى هجرة جماعة من الحميريين الى الساحل الافريقي حيث استقروا وأسسوا المدينة ، وقيل انه تم انشاؤها قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام بمائتي عام ، بينما يرجع آخرون تأسيسها الى وقت متأخر حين اشتد الصراع بين العباسيين والقرامطة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ففر بعض افراد من القرامطة ونزلوا ساحل الصومال وشيدوا مدينة مقديشيو ، ثم جاء في اعقابهم تجار من شيراز يعزى اليهم بناء مسجد الاحقاف ثم جاء بعدهم تجار من العراق استقروا بهذه البلاد للتجارة ايضا ، واستمرت مقديشيو في النمو والازدهار واصبحت قبلة الوافدين من الجزيرة العربية وغيرها من البلاد الاخرى[٢٧] .

وهناك روايات مماثلة تروى عن تأسيس مدينة كلوه ، فالبعض يذكر ان بعض المسلمين هاجروا لهذه المنطقة من جزيرة العرب واستقروا فيها وأسسوا مسجدا ، والبعض

يربط بين هذه المدينة وبين الحسن بن علي الشيرازي من الأسرة الحاكمة في شيراز وانه واتباعه اضطروا للهجرة من وجه السلاجقة ويرجعون هذه الهجرة الى ما بين ١٠٥٥ ، ١١٠٠ .

وقد زار ابن بطوطة مدينتي مقديشيو وكلوه خلال رحلته التي قام بها بشرق افريقيا وتحدث عن مشاهداته بهذه المدن ومظاهر الحضارة بها .

وترتب على غارات المغول ودخولهم بغداد في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨) دفع مزيد من المسلمين للهجرة الى الساحل الشرقي لافريقيا[٢٨] .

ويرتبط تأسيس مدينة سفاله بالتجارة في الذهب ويرجح ان العرب قد جاءوا الى المنطقة الواقعة قبالة جزيرة مدغشقر في عام ٣٠٢هـ (٩١٥م) بهدف التجارة في الذهب المستخرج من المناطق الداخلية والتي اطلقت عليها بعض المصادر العربية اسم (ظفار ـ الزنج)[٢٩] .

وسفاله هي اقصى منطقة في الساحل الشرقي لافريقيا وصل اليها العرب ، وقد ظلت سفاله مركزا تجاريا هاما للعرب حتى اوائل القرن السادس عشر . وقد تحدث ابن ماجد عن سفالة ووصف مناخها وسكانها وطبيعة ارضها ومعادنها وذلك في الارجوزه التي أطلق عليها اسم الارجوزة السفالية[٣٠]

ويرجع البعض تأسيس براوة الى جماعة قدمت من الاحساء في اوائل العام الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأخذت المدينة تنمو وتزدهر منذ ذلك الوقت .

وترجع هجرة العرب بأعداد غفيرة الى لامو الى فترة حكم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وفي اثناء اشتداد الصراع بين الامويين والعباسيين .

وقد تتابعت هجرة العرب الى لامو في السنوات التالية حتى عمرت المدينة وازدهرت .

ومن الموانىء الهامة التي أسسها العرب في الساحل الشرقي للقارة مدينة مالندي .

ويقال ان اول من وفد اليها جماعة من العراق ، لكن خربت المدينة التي أسسها العراقيون في حوالي عام ٣٦٥هـ الى ان جاءت جماعات اخرى من شيراز ومن شبه جزيرة العرب فأعادت بناء المدينة .

ومن المدن الهامة في الساحل الافريقي الشرقي مدينة ممبسة ويرجح أن جماعة من عمان رحلت للساحل الافريقي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث أسست هذه المدينة وأطلقت عليها هذا الاسم وهو اسم مدينة في عمان[٣١] .

وقد كانت هناك منافسة شديدة بين مالندي وممبسة على السيادة في هذه المنطقة بالساحل الافريقي ، وقد زار ابن بطوطة ممبسة في عام ١٣٣١ وتحدث عن المدينة ومساجدها وسكانها[٣٢] .

وقد وقفت ممبسة في وجه البرتغال ورفضت الخضوع لهم سلما وقد انتقم البرتغال من المدينة وسكانها فخربوها وسلبوا ما استطاعوا سلبه واشعلوا النار في الباقي منها كما نشير اليه بتفصيل اكثر فيما بعد .

وبالاضافة لهذه المدن والموانىء الهامة التي انشأها العرب في شرق افريقيا والتي عرفنا عن تاريخها وحضارتها مما كتبه الرحالة عنها نشير الى انه كما يبدو كان هناك عدد كبير آخر من المدن والمواقع العربية بالساحل الافريقي لكنها اندثرت فلم تلق من الشهرة ما لقيه غيرها من المدن التي بقيت حتى مجيء البرتغال في نهاية القرن الخامس عشر وكانت لهم معهم مواقف محددة ، وقد أوردت بعض المراجع بيانات عن بعض هذه المواقع العربية التي اندثرت(٣٣) .

أما عن نظام الحكم والادارة في هذه المدن :

فلا توجد لدينا صورة كاملة تفصيلية عن نظام الحكم في المدن العربية لشرق افريقيا ، لكن نستطيع من كتابات الرحالة الذين زاروا هذه المناطق خاصة في الفترة السابقة لوصول البرتغاليين لشرق القارة ، وكذلك مما كتبه البرتغاليون انفسهم ، ان نكوّن صورة قريبة من الواقع عن النظام الذي ساد هذه المدن .

وبالاجمال يمكن القول ان العرب الذين جاءوا لساحل شرق افريقيا جاءوا بتقاليدهم القبلية وعاداتهم وان تأثرت بالطبع بما كان سائدا في هذه المناطق من تقاليد افريقية ، لكن على العموم لم يشهد الساحل قيام وحدة سياسية كاملة ولا وجدت امبراطورية عربية تجمع شتات المدن وان كانت هناك محاولات قامت بها بعض المدن من أجل فرض نوع من السيطرة على المدن الاخرى والاشراف على اوجه النشاط الرئيسية كالتجارة في الموانىء ، وباستثناء فترات قصيرة استطاعت فيها سلطة اسلامية ان تفرض نفوذها على معظم مدن الساحل وتطالبها بدفع الجزية رمزا للتبعية(٣٤) .

وكما قلنا ان المدن العربية التي قامت في شرق القارة كانت تتمتع بنظام خاص للحكم فقد كانت كل منها تحت حكم حاكم يصل للسلطة اما عن طريق الوراثة أو القوة ، ويعاون الحاكم مجلس من الشيوخ المحليين وكان في بعض الاحيان الى جانب الحاكم وزير اول وسكرتير دولة ، وقاض أو أكثر بالاضافة الى المحتسب وخطيب المسجد وعدد من الموظفين والمعاونين(٣٥) .

فمدينة كلوه مثلا بلغت منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) درجة كبيرة من السطوة والنفوذ وزاد نفوذها وامتد الى موانىء الجنوب وعند وصول البرتغال الى موزامبيق كان بها ممثل لسلطان كلوه(٣٦)

كذلك أصبحت مدينة بات في القرن الرابع عشر تمثل قوة كبرى تحت حكم أسرة النبهان ، وقد مدت هذه الاسرة نفوذها على براوة ومقديشيو ولامو ومالندي ونافست كلوه السيادة في هذه المناطق .

وهكذا نستطيع ان نقول ان هذه المدن أو المراكز العربية بساحل افريقيا كانت في أغلب فترات تاريخها مدنا مستقلة فلم تكن هناك امبراطورية عربية واحدة تضم هذه المدن باستثناء فترات ليست طويلة استطاعت فيها سلطة واحدة ان تبسط سلطانها على مساحة من الساحل ، ومن هذه المحاولات التي نجحت في ربط المدن الساحلية الهامة بعضها بالبعض الآخر ما قامت به الاسرة الشيرازية التي ظلت تحكم كلوه وما تبعها من مدن الساحل مدة طويلة امتدت لثلاثة اجيال متتالية ثم تلتها في نهاية القرن الثالث عشر اسرة المهدي وهي اسرة من الزيديين جاءت من اليمن ، كذلك الدولة الاسلامية التي عرفت باسم (دولة الزنج) والتي نجحت في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي في توحيد معظم المراكز الاسلامية على ساحل شرق افريقيا وظلت قائمة حتى سقطت على يد البرتغال في اوائل القرن السادس عشر(٣٧) .

ولا بد من الاشارة الى ان معظم معلوماتنا عن نظام الحكم في هذه الامارات العربية نستقيه مما كتبه بعض الرحالة العرب مثل ابن بطوطة(٣٨) عن مشاهداتهم اثناء رحلاتهم ، كذلك الرحالة أو المكتشفون البرتغال فقد ذكروا بعض ما شاهدوه عندما وطأت اقدامهم هذه البلاد ، فقد ذكر الرحالة فاسكو داجاما Vasco da Gama الذي اشتهر برحلته حول افريقيا في اواخر القرن الخامس عشر ما شاهده في موزامبيق من مظاهر حضارية ، كذلك دوراث باربوسا Duarte Barbosa تحدث عن أوضاع كلوه وممبسه ومالندي ، وبمبا وزنجبار وقت زيارته لها .

ويعلق كوبلاند على ما اشار اليه البرتغاليون الذين وصلوا لاول مرة لشرق افريقيا فدهشوا للمظاهر الحضارية التي لمسوها بهذه الجهات التي لم يكونوا يعرفونها فعلق على ذلك بقوله : «اننا يجب الا نندهش لما يذكره هؤلاء الرحالة عن مظاهر الحضارة التي نقلها العرب لشرق افريقيا فان العرب كانوا في ذلك الوقت حملة لواء الحضارة في الغالب فلا شك في ان مدارس بغداد والقاهرة وتونس كانت حتى القرن الثالث عشر تفوق تلك التي في اكسفورد أو في أي مدينة مسيحية اخرى(٣٩)

وتغنينا هذه الشهادة من أجنبي استعماري عن كل تعليق آخر .

ورغم ان كوبلاند ذكر ان العرب كانوا في السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكمة

صاحبة السيادة لكن مما لا ريب فيه انهم لم يكونوا بعيدين عن السكان أو متباعدين عنهم ، فقد كان هناك تقارب وتجانس ، وكانت هناك مصالح مشتركة ، وأدى هذا للاختلاط والتزاوج ، وقد عاد الكاتب فناقض نفسه واعترف في اكثر من موضع في كتابه بروح المحبة التي سادت بين السكان الاصليين وبين المهاجرين العرب وترتب عليها تزاوجهم ، وكانت نتيجة ذلك جنس تميزت فيه الصفات الزنجية المعتدلة كما أثرت فيه كثير من العادات والصفات العربية(٤٠).

وقد ابرز جميع الكتاب والرحالة الحقيقة التي ذكرناها سابقا وهي أن العرب في شرق افريقيا كوّنوا امارات متفرقة فلم تكن لهم امبراطورية متحدة فعلا ولو انه في فترات متقطعة كانت لامارة منها سيادة على منطقة واسعة تشمل عدة امارات ، فحين جاء البرتغال مثلا لشرق افريقيا في القرن الخامس عشر كانت لامارة كلوة السيادة على الجزء الجنوبي من الساحل ، ولما وصل فاسكو داجاما الى موزامبيق وجد ان حاكم المدينة كان نائبا عن سلطان كلوه وكان يجبي الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية التي ترد للمدينة ، وكانت هناك علاقة مصاهرة بين سلطاني كلوه وممبسه ، وهكذا - كما ذكر هؤلاء الرحالة - كان لامراء كلوه شيء من السيادة سواء عن طريق القوة أو عن طريق السياسة والمصاهرة - على جزء كبير من ساحل افريقيا الشرقي وان لم تكن لهم السيادة الكاملة بالمعنى الذي نعرفه اليوم .

على انه يستفاد ايضا من كتابات هؤلاء الرحالة ان الامارات العربية كان قيامها على الساحل وان تعمقها للداخل كان فقط بالقدر الذي يخدم الغرض التجاري فكل ما كان يهم هذه الامارات هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا الاخرى ومبادلتها بالعاج والذهب الروديسي والعبيد وغير ذلك من منتجات هذه الجهات فلم يتعمقوا الى الداخل الا بقدر ما تطلبه عملية المبادلة هذه .

٢ـ الآثار الاقتصادية للعرب في شرق افريقيا :

لقد كان التبادل التجاري في مقدمة الدوافع التي دفعت العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية لشرق القارة ، وأدى هذا كما رأينا لاستقرار جماعات عربية بشرق القارة وتكوين المدن والامارات العربية هناك .

والحقيقة ان وجود العرب بهذه المناطق أدى لنهضة اقتصادية شاملة ولتطوير في المعاملات وفي أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة .

وقد أشار الرحالة العرب والاجانب الى ازدهار الحركة التجارية بين شرق افريقيا وشبه جزيرة العرب - اشار لذلك المسعودي وابن بطوطة كما اشار

دورات باربوسا (Duarte Barbosa) وغيرهم وليس هذا بغريب فقد كان العرب في الفترة من القرن الاول الهجري حتى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سادة المحيط الهندي والمتحكمين في التجارة بين اوربا واسيا عبر هذا الطريق ، وقد اتسعت حركة هذه التجارة فشملت تجارة التوابل وأدوات الترف الشرقية التي يحضرونها من الهند وسيام والفلبين والصين بالاضافة الى سن الفيل والعاج والذهب والحديد ، والرقيق وغيرها من واردات شرق افريقيا ، وبذا أصبح شرق افريقيا حلقة هامة في شبكة هذا التبادل التجاري واصبحت هناك مراكز مهمة على امتداد هذا الطريق من الصين شرقا الى اوربا[41] .

وفيما يتعلق بصادرات شرق افريقيا يأتي الرقيق في مقدمتها ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان تجارة الرقيق كانت معروفة قبل مجيء العرب الى شرق القارة كما انه حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر واوائل السادس عشر لم تكن لهذه التجارة صورتها البشعة وتطوراتها التي تطورت اليها بعد ذلك حين ادخل الاوربيون الاسلحة النارية في عمليات القنص وتوسعوا في استخدام الرقيق الافريقي لسد حاجاتهم المتزايدة للايدي العاملة الرخيصة في العالم الجديد فتضخمت هذه التجارة البشعة واتخذت صورا واساليب اخرى[42] .

ويأتى العاج فى مقدمة صادرات شرق أفريقيا وكان يصدر إلى الهند ، والصين وغيرهما ويستخدم فى صناعة مقابض السيوف والخناجر وأدوات الزينة وتطعيم المصنوعات الخشبية وغيرها من المصنوعات العاجية والتماثيل التى اشتهر بها هذا العصر وقد تميز عاج شرق أفريقيا بليونته وسهولة تشكيله[43] .

كذلك يأتى فى قائمة صادرات شرق أفريقيا الصمغ العربي وجوز الهند وزيت النخيل ومن المعادن الذهب والفضة .

وقد دلت المعلومات التى وصلت إلينا على أن الذهب كان يستخرج بكميات كبيرة من مناجم شرق أفريقيا (منطقة زيمبابوى الحالية) وكان ميناء سفالة هو الميناء الرئيسى لتصدير الذهب ، وقد أدى هذا بالبعض الى الربط بين شهرة شرق أفريقيا فى الذهب ودور العرب فى عمليات التعدين بهذه الجهات وبين كنوز الملك سليمان وقصة مملكة سبأ .[44]

وحين وصل البرتغاليون إلى شرق القارة كان نشاط العرب التجاري فى مجال التعدين وتجارة الذهب قد وصل إلى ذروته فقرروا الاستيلاء على القواعد العربية الهامة فى شرق القارة والقضاء على نفوذ العرب التجارى ونشاطهم فى مجال التعدين .. وسنشير لهذا بالتفصيل فيما

بعد .(٤٥)

كذلك كانت التوابل والبخور من صادرات شرق أفريقيا لأوروبا فقد كانت التوابل كالقرفة والقرنفل وجوزة الطيب واللبان والفلفل تضاف إلى الطعام كما تستخدم فى العلاج ، كما أن البخور كان لازما وازداد الطلب على هذه المنتجات وقد فرض المماليك فى مصر والحجاز قيودا على نقل هذه البضائع لأوروباوفرضت المكوس الباهظة على السفن التى تنقلها عبر موانىء الشام ومصر وكان هذا من الدوافع الرئيسية وراء محاولات البرتغاليين للسيطرة على المراكز الرئيسية لهذه المنتجات واكتشاف طريق آخر لنقلها لأوروبا دون المرور بالموانىء التى يسيطر عليها المماليك .(٤٦)

هذا ولم يقتصر نشاط العرب الاقتصادى فى شرق القارة على التجارة فقط فقد كان لوجودهم واستقرارهم فى بعض المناطق بشرق أفريقيا أثره على ازدهار الزراعة وعلى الاهتمام بالثروة الحيوانية وان كان نشاطهم فى هذا المجال أقل من نشاطهم فى مجال التجارة والتبادل التجاري .

كذلك نشير الى دور العرب فى ازدهار بعض الصناعات كصناعة المنسوجات القطنية وبعض الصناعات التعدينية المتصلة باستخراج معادن الحديد والذهب .

وأشير إلى أن النشاط الاقتصادى للعرب بشرق القارة وما ترتب عليه من تبادل تجارى اتسع نطاقه شرقا إلى الهند والصين وغربا الى أوروبا ترتب عليه وجود عملة تستخدم كوسيلة لهذا التبادل بدلا من طريقة المقايضة التى كانت سائدة وقد عثر على العديد من العملات النحاسية الخاصة بامراء كلوة ومافيا وزنجبار وممبسة وغيرها من امارات شرق افريقيا فى عصور مختلفة .(٤٧)

وتحتفظ المتاحف الخاصة بالبرتغال بالعديد من هذه العملات .(٤٨)

هذا كما عثر فى شرق افريقيا على بقايا متعددة من الخزف الصينى وغيره من صناعات الصين والهند وأندونيسيا وكلها ترتبط بهذا النشاط العربي والتبادل التجاري بين ما نسميه اليوم بالشرق الأقصى وشرق افريقيا .

٣ ـ أثر العرب فى الحياة الاجتماعية فى شرق أفريقيا :

لا تكاد توجد لدينا دراسات وافية عن طبقات المجتمع فى شرق أفريقيا وعن حياتهم الاجتماعية ، كما أنه لا توجد لدينا احصاءات وافية عن السكان من حيث العدد والنوع . لكن نستطيع أن نلم ببعض المعلومات عن السكان وعاداتهم وتقاليدهم من خلال كتابات الرحالة العرب والأجانب .

والحقيقة التى نستشفها من هذه

الكتابات أنه فى المدن والامارات العربية بشرق افريقيا وجدت أجناس متعددة . فقد كان هناك العرب الذين وفدوا من أجيال واستقروا واستوطنوا هـذه البلاد واختلطـوا بالسكـان الأصليين (الافارقة) وأصبحت هذه الامارات العربية مزيجا تجمع فى أنظمتها بين أشياء افريقية أصيلة وأشياء عربية .. ولكن مما لا شك فيه أن العرب المهاجرين إلى هذه الجهات قد حملوا معهم تقاليدهم وعاداتهم .

وقد لمس ابن بطوطة بنفسه أن العرب فى هذه المناطق التى استقروا فيها لم ينسوا تقاليدهم وعاداتهم كما نوه الرحالة الأوروبيون أيضا الذين زاروا هذه الامارات العربية بشرق أفريقيا بما لمسوه فى هذه المجتمعات من رقى وتحضر .

ورغم أن كوبلاند مثلا يذكر أن العرب كانوا فى السواحل الافريقية يكونون ارستقراطية تمثل الطبقة الحاكة صاحبة السيادة .. لكن مما لاريب فيه أنهم لم يكونوا بعيدين عن باقى السكان .(٤٩)

وإلى جانب العرب وجد الهنود الذين وفدوا للساحل بأعداد غفيرة أيضا وكان لهم نشاطهم التجارى ونشـاطهم فى أوجـه الاقتصـاد الاخرى .(٥٠)

وقد ترتب على التزاوج بين العرب والأفارقة فى شرق القارة نشأة الشعب السواحيلى بمميزاته اللغوية وصفاته التى هى مزيج من الصفات العربية والصفات التى كان يتميز بها البانتو الافارقة ، واللغة السواحيلية التى انتشرت فى سواحل شرق أفريقيا تمثل هذا المزج بين الحضارتين العربية والتقاليد والعادات الافريقية .

ولا شك فى أن التأثيرات العربية لم تكن فى كل مكان بنفس القوة .. رغم أن الحضارة العربية باعتبارها كانت فى ذلك الوقت متفوقة فقد كان لها الغلبة فى كثير من المجالات على العادات والتقاليـد التى توارثهـا الافارقة وهذا شىء طبيعى . ويقسم بعض المؤرخين السواحيليين بشرق القـارة الى سواحيليـين شماليـين وسواحيليين جنوبيين والبعض لا يجد أساسا قويا لهذا التقسيم .(٥١)

لا نستطيع أن نقر التقسيمات التى يحاول البعض تقسيم المجتمع بشرق القارة إليها كما هى . فقد ذكر كوبلاند العرب باعتبارهم فى قمة هذا المجتمع الذين يمثلون الارستقراطية الحاكمة فيه ثم المولدين نتيجة الاختلاط بين العرب والافارقة فالهنود ، ثم العبيد فى القاعدة .(٥٢)

ورغم أن الهنود مثلا تميـزوا بنشاطهم فى التجارة وبعض الأعمال المالية واليدوية بينما كان العبيد يعملون فى أعمال الزراعة التى تحتاج لجهد عضلى وفى خدمة الحريم فإن التمييز والفصل بين هذه الطبقات لم يكن بهذا العنف . هذا وأشير إلى أنه

ليس لدينا تقدير دقيق لعدد السكان فى كل مدينة وتوزيعهم تبعا للطبقات أو الاجناس ، فقد اختلفت التقديرات التى أعطاها الكتاب والرحالة اختلافا كبيرا يدعو لعدم الاطمئنان لأى منها .(٥٣)

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة لا بأس بها للمجتمع فى شرق أفريقيا وقت زيارته لهذه البلاد ، فوصف عادات الناس فى المأكل والملبس وتقاليد الضيافة وبعض العادات وتقاليد ومراسيم السلطنة . ولا شك فى أن الصورة التى رسمها ابن بطوطة لهذا المجتمع قبل وصول البرتغاليين للساحل تدل على مدى التقدم الحضارى الذى بلغه هذا المجتمع وأثر العرب القوى والواضح فى ذلك .(٥٤)

وقد أكدت أقوال الكتاب البرتغاليين الأوائل الذين زاروا الساحل بعد ذلك هذه الحقيقة .

ومن الأشياء الهامة التى أبرزها ابن بطوطة تقاليد السلطنة ، وأشار الى معاونى السلطان من الأمراء والقضاة والفقهاء والوزراء وما يتبع من مراسم عند استقبال السلطان لكبار الزوار .. فتدق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية بما يشبه السلام الوطنى اليوم .

وهناك مندوبون فى الموانىء لاستقبال الزوار كما أن للسلطان حاشية ، وتوجد بعض السجلات لتسجيل أسماء الزائرين ، كما أن هناك دارا للضيافة وغير ذلك من مظاهر الحضارة التى تعتبر فريدة فى ذلك العصر .(٥٥)

أما عن المبانى سواء الأميرية أو المساجد أو المنازل فقد كانت فى كثير من مدن الساحل مبنية بالحجر والملاط وهى جميلة ومنسقة والشوارع مرصوفة بالاحجار .(٥٦)

وإذا كانت المنازل الحجرية ـ كما يرجح ـ منازل الطبقة الغنية من المجتمع فإن منازل عامة السكان كانت ـ كما يعتقد ـ مبنية من الطين والبوص والقش على نظام المسكن الأفريقي المعروف فى القارة ، وأثاث المنزل يختلف من طبقة لأخرى . بينما أشاد الرحالة بأثاث منازل الاثرياء التى كانت تحوى الكثير من وسائل الراحة والتى غطيت أرضية بعضها بأنواع من السجاد ولعله من تأثيرات فارسية فإن منازل الفقراء كانت لا تحوى الا عددا من الأسرّة تشبه ما يعرف (بالعنجريب) فى السودان ، وأدوات وأوانى لحفظ الأطعمة والمياه ووجدت بعض وسائل الاضاءة كالمصابيح الفخارية . كما يعتقد أن الشمع كان يستخدم أيضا لهذا الغرض ، وقد وجدت بقايا أوان من البرسلين الصينى ، كما وجدت صوان وأطباق نحاسية . هذا بالاضافة الى أوعية وأدوات من الأصداف البحرية .(٥٧)

وقد ذكر ابن بطوطة أن سكان

مقديشيو يستخدمون صحافا من الخشب .

وقد أشار الرحالة الى أنواع الأطعمة المنتشرة فى هذه المناطق الساحلية ، فالطعام السائد من الأرز والسمك واللحم وبعض الخبز من الذرة والفاكهة متنوعة ، وبالاضافة إلى الأسماك والحيوانات المائية توجد أعداد كبيرة من الأغنام والأبقار والماشية والخيول .(٥٨)

وفيما يتعلق بملابسهم فإنها تختلف تبعا لطبقات المجتمع فالاغنياء يلبسون ملابس حريرية وعمائم بينما لباس الرجل العادى لا يتعدى قميصا وفوطة تشد إلى الوسط وتتدلى حول الجزء الأسفل من الجسم . وقد أشار بعض الرحالة إلى وجود صناديق خشبية لحفظ الملابس وتتحلى النساء بقلائد وأساور وأقرطة من ذهب وفضة ، وقد عثر على أدوات للزينة من ذهب وفضة كما عثر على أدوات للزينة لحفظ المساحيق التى تشبه الكحل .(٥٩)

وكانت للمرأة فى المجتمع السواحيلى منزلة ولها احترامها ، وكان للتقاليد العربية أثرها فى ذلك ، كما أن الاسلام أضفى على المجتمع فى شرق أفريقيا الكثير من تعاليمه ومبادئه فأصبح للمرأة قيمتها فى هذا المجتمع ومركزها وحقوقها .

هكذا كان أثر العرب على المجتمع فى شرق أفريقيا قويا وعميقا ، وقد لمس جميع الرحالة ذلك فى عادات الناس وتقاليدهم سواء فى حياتهم اليومية المعتادة أو فى المناسبات والمعاملات ، ولا غرابة فى هذا فقد كان أثر العرب واضحا فى جميع المجتمعات التى احتكوا بها خاصة بعد الاسلام والأسس الواضحة المعالم المحددة للمجتمع الاسلامى ، فكان الطابع الاسلامي واضحا فى مختلف المجتمعات التى وجد فيها العرب وانتشر الاسلام .

٤ ـ الأثر الثقافي للعرب فى شرق أفريقيا :

لا شك فى أن الأثر الثقافى للعرب فى شرق أفريقيا من أقوى الآثار التى ترتبت على هذه الصلات بين عرب شبه الجزيرة وسكان الساحل الشرقى للقارة . فمنذ بدأ العرب رحلاتهم التجارية للساحل الشرقى وانتشارهم فى السهول واستقرارهم فى المناطق الملائمة لهم ـ ترتب على هذا الاحتكاك انتشار ثقافة العرب وحضارتهم ، وحين جاء الاسلام كان تأثيره قويا وأثره أكبر وأعمق فالاسلام بتعاليمه كما نعلم غير حياة العرب وطبعهم بطابع مميز ، وبالطبع انعكس هذا التأثير المنظم على من اتصل بهم العرب من الشعوب الاخرى ومن يتتبع التيار العربي فى تدفقه من شبه الجزيرة الى شرق القارة يلمس بعمق أثر هذا التيار فى ثقافات هذه الشعوب

الافريقية وعاداتها وتقاليدها .

وبالطبع اختلفت هذه الآثار الثقافية قوة وضعفا تبعا لاختلاف فرص وظروف الاتصال بين العرب وسكان شرق القارة وتبعا لقوة الموجة العربية تبعا لظروف انتشار الاسلام وعدد الذين اعتنقوا الدين الجديد من السكان .

وهناك روايات عدة عن الظروف التى انتشر فيها الاسلام والثقافة العربية بين سكان المدن الساحلية مثل كلوه ، وممبسة ، ومدن ساحل الصومال الاخرى .(٦٠)

ولعل ما ذكره ابن بطوطة عن سكان ممبسة ، وكلوه يعطي فكرة عن مدى تأثرهم بالثقافة العربية فهو يذكر أنهم شافعيو المذهب ويغلب عليهم التدين والصلاح .

وقد أدى الاحتكاك العربى بشعوب شرق افريقيا لتعديل فى كثير من معتقداتهم وعاداتهم. فمثلا عبادة السلف وتقديم القرابين والأضحيات والذبائح لاسترضاء الأموات وكشف الغيب وتقديم الصدقات إلى غير ذلك من المبادىء .(٦١)

ولعل اللغة العربية من أقوى مظاهر التأثيرات الثقافية على سكان شرق أفريقيا فنتيجة المعاملات التجارية والامتزاج بين العرب والأفارقة بشرق القارة تولدت لغة هى خليط بين لهجات البانتو واللغة العربية ـ وهى اللغة السواحيلية ـ وبالاضافة الى العديد من المفردات العربية فى هذه اللغة فإن التأثيرات العربية في التراكيب والمكونات قوية .(٦٢)

ولقد أصبحت اللغة السواحيلية من أهم المقومات الحضارية لشرق القارة ، وأصبح لها آدابها وترجمت اليها بعض من أمهات الكتب ولا يتسع المجال للتعرض للنظريات المتعددة عن نشأة هذه اللغة وتطورها وقواعدها ، وآدابها لكن الظاهرة البارزة أن التأثيرات العربية قوية وواضحة فى هذه اللغة وآدابها ، وأن هذه اللغة لعبت ومازالت تلعب دورا هاما فى إبراز الشخصية المتميزة لشرق أفريقيا ولشعوبها ولدولها التى تكونت فيما بعد .

ولا شك فى أن الأدب العربى بقصصه وبطولاته وميادينه المختلفة قد أثر تأثيرا عميقا فى تكوين الشعب السواحيلى بمكوناته الثقافية . وقد وجدت فى مدن شرق أفريقيا الهامة مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ولتعليم المبادىء الاساسية للحساب والحق بعض هذه المدارس التى تشبه (الكتاتيب) بالجوامع ـ وقد نقل العرب الكثير من معرفتهم فى مجال الملاحة وغيره لهذه البلاد .

وقد اتسع مجال وأفق سكان هذه البلاد ومعرفتهم بما يدور فى أجزاء اخرى من العالم عن طريق احتكاكهم بالعرب وبسبب رحلات العرب

وجولاتهم .

وبالطبع لا ننسى فى هذا المجال أثر الثقافة الهندية والصينية فى ثقافة سكان شرق أفريقيا - وقد وجد فى الآثار التى عثر عليها ما يدل على تأثير هذه الثقافات الهندية والصينية .

ولا شك فى أن التجار العرب لم يكونوا يحملون البضائع بين هذه البلاد فحسب لكن كانوا يسهمون فى تبادل الثقافات بين هذه الأقطار التى يتعاملون معها .

ومن يتعمق فى دراسة الأصول الثقافية لشعوب شرق أفريقيا يلمس بوضوح الأثر العربى فى التكوين الثقافى والحضارى لها .

خامساً وصول الأوربيين لشرق أفريقيا والنتائج المترتبة على ذلك

ظلت للعرب السيادة فى المدن والامارات التى كونوها فى شرق أفريقيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى فقد نجح فاسكو داجاما فى عام ١٤٩٧ فى الوصول إلى نهاية القارة وعبر رأس الرجاء الصالح إلى الساحل الشرقى حيث زار الامارات العربية فى المنطقة وقد وصف هذه الامارات وما بها من حضارة زاهرة ، ونوه داجاما بما لمسه فى دوائر بلاط الأمراء وبين الشعب وفى الأسواق من ارتفاع المستوى الحضارى الذى لا يقل ان لم يزد عن المستوى الحضارى للبرتغال ذاتها .(٦٣)

وتتابعت بعد ذلك رحلات البرتغال عن هذا الطريق الجديد . وفى سنة ١٥٠٢ قام داجاما برحلته الثانية ، ونزل فى كلوه وتحت التهديد بإحراق المدينة أجبر سلطانها على الاعتراف بسيادة البرتغال ، وتبع ذلك خضوع زنجبار التى يصفها البرتغال بأنها كانت فى ذلك الوقت عبارة عن جزيرة خضراء ناضرة تعج حدائقها بالخضروات والفواكه .

وفى سنة ١٥٠٥ غادر لشبونة أسطول كبير من ثلاث وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دى الميدا (Francisco De Almeida) بقصد تثبيت نفوذ البرتغال فى السواحل الشرقية الافريقية ، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت البرتغال قوة استولت على سفالة ، وحاصرت كلوه واستولت عليها بعد قتال عنيف ، وتقدموا إلى ممبسة ، وقد قاوم سكانها الذين كانوا يزيدون عن عشرة آلاف الغزاة لكنهم اضطروا للتسليم فاشعل البرتغاليون النار فى المدينة انتقاما من بطولة أهلها .

وفى ١٥٠٦ أرسل أسطول برتغالى آخر من أربعين سفينة تحت قيادة البوكيرك (ALbuquerque) استولى على لامو، وبراوة، وجزيرة سوقطرة .

وفى ١٥٠٧ سقطت موزمبيق فى يد القائد البرتغالى دوارت داميللو (Duarte De Mello) .

وهكذا مد البرتغاليون نفوذهم على الساحل الشرقى للقارة من سفالة جنوبا الى مالندى شمالا وفى سنة ١٥٠٩ عين البرتغاليون حاكما عاما لمستعمراتهم فى شرق القارة فاتخذوا موزمبيق مركزا لهم ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اتجهوا لمهاجمة سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي معتمدين على مراكزهم وحصونهم فى شرق أفريقيا، فهاجموا مسقط، وهرمز، وعدن وقد امتد هذا الصراع البرتغالى العربى واتسع واشتركت فيه الدولة العثمانية والتى أصبح لها النفوذ فى الشام ومصر والجزيرة العربية بعد القضاء على نفوذ دولة المماليك فى هذه البلاد .(٦٤)

وقد ساعد البرتغاليين فى صراعهم مع الامارات العربية فى شرق افريقيا ان هذه الامارات لم تكن - كما أشرنا من قبل - مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بل بالعكس فقد كان التنافس بينها شديدا . فالنزاع بين مالندى وممبسة مثلا والصراع بينهما للسيادة على الساحل ترتب عليه أن صفيت قوة كل منهما وخدم ذلك الغزاة البرتغاليين خاصة وأنهم كانوا يتسلحون بالأسلحة الحديثة .(٦٥)

ويذكرنا ذلك بوضع الممالك العربية فى الأندلس (ممالك الطوائف كما يطلق عليها المؤرخ عبدالله عنان) حين تعرضت للبرتغاليين والأسبان فيما أطلقوا عليه حرب الاسترداد (Reconquesta) .

خاتمة :

دفعت عدة عوامل بالعرب للخروج من شبه جزيرتهم الى شرق القارة وكان الهدف الأول لهذا الاتجاه هو التجارة لكن انتهى الأمر باستقرار بعض العرب فى شرق أفريقيا، وبمرور الزمن كثر عدد المستقرين منهم كما دفعت عوامل اخرى بموجات جديدة من العرب استقرت فى شرق القارة واندمجت بالتدريج مع سكانها الأصليين، وأضاف الاسلام والظروف المختلفة التى مرت بها الدولة الاسلامية الى أسباب ودوافع الهجرة لشرق القارة والاستقرار بها .

وتمكن العرب من تأسيس عدة

مدن ساحلية ، وكان امتدادهم للداخل حسب ما تطلبته الظروف .

وترتب على هذا الاحتكاك والاستقرار العربي نتائج هامة فى مختلف المجالات ، فقد كانت له آثار اقتصادية كبيرة فذاعت شهرة المدن والامارات العربية بشرق القارة كموانىء تجارية تصدر أهم غلات القارة الزراعية والحيوانية والمعدنية .

ووصل النشاط التجارى الى الشرق الأقصى إلى الهند والصين كما امتد إلى أوروبا لسد حاجتها من بضائع الشرق والحاصلات الافريقية .

وكان التأثير العربي والاسلامى الثقافى والحضارى فى شرق القارة قويا أيضا وان اختلفت التأثيرات من منطقة لاخرى ، فالقسم الشمالى من الساحل الشرقى تأثر أكثر من القسم الجنوبى الذى تبدو فيه تأثيرات المحيط الهندى وتياراته والتأثيرات الفارسية أكثر وقد اعتنق عدد كبير من سكان الجزء الشمالى من الساحل الشرقى الدين الاسلامي

ويلاحظ انه لم تتم عملية تعريب كاملة للسكان كما حدث فى كثير من البلاد التى استقر فيها العرب لكن كانت محصلة هذا الاختلاط اللغة السواحيلية التى تأثرت باللغة العربية لفظا وأدبا .

وكان تأثير العرب فى المجتمع الافريقي واضحا فى تعديل وتغيير كثير من العادات والتقاليد والسلوكيات .

وظل تأثير العرب قائما وقويا ونفوذهم واضحا إلى أن جاء البرتغاليون فحاولوا الحلول محل العرب فى نشاطهم لكن للأسف صحب هذه الموجة الاستعمارية كثير من التخريب والدمار ، وأدى قدوم البرتغاليين لصراع طويل بين القوة الاسلامية فى العالم العربي كله وبين الاوروبيين الذين تطلعوا لثروات شرق القارة والطرق التجارية التى كان يسيطر عليها العرب ، كما انفتح الطريق أمام النشاط الأوروبي المتعدد الأهداف والوسائل إلى شرق القارة ، بل امتدت الاطماع الاوروبية الى شبه جزيرة العرب نفسها وإلى المناطق العربية الاخرى الواقعة خلف شبه الجزيرة .

*****

الهوامش

(١) ولد ابو الحسن علي بن الحسين الذي اشتهر باسم المسعودي في بغداد، ومات في مصر في عام ٣٤٦هـ (٩٥٣م) وكتابه المشهور هو (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لكن له مؤلفات اخرى ذكرت في بعض المصادر ولم نعثر عليها منها أخبار الزمان ومن اباده الحدثان (وهو في ثلاثين جزءا).

(٢) ابن بطوطة - هو محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي - صاحب كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وقد طبع كتابه هذا عدة طبعات منها طبعة بولاق عام ١٩٣٤

(٣) Strong, Arthur: History of Kilwa "Journal of the Royal Asiatic Society April 1895 اما جون كيرك فقد ولد في عام ١٨٣٢ وكان طبيبا وعالما في النبات، وقد رافق لفنجستون في رحلته للكشف عن نهر زمبيزي (١٨٥٨ - ١٨٦٣) وقد زكاه لفنجستون للعمل في زنجبار فعمل اولا كطبيب للوكالة البريطانية بها، ثم قنصلا عاما لبريطانيا بزنجبار.

وقد استطاع هذا الرجل بحكمته وسياسته واساليبه الخاصة ان يصبح القوة المحركة لسلطان زنجبار او كما يقول مارش كنجز نورث، كان يلعب دور رئيس وزراء السلطان لكن بصفة غير رسمية، وقد أصبح مديرا لشركة شرق افريقيا البريطانية الامبراطورية حتى صفيت الشركة في عام ١٨٩٤ - لمزيد من التفاصيل انظر Marsh, Z/A.& Kingsnorth, G.: Introduction to the History of East Africa (London 1961) P 158

(٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه المخطوطة انظر - جمال زكريا قاسم (دكتور) الاصول التاريخية للعلاقات الافريقية العربية (القاهرة ١٩٧٥)، وكذلك المرجع السابق لنفس الكاتب.

(٥) Chittick, Neville: Kilwa and the Arab Settlement of the African Coast (Journal of the African History No.2 1963)

(٦) Free man, Granville: Select documents on the East Africa coast from the first to the earlier nineteenth (Oxford 1962) The Medieval History of the coast of Tanganika (Berlin 1962)

(٧) Roland, O.: The History of East Africa (Oxford 1963) The Dawn of African History (Oxford 1969)

(٨) Coupland Reginald: East Africa and its Invaders, From the, Ealiest Times to the Death of Seyyid Said 1856 (Oxford 1938)

(٩) Hitchman, C.: The Land and peoples of East Africa (London 1960) P. 61

(١٠) صفي الدين ، محمد : افريقيا بين الدول الاوربية (القاهرة ١٩٥٨) ص ٥٢ ، ٦٧

(١١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية (١٩٦٥) ص ٩

(١٢) للمزيد من التفصيلات انظر :
شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها : القاهرة (١٩٨٠) ص ٤٨ ، ٤٩
وصفي الدين ، محمد : مرجع سابق ص ٦٨

(١٣) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الامم والملوك (القاهرة ١٩٦١) جـ ٢ ص ٣٢٠

(١٤) زاهر رياض : الاسلام في اثيوبيا (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧٠

(١٥) الطبري : المرجع السابق ص ٣٢٨

(١٦) نفس المرجع ونفس الصفحة

(١٧) الواقدي ، ابو عبدالله محمد بن سعيد : الطبقات الكبير جـ ١ (القاهرة ١٩٦٨) ص ٣٩٠

(١٨) عبدالرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا (القاهرة ١٩٦٥) ص ١٢٠

(١٩) Coupland, R. East Africa and Its Invaders (London 1934) P. 21

(٢٠) حسن احمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا (١٩٦٣) ص ٤٣٦

(٢١) نفس المرجع ص ٤٣٨

(٢٢) يرجع نسبهم الى زيد بن علي حفيد الحسين بن علي بن ابي طالب - انظر حسن احمد محمود (دكتور) مرجع سابق ص ٤٣٧

(٢٤) حسن أحمد محمود : مرجع سابق ص ٤٣٩

(٢٥) Coupland, Op. cit. P. 25

(٢٦) Hichens, W.: Islam in East Africa (1960) P. 110

(٢٧) Coupland, R.: Op. Cit. P. P 21-24

(٢٨) عبدالله بن مصبح الصوافي : اخبار كلوه (نشر وتحقيق ارثر سترونج (لندن ١٨٩٥) ص ٤١١ ، ٤١٢

(٢٩) جمال حمدان (دكتور) : جغرافية المدن (القاهرة ١٩٧٠) ص ١٣٠
وحسن احمد محمود : مرجع سابق ص ٤٣٨

(٣٠) أحمد بن ماجد، شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمرو: ثلاث ازهار في معرفة البحار تحقيق تيودور شوموفسكي ترجمة محمد منير مرسى (دكتور) القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٣١) عبدالرحمن زكي (دكتور) مرجع سابق ص ١٢١

(٣٢) ابن بطوطة : مرجع سابق ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٣٣) يرجع الى Freeman, G.: The Medieval History of the Coast of Tanganika (Berlin 1962) وكذلك Kirkman, J.: Men and Monuments on the East African Coast (N.Y. 1966)
وكذلك اشار اليها : عبدالرحمن زكي : بعض المدن العربية على ساحل شرق افريقيا في العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٦٤) .

(٣٤) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما وراء الصحراء الكبرى ـ شرقي القارة الافريقية وغربيها (القاهرة ١٩٥١) ص ٣٠

(٣٥) ترمنجهام سبنسر : الاسلام في شرق افريقيا ـ ترجمة محمد عاطف النزاوي ـ القاهرة ٧٣

(٣٦) Grevor C.P.: The Planting of Christianity in Africa (London 1948) V. I. P. 112
وابراهيم علي طرخان (دكتور) الاسلام والممالك الاسلامية (مجلة الجمعية التاريخية عدد ٨ ص ٤٣

(٣٧) للمزيد من التفاصيل يرجع الى :
جمال زكريا قاسم (دكتور) : استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا ـ حولية كلية آداب عين شمس الخامس ١٩٦٧ ص ٢٩٢ وما بعدها .

(٣٨) زار ابن بطوطة كلوه وممبسه ومقديشيو عام ١٣٣٣ ودهش لما كانت عليه هذه المدن من تنظيم ورخاء ووصف شوارعها ومنازل العرب المبنية هناك بالحجارة والمونة ونوافذها الخشبية المزينة والمحفورة وحدائقها الغناء ومساجدها التي يبدو فيها تاثير الفن الفارسي . وذكر ان العرب في هذه البلاد التي زارها لم ينسوا تقاليدهم العربية فهم يستضيفون الغريب ويقدمون له حاجته من ماكل ومشرب .

(٣٩) Coupland : Op. Cit. P. 39

(٤٠) Ibid: P. 27

(٤١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الطريق التجاري الطويل انظر :

جورج فاضلي حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ترجمة يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٣٦

وكذلك Marsh, Zoe: An Introduction to the History of East Africa (Cambridge 1961) P. 8

(٤٢) لا يتسع المجال هنا للرد على اتهام الاوربيين للعرب بانهم هم المسئولون عن نشر تجارة الرقيق الافريقي ورواجها ـ وقد ناقشنا هذه الادعاءات بتفصيل في اماكن متعددة من كتابنا ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠).

(٤٣) Kenne th, I.: History of East Africa (London 1963) P.P.4-5

(٤٤) لمزيد من التفاصيل خاصة ما يتعلق بمناطق التعدين في الداخل وتطور هذه الصناعة بشرق افريقيا ودور العرب فيها يرجع إلى :

شوقي الجمل : قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية ـ القاهرة ١٩٧٧ .

(٤٥) Roland, 0.: The Dawn of African History (Oxford 1969) P.47

(٤٦) صبحي لبيب (دكتور) التجارة الكاريبية وتجارة مصر في العصور الوسطى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) مايو ١٩٥٢ .

(٤٧) Basil, D.: The African Fast Chronicles, From Antiquity to Modern Times (1963) P.113

(٤٨) عبدالرحمن زكي (دكتور) ـ مرجع سابق ص ١٢٤ .

(٤٩) Coupland; Op. Cit. P.39

(٥٠) هولينجزوت . ل : الآسيويون في شرق افريقيا ترجمة عبدالرحمن صالح (القاهرة ـ ١٩٦١) ص ١٨ ، ١٩ .

(٥١) للمزيد من التفاصيل يرجع إلى Reusch R.: History of East Africa (1963) P.P 222-24

(٥٢) Coupland: Op. Cit/P/31

(٥٣) Freeman, G.: Op. Cit. P 193

(٥٤) الرحلة جـ ١ ص ١٦١٠

(٥٥) نفس المصدر.

(٥٦) Freeman, G.: Op. Cit. P. 192
(1963) P.P 222-24

(٥٧) Chittich, N. : Op. Cit. P. 236

(٥٨) ابن بطوطة : الرحلة ص. ص ١٦١ ـ ١٦٣ وكذلك Dames, M.L.: The Book of Duarte Barbosa (London 1918) V 0 1. 1 P. P. 17 - 31

(٥٩) Freeman : Op. Cit. P. 195

(٦٠) عبدالرحمن زكى : مرجع سابق ص ٧٢

(٦١) Johns, M.: African Religions & Philosophy (1960) P. 240

(٦٢) محمود طه ابو العلا : المؤثرات العربية فى شرق أفريقيا - (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠) ص ١٤٠ .

(٦٣) Duffy, James: Portuguese Africa (London 1969) P. 26

وكذلك Freeman, G.: Op. Cit. P. 50

(٦٤) لا يتسع المجال لتتبع مراحل هذا الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ثم البحر المتوسط - لكن للمزيد من التفاصيل فى هذا المجال يرجع إلى : شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة ١٩٨٠) وكذلك المغرب العربي الكبير فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٧٧) .

(٦٥) للدراسة التفصيلية لهذا الصراع - يرجع الى السلوة فى تاريخ كلوه - مرجع سابق ص ٢٢٨ وما بعدها .

*****

المراجع

أولا ـ مصادر أصلية :

(تشمل كتب الرحالة ، وكتابات المؤرخين المعاصرين ..)

١ ـ ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم :
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٤) .

٢ ـ ابن الاثير ، أبو الحسن على :
الكامل في التاريخ (١٩٣٢) .

٣ ـ أحمد بن ماجد ، شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمرو :
ثلاث ازهار في معرفة البحار
(تحقيق تيودور شوموفسكى ، ترجمة د. محمد منير موسى) (١٩٦٩) .

٤ ـ الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى :
تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ (١٩٦١) .

٥ ـ عبدالله بن مصبح الصواف :
كتاب السلوه في اخبار كلوه (نقلا عن اوراق الشيخ محيى الدين الزنجبارى
نشر وتحقيق ارثر سترونج) (لندن ١٨٩٠).

٦ ـ المسعودى ، أبو عبدالله محمد بن سعيد :
مروج الذهب ومعادن الجوهر (١٩٦٤)

٧ ـ الواقدى : أبو عبدالله محمد بن سعيد :
الطبقات الكبير جـ ١ (١٩٦٨)

ثانيا ـ مراجع عربية أو معربة :

١ ـ ترمنجهام ، سبنسر :
الاسلام في شرق افريقيا (ترجمة محمد عاطف النزاوى ـ القاهرة ١٩٧٣) .

٢ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور) :

الأصول التاريخية للعلاقات الافريقية العربية (القاهرة ١٩٧٥) .
٣ - جمال حمدان (دكتور) :
جغرافية المدن (القاهرة ١٩٧٠) .
٤ - جورج فاضلى حورانى :
العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨) .
٥ - حسن ابراهيم حسن (دكتور) :
انتشار الاسلام والعروبة فيما وراء الصحراء الكبرى - شرق القارة الافريقية وغربها (القاهرة ١٩٥١) .
٦ - حسن احمد محمود (دكتور) :
الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا (القاهرة ١٩٦٣)
٧ - زاهر رياض (دكتور) :
الاسلام فى اثيوبيا - (القاهرة ١٩٦٤) .
٨ - شوقى الجمل (دكتور) :
تاريخ كشف افريقيا واستعمارها - (القاهرة ١٩٨٠) .
٩ - " " قضية روديسيا بين الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية - (القاهرة ١٩٧٧) .
١٠- " " المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث - (القاهرة ١٩٧٧) .
١١- عبدالرحمن زكى (دكتور) :
الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا (القاهرة ١٩٦٥) .
١٢- محمد صفى الدين (دكتور) :
افريقيا بين الدول العربية - (القاهرة ١٩٥٩) .
١٣- محمد عوض محمد (دكتور) :
الشعوب والسلالات الافريقية (القاهرة ١٩٥٦) .
١٤- هولنجزوت. ل :
الآسيويون فى شرق افريقيا (ترجمة عبدالرحمن صالح - القاهرة ١٩٦١) .

ثالثا - مراجع باللغة الانجليزية :

1 - Basil, D.: The African Past Chronicles, from Antiquity to Modern times (1963)
2 - Coupland, Reginald: East Africa and Its Invaders, From the Earliest Times to the Death of Seyyid Said 1856 (Oxford 1938)

3 - Dames, M.L.: The Book of Duarte Barbosa (London 1918)
4 - Duffy, James: Portuguese Africa (London 1959)
5 - Freeman, Grenville: Select Documents on the East African Coast, From the First to the earlier nineteenth (Oxford 1962)
6 - „ „ „ „ : The Medieval History of the coast of Tanganika (Berlin 1962)
7 - Grevor, C.P.: The Planting of Christianity in Africa V. 1 (London 1945)
8 - Hichens, W.: Islam in East Africa (London 1960)
9 - Hitchman, C.: The Land and Peoples of East Africa (London 1960)
10 - Johns, L.: African Religions and Philosophy. (London 1960)
11 - Kenneth, I.: History of East Africa (London 1963)
12 - Kirkman, J.: Men and Monuments on the East African Coast (N.Y. 1966)
13 - Marsh, Z.A. & Kingsnorth, G.: Introduction to the History of East Africa (London 1961)
14 - Marsh, Zoe: An Introduction to the History of East Africa (Cambridge 1961)
15 - Reusch, R.: History of East Africa (1963)
16 - Rotand, O.: The History of East Africa (Oxford 1963)
17 - „ „ „: The Dawn of African History (Oxford 1969)

رابعا ـ أبحاث منشورة في دوريات علمية :

أ ـ باللغة العربية :

١ ـ ابراهيم علي طرخان (دكتور) : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة (مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد الثامن ١٩٥٩) .
٢ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور) : استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا (حوليات

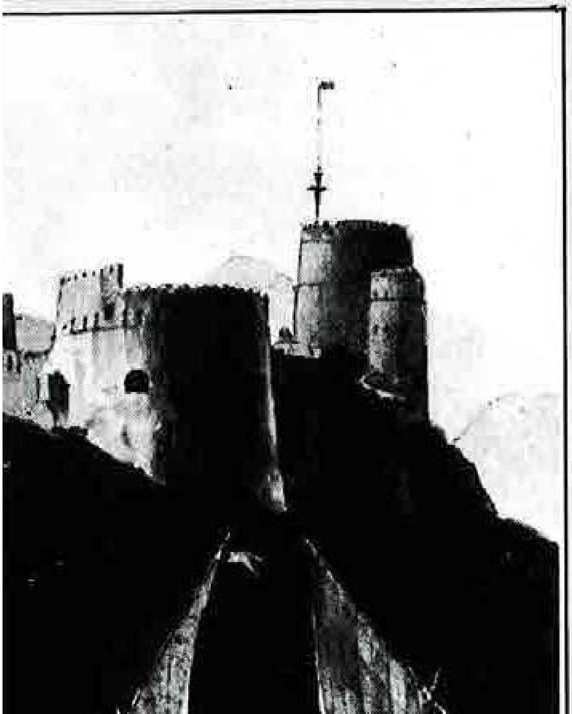
كلية آداب عين شمس ـ المجلد العاشر ١٩٦٧) .
٣ ـ " " " : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا (المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع عشر) .
٤ ـ صبحى لبيب (دكتور) : التجارة الكاريبية وتجارة مصر فى العصور الوسطى (مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢) .
٥ ـ عبدالرحمن زكى : بعض المدن العربية على ساحل شرق افريقيا فى العصور الوسطى (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠) .
٦ ـ محمود طه أبو العلا :
المؤثرات العربية فى شرق افريقيا (مجلة الجمعية الجغرافية المصرية مايو ١٩٦٠) .

ب ـ باللغة الانجليزية :

1 - Chittick; Neville: Kilwa and the Arab Settlement of the African Coast (Journal of the African History No. 2 1963).
2 - Strong, Arthur: History of Kilwa (Journal of the Royal Asiatic Society — April 1895)

*****

الصّراع البَحري العُماني في البحَار الشرقيّة

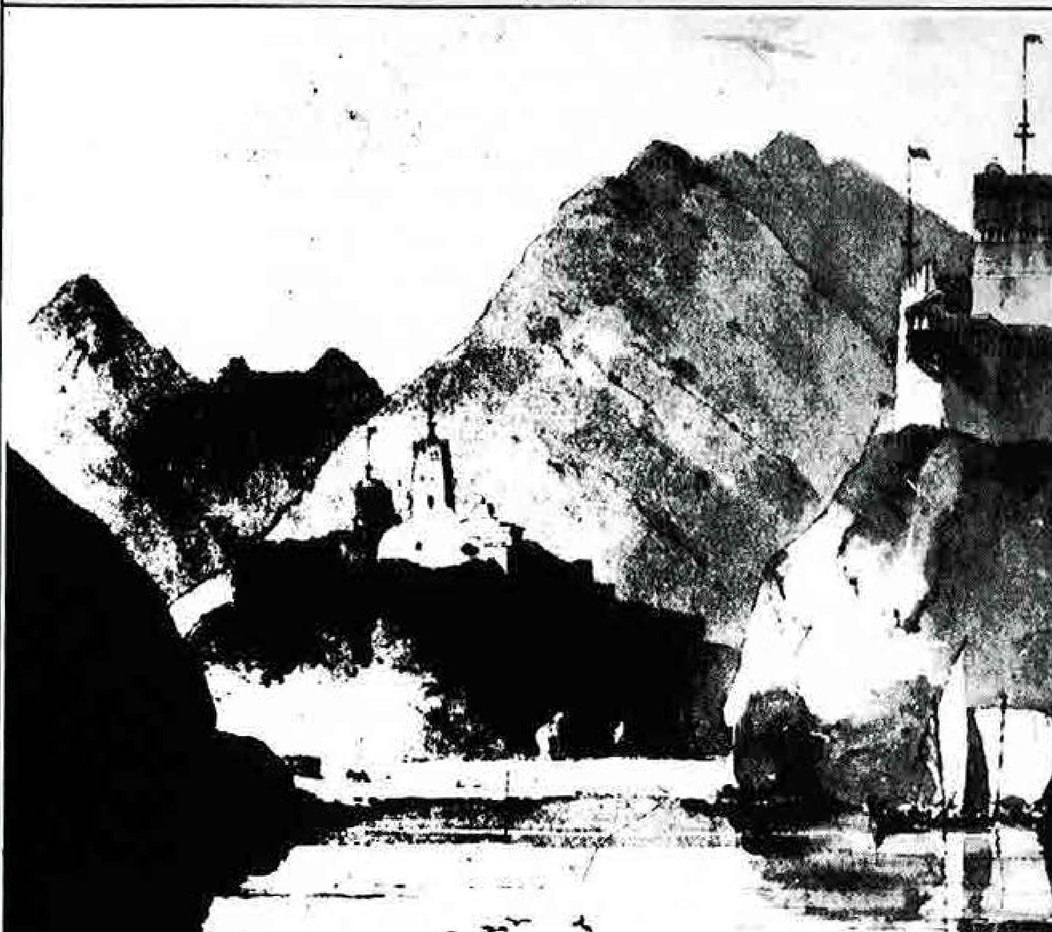


أسطول الإمام يطارد البرتغاليّين في الهند وعلى طول السّاحِل الأفريقيّ



البرتغالي
١٦٥٠ - ١٧٢٠م

بقلم :
غانم محمد رميض





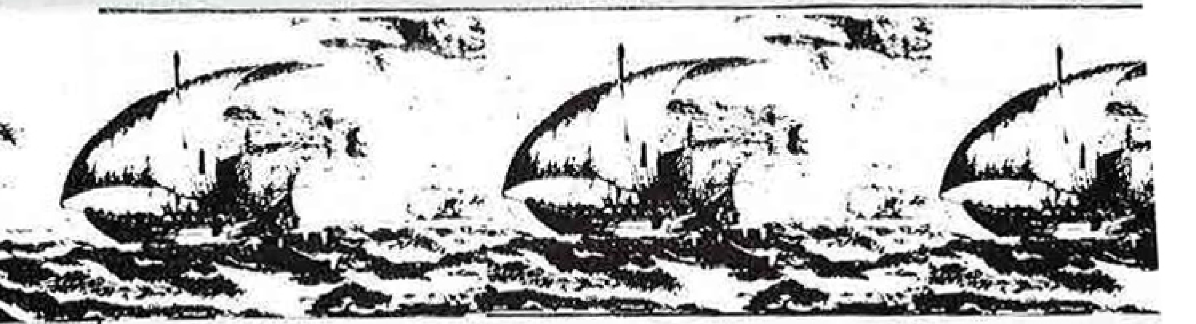
عجز البرتغاليون عن مواجهة العمانيين

فتحالفوا مع الإنجليز

نجحت دولة اليعاربة بفضل قوتها البحرية الناشئة في مد نفوذها عبر البحار ، كما استطاعت ان تحول هذه القوة البحرية الى جسر يربطها بسائر مناطق امتداد دولتهم في الخليج وشرق افريقيا . ولما كانت دولة اليعاربة قد نجحت في تحدى الوجود البرتغالي في الخليج العربي ، فقد دفعها هذا النجاح الى تعقب البرتغاليين في مناطق كان لعرب الخليج والعمانيين بالذات ، نفوذ قوى فيها منذ وقت طويل [١] ، وجذورهم لم تكن قد تقطعت فيها بعد ، مما كان باعثا لهم على تخليصها من سيطرة البرتغاليين [٢] .

ان طرد البرتغاليين من الساحل العماني كان تمهيدا لحرب بحرية دامت نحو قرن أو أكثر ، أغار فيه العمانيون على المواقع البرتغالية ، وأصبح العرب مصدر رعب وقلق للبرتغاليين في البحر ، ويتضح ذلك من تقرير (كمبرون) الى مركز شركة الهند الشرقية البريطانية في سورات في ٨ آذار ١٦٥١ حيث جاء فيه «ان عرب مسقط أرهبوا البرتغاليين بواسطة السفن التى استولوا عليها منهم ، وسفنهم الخاصة بحيث اصبحوا يترددون كثيرا في الابحار في الخليج» [٣] . وبهدف معالجة الموقف ، تقرر في لشبونه ، ارسال قوة كبيرة ، سعيا وراء استعادة مكانة البرتغاليين ، بتدمير اسطول الامام وبناء قاعدة جديدة بدلا من جزيرة (هنكام) التى اتخذت قاعدة مؤقته بعد هزيمتهم في مسقط .

في الأول من آيار ١٦٥٢ م ، دخل خليج عمان اسطول يقوده انطونيو سوسا كوتنهو [٤] (Antonio De Souse Continho) ورسا خارج (خصب) ، وحاول البرتغاليون بناء قاعدة هناك ، الا ان تهديد الاسطول العماني منعهم من ذلك ،وابحرت القوات البرتغالية الى (كنك) حيث طلب القائد البرتغالي عقد اتفاقية مع الفرس [٥] ، ومما تجدر الاشارة اليه ان التهديد العماني للبرتغاليين في هذه المرحلة لا يمكن ان يعزى



لعامل واحد وهو التفوق الملاحي العماني فحسب وانما أيضا لضعف البرتغاليين من جراء مواجهتهم خطر الهولنديين في البحار الشرقية ، مما فرض عليهم موقف الدفاع لمواجهة الاساطيل العمانية والهولندية ، وقد ادت المعارك المستمرة من كانون الأول ١٦٥٣ الى تشرين الأول ١٦٥٥ الى توقف تجارتهم في الخليج (٦) . كما ان خسائرهم في الخليج صاحبها تدهور في شرق افريقيا . كما ان العلاقات التجارية العريقة والروابط الدينية بين عرب عمان وشرق افريقيا ، جعلت انتقال المجابهة العمانية البرتغالية الى شرق افريقيا امرا لا بد منه .

واعتبارا من عام ١٦٤٥ ، ، عندما كتب ملوك سيو (Siyu)وفازا (Faza) وبمبا (Pemba) الى ملك البرتغال شكوى من الظلم الذى تتعرض له شعوبهم من قبل كابتن(مومباسا) ، وحتى سنة ١٦٥١ ، شنت القبائل المجاورة لمومباسا حربا ضد البرتغاليين (٧) ، وقد ارسلت البرتغال الكابتن (فرانسيسكو دى سيكاس كابريرا (Francisco De Sexas Cabreira) الى شرق افريقيا عام ١٦٥١ لاعادة السيطرة البرتغالية ، ومنع التغلغل العماني هناك (٨) .

ان التحدى العماني للوجود البرتغالي في المياه الساحلية لشرق افريقيا ، حث ملوك زنجبار وبمبا على كسر اتفاقاتهم السابقة مع البرتغاليين وطلب المساعدة من الامام (٩) . وبسبب تزايد قوة العمانيين ، فقد فشلت مخططات كابريرا . من خلال الهجوم الذى شنته السفن العمانية على الحامية البرتغالية في زنجبار (١٠) ، حيث أبيد معظم أفراد الحامية بما فيهم قائدها عام ١٦٥٢ ، وتم انتزاع فازا وباتا من السيطرة البرتغالية (١١) . وبسبب هذه الانتصارات فقد انكر معظم الحكام المحليين مواثيقهم السابقة مع البرتغاليين . كما انها من ناحية أخرى اتاحت الفرصة أمام منافسيهم الأوربيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا ، فقد احتكر الهولنديون التجارة الصينية ، بعد ان نجحوا في اجلاء البرتغاليين من كولومبو عام ١٦٥٦ (١٢) ومن جزيرة سيلان عام ١٦٥٨ (١٣) .

شجعت الانتصارات العربية ، ونشوب الثورات المحلية في سواحل شرق افريقيا الامام على مواصلة الهجمات على مواقع البرتغاليين هناك ، فقد وصل اسطول عماني الى الساحل عام ١٦٦٠ وتمت محاصرة الحامية البرتغالية في (مومباسا) (١٤) ، وشن هجمات متتالية على امتداد الساحل حتى (راس دلجادو) (CapeDelGado) ، وبحلول آب ١٦٦٢ كانت سفن اليعاربة تمتلك السيطرة على كل الساحل باستثناء

بسبب التحاقها بقوة اخرى الى شرق افريقيا حيث تلقى الحاكم (دوم بدرودى الميدا) (Dom Pedrode Almeida) تعليمات من ملك البرتغال بتوجيه اهتمام اكبر نحو شرق افريقيا، خشية خسارة ما بين الساحل والهند وعدم امكانية المحافظة على الموقع البرتغالى، وفعلا توجه الحاكم بنفسه مع القوات المتوفرة، وقد تم ترك بعض التعزيزات فى موزمبيق ومومباسا، وفى ١٧ آب اخذت القوة البرتغالية طريقها الى (فازا) (Faza)، ولم يتمكنوا من احتلالها حتى ١٦ كانون الاول عند وصول تعزيزات كافية من (كوا) بعدها استسلمت المدينة المجاورة (سيو) (Siyu) وتم اسر ملكها، ومن ثم اسر ملكا (لامو) (Lamu) و (ماندا) (Manda) بعد هجمات متتالية[٣٥]. وقبل ان يتمكن الاسطول البرتغالي من توسيع فعالياته العسكرية قاطعهم وصول اربع سفن عربية في ١١ و١٢ كانون الثاني ١٦٧٩، وبالرغم من نشاط البرتغاليين الا انهم فشلوا فى منع العرب من النزول الى البر [٣٦]، وفى غضون ايام قليلة تعرضوا لضغط شديد من العرب وحلفائهم من ابناء هذه المناطق، مما اضطرهم الى الجلاء، والانسحاب بحرا الى موزمبيق[٣٧]، وهناك توفي الحاكم بعد اربعة ايام.

فى ١٩ كانون الاول ١٦٧٨[٣٨] توفى الامام سلطان بن سيف، بعد ان خاض كفاحا مجيدا ضد البرتغاليين، وانتخب ابنه بلعرب اماما في نفس اليوم الذى توفى فيه والده، وتابع الحرب ضد البرتغاليين بنفس همة والده السابقة[٣٩].

بعد نجاح البرتغاليين في احتلال (موموباسا) مرة اخرى تطلعوا الى مد سيطرتهم على (باتا) (Bata)، التى كانت بمقاطعاتها الثلاث :

(بات) و(سيو) و(فازا) باستمرار ميدانا لمعارك البرتغاليين مع شعوب الساحل. وكان القائد البرتغالي في (مومباسا) يشعر ان ليس بامكانه المحافظة على امن حاميته دون الاستيلاء على (بات)، وقام بمحاولتين الاولى فى اذار ١٦٨٦ عندما قامت سفينتان قدمتا من (كوا) بمهاجمة (سيو)، الا ان وجود سفن عربية في (بات) احبط مهمتهما والحملة، الثانية في نيسان من العام نفسه وقد حملت التيارات السفن المهاجمة بعيدا عن (بات) فتراجعت عائدة الى (كوا)[٤٠] ولابد من الاشارة الى ان السلطات في (كوا) لم تشجع اضعاف القوة العسكرية في (مومباسا) فى سبيل السيطرة على (بات)، وانه اذا ما تم السيطرة عليها فيجب اعطاؤها الى امير (فازا) ليحكمها كممثل للبرتغاليين، ولهذا الغرض فقد ابحر(جاوانتونس) (Joao Antunes) فى ايار ١٦٨٧ مع تعزيزات من (كوا) مع امير (فازا) نحو (بات)، وعند وصوله وجد بعض السفن العربية فى الميناء، فعاد الى (مومباسا) دون تحقيق اى شيء، وبعد رحيل السفن العربية اعاد محاولاته، التى اسفرت عن احتلال المدينة في ٣ آب من السنة المذكورة[٤١]. وفى كانون اول ارسلت تعزيزات الى (بات) الا ان اسطولا عربيا وصل بعد ايام من ارسال هذه التعزيزات من مسقط بدعوة من اهالى (بات) ونجح فى استرجاع المدينة، ولم يكن لدى القائد البرتغالي اى خيار سوى العودة باسطوله الى (مومباسا) [٤٢].

ادرك البرتغاليون ان اساليبهم فى الهجمات القرصنية فى البحر كانت اكثر تأثيرا من خوض المعارك على الساحل،

فعملوا على مضايقة النشاطات التجارية في الخليج الى الحد الذى ادى الى فتح باب المفاوضات بين ممثل الامام بلعرب وبين مراقب (كنك) ممثلا للحاكم البرتغالي، وكانت مسودة بنود المفاوضات قد بنيت أساسا على الهدنة التى وقعها (دى ميلو) عام ١٦٧٣ والتى اجهضت من البرتغاليين. ويبدو ان هذه المفاوضات قد زادت من عنجهية البرتغاليين وغرورهم، ففى اواخر تلك السنة، استطاع اسطول برتغالي بقيادة الكابتن (ديوغودى ميلو)(Diagodi Mello) مهاجمة سفن عربية خارج (سورات)[٤٣]، وبعد ثلاث سنوات خسر اسطول الامام معركة اخرى، ولكن العمانيين كانوا يردون تلك الهجمات على المواقع البرتغالية في الهند.

ففى عام ١٦٩٤ هاجم اسطول عماني جزيرة (سالست)[٤٤] وجلبوا غنائم كثيرة وحملوا معهم ١٤٠٠ أسير[٤٥]، وتبع ذلك هجوم على (بارسلور) (Barceloar) التى كانت مخزنا للأرز الذى يتم تجهيز (كوا) منه. ومنغلور (Mangalore) التى كانت اكبر سوق فى تلك المستعمرات، وتوجد فيها وكالة الأرز الخاصة بالبرتغاليين[٤٦]. فقد انحدرت السفن العمانية عام ١٦٩٥ مع ساحل كنارا، واغارت على المدينتين، وتم تدمير واحراق وكالة الارز واغراق السفن الراسية فى الميناء، وجلبت معها كمية كبيرة من الغنائم [٤٧].

فى منتصف كانون الثانى عام ١٦٩٥، استغل العرب الغياب المؤقت للاسطول البرتغالى فى الخليج العربي، فارسلوا خمس سفن تحمل زهاء (١٥٠٠) رجل لمهاجمة ميناء (كنك)، ونجحوا فى تدمير المستعمرة، واسر سفينة غنية بالحمولة كانت راسية فى الميناء، وكان مجموع ما غنموه (٦٠,٠٠٠) تومان، وبعد تلك الغارة كتب الأمام الى شاه فارس (سلطان حسين) مطالبا بنفس الحقوق التى يتمتع بها البرتغاليون فى كنك مهددا فى حالة عدم الاستجابة لطلبه بمهاجمة وتدمير بندر عباس[٤٨].

لقد دفعت هذه الانتصارات الامام سيف بن سلطان (١٦٩٢ ـ ١٧١١) الى شن هجوم أخر على (مومباسا) وبتشجيع من ملك لامو والامراء الاخرين في شرق افريقيا[٤٩]، ففي ١٣ أذار ١٦٩٦ وصلت سفينتان كبيرتان، وخمس سفن صغيرة، وعشرة زوارق، وبعد ان رست في مرفأ (كليندايني) بدأ الحصار العربي الذي أستمر ٣٣ شهرا [٥٠]. وفي اب تلقى البرتغاليون المحاصرون امدادات من موزمبيق وعمل العرب كل ما بوسعهم لقطع طريق الامدادات عن البرتغاليين من الجهة المقابلة للبحر، وفي ٢٢ تشرين الاول توفي قائد الحامية (جاو ردريغر سيهو) (Joao Radrigus Seho) وحدثت بعد ذلك حالات هروب عديدة بين صفوف البرتغاليين، وفي ٢ تشرين الثاني وصلت تعزيزات عربية، وفي يوم عيد الميلاد وصل اسطول برتغالي مكون من أربع سفن وثلاثة زوارق يحمل (٧٧٠) رجلا معظمهم من الوطنيين الذين تم جمعهم قسرا [٥١]، لقد ثقل الحصار على البرتغاليين بسبب الوباء وقلة الامدادات [٥٢]، وشعرت السلطات البرتغالية في كوا بالحالة اليائسة في مومباسا، وبسبب الحالة المالية المتدهورة، فلم يتم ارسال قوة حتى ٢٠ تشرين الثاني، عندما ارسلت اسطولا صغيرا الى الحامية والذى اكتفى بتوزيع الامدادات، وابحر الى زنجبار ومنها الى كوا، في ١٩ كانون الثاني ١٦٩٨، وبذلك فقد البرتغاليون فرصتهم الاخيرة لانقاذ الحامية، وفي منتصف كانون الاول ١٦٩٨ بعد وصول (٥٠٠) من جنود

الانزال العرب، كان العلم العماني يرتفع فوق الحامية (٥٣).

وبنجاح العمانيين في انتزاع مومباسا كان من الممكن ان يقوم سيف بن سلطان الاول، بتأسيس دولة عربية عمانية على انقاض الامبراطورية البرتغالية الا ان الاوضاع الداخلية حالت دون ذلك، وبذلك تأجل تأسيس هذه الدولة الى ان قام بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦) (٥٤).

لقد اوضح حصار مومباسا ان البرتغاليين لا يمتلكون الموارد الكافية، وليس بامكانهم قيادة المواجهة وحدهم ضد العمانيين، وبذلك فقد وصل المبعوث البرتغالي (دوم غريغوريو بيريرا) Dom Gregorio Pereira الى اصفهان طالبا من الفرس التحالف مع البرتغال واعلان الحرب ضد عمان(٥٥).

بعد بلوغ انباء النصر العربي في مومباسا الى الامام سيف بن سلطان الاول، اصدر اوامره بتعيين ناصر بن عبدالله المزروعي (٥٦) حاكما لها، كما اوعز باستثمار هذا النصر لطرد كافة الحاميات البرتغالية من شرق افريقيا (٥٧). فاندفعت الوحدات العمانية، تدعمها قوات متطوعين من ابناء الساحل واستطاعت اخضاع بمبا (المعروفة بالجزيرة الخضراء) وزنجبار وباتا وكلوه (٥٨). وبذلك تم طرد البرتغاليين من جميع مواقعهم الى الشمال من رأس ديلغادو (Capa Delgado) (٥٩). كما هوجمت حامية موزمبيق الا أن الهجوم لم يكن ناجحا (٦٠). كما وافقت مدينة (مقاديشو) على ان تكون تحت حماية سيف. وفي وقت مبكر من ١٦٩٩ ابحر اسطول برتغالي من لشبونة مكون من خمس سفن بهدف انقاذ مومباسا الا انه وصل الى موزمبيق بعد سقوط حاميتها في قلعة يسوع (٦١) واتجه الاسطول الى كوا. وفي ليلة ٩ كانون الثاني (١٧٠١م تحطم الجزء الاكبر من اسطول اعده البرتغاليون لاحتلال مومباسا، عندما كان راسيا خارج كوا (٦٢).

ان نهاية القرن السادس عشر كانت من ازهى فترات تطور وازدهار القوة البحرية العمانية، فقد اصبحت في اوقات كثيرة من اقوى الاساطيل في المحيط الهندي، وقد تجلى ذلك في الاقتراح الذي قدمه الحاكم البرتغالي الى لشبونة في كانون الاول ١٧٠٣، بدفع مبلغ نقدي للامام كضمان لنجاح المفاوضات معه للحصول على تسهيلات في مومباسا وقد زعم الحاكم :

«ان العرب راغبون بالسلام لانهم يعرفون ان وارداتهم الاساسية من الأرز يمكن قطعها بسهولة من قبل البرتغاليين» (٦٣).

وكان اسطول عماني قبل بضعة اسابيع قد هاجم دامان (٦٤) (Deman) والحق خسائر جسيمة بها (٦٥). وفي سنة ١٧٠٤ هدد العرب بالهجوم على موزمبيق جنوبا. ان الهجوم التالي على دامان في اذار ١٧٠٥ قد حطم اية افكار حول قيام علاقات سلمية مع العمانيين.

في عام ١٧٠٥ وصلت البرتغاليين شائعات من الامراء المنفيين مفادها ان الشعوب الساحلية في شرق افريقيا سترحب بمجيئهم مرة اخرى، اذا منحوهم حرية اكبر في التجارة. ومع ان ابناء الساحل الافريقي رفضوا الاستجابة للبرتغاليين، الا ان اهتمامهم بالعودة الى شرق افريقيا قد ازداد وبذلوا ما بوسعهم للحصول على معلومات حول الظروف هناك (٦٦).

وفي رسالة من الحاكم الى ملك البرتغال في ١٢ كانون الثاني ١٧١٥. تلقي الضوء على معركة دارت في ميناء سورات بين العرب والبرتغاليين في وقت مبكر من السنة المنصرمة ذكر فيها :

«عندما تلقيت انباء ان العرب وصلوا باسطولهم الى سورات، امرت قائد الشمال بالتقدم لمهاجمتهم، حيث كنت واثقا من ان إقرارهم بالسلام هو فقط حجة لترميم سفنهم، ومن ثم مهاجمة الاقاليم الشمالية.. وقد أعطانا العدو على اية حال فرصة عندما احتجزوا سفينة تعود الى اقطاعيي جلالتكم.. واعطيت التعليمات الى محافظ سورات باعتبار العرب اعداء، ودعمه للجيوش البرتغالية.. باشر الجنرال الهجوم على العدو في ١٩ شباط ١٧١٤ وكانت المعركة عنيفة جدا، استمرت من الصباح الباكر حتى وقت متاخر من الليل وهرب العدو بطريقة عشوائية بحيث ان سفينة القيادة في اسطوله غرقت في الخليج.. وتعرضت سفننا لبعض الاضرار... وبلغت خسائرنا ثمان وعشرين قتيلا واربعة وثلاثين جريحا [٦٧] ولرغبة العرب بالثأر دخلوا مضيق هرمز ببعض السفن وامروا محافظ كنك بتسليمهم وكيل جلالتكم.. وانهم يمتلكون القوة الكافية لاجباره.. ونزلوا الى المدينة واحرقوا بعض البيوت ونهبوا اخرى بسهولة.. وتمت مهاجمتهم بغضب شديد بحيث انهم انسحبوا الى سفنهم متكبدين خسائر باهظة بضمنها قائدهم» [٦٨].

ولما وصلت انباء هزيمة الاسطول العربي الى الامام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ - ١٧١٨) اصدر تعليماته الى الاسطول بالتوجه نحو جزيرة لاراك وقطع خطوط المواصلات بين الهند والموانيء الفارسية، ونجح العرب في بسط نفوذهم على جزيرتي قشم ولاراك وضربوا حصارا على هرمز[٦٩].

أفسحت الحرب الاهلية في عمان المجال للبرتغاليين لالتقاط انفاسهم فاخذوا يجولون في البحار، ففي شباط سنة ١٧١٩ استدرج الاسطول البرتغالي اسطولا عربيا (عمانيا قاسميا) [٧٠] الى معركة خارج كنك، واستمر القتال من الساعة التاسعة صباحا وحتى الساعة السابعة مساء، وتواصل في اليوم التالي واسفر عن انسحاب الاسطول العربي الى رأس الخيمة وفي آب من نفس العام خسر العرب معركة اخرى امام البرتغاليين، وقد وقع عدد من العرب في الاسر، وقد لاقوا معاملة قاسية، على عكس معاملة العرب لاسراهم من البرتغاليين[٧١]، وقد سجل لنا الكسندر هاملتون تلك المعاملة كما يلي : -

«على الرغم من ان البرتغاليين كانوا يسومون اسراهم سوء العذاب، وكانوا يسخرونهم في الاعمال الشاقة، ويجبرونهم على تنفيذ الاوامر بقوة السياط. فقد كان العرب يعاملون اسراهم بمنتهى الانسانية، وكان غاية ما يفعلونه هو حجز اسراهم في سجن جماعي دون ان يسخروهم في الاعمال الشاقة، وكذلك كانوا يمنحونهم بدل الارزاق كتلك التي يتقاضاها جندهم... واذا وجد بين

البرتغاليين صناع بارعون واصحاب مهن، فانه قد يسمح لهم بحرية ممارسة مهنهم، كي يتسنى لهم جمع المال اللازم لفك اسرهم» [٧٢].

بلغ الصراع الأسرى اقصاه في عمان فانتهز البرتغاليين هذه الفرصة للتغلغل في شرق افريقيا [٧٣]. كما انهم استغلوا فرصة وصول ملك بات الى غوا في نهاية عام ١٧٢٧ ـ طالبا المساعدة ضد منافسيه ـ وتوقيع اتفاقية مع البرتغاليين كان من ضمن بنودها

أن تقوم قوات بات بإسناد البرتغاليين لإستعادة مومباسا ومنع الصلات البحرية بين العرب والمقاطعات . وقد قرر البرتغاليون الابحار في نهاية كانون الأول بثلاث فرقاطات وسفينتين وزورق وعليها (١٦٤٧) رجلا ، وأمير فازا المنفي وقاد تلك الحملة (لويس دى ميلو) (Luis de Mello) ، وبسبب عاصفة قوية اختفت اثنتان من قطع الاسطول ، ووصلت الأربع الباقية إلى بات ، وبعد معارك متقطعة مع سفن عمانية ، رفع العلم البرتغالي هناك بعد حوالي (٥٠) يوما من وصولهم [٧٤] .

استثمر القائد البرتغالي هذا الانتصار فأعد حملة مع (٥٠٠) من المرتزقة المحليين وبدعم من ملك بات . وصلت هذه القوة إلى مرفأ كلنديني في آذار ١٧٢٨ وحدث تبادل قصير لاطلاق النار في حامية سانت جوزيف (St. Joseph) .. وتم إخلاء المعسكر والإستيلاء عليه . وبعد يومين من القتال نجح البرتغاليون في احتلال مومباسا ، وفي اليوم التالى دخل البرتغاليون وملك بات وأمير فازا حامية يسوع وبخضوع هذه الحامية أعلن لويس دي ميلو عودة الحكم البرتغالي إلى الساحل ، وفي غضون أسبوعين جاء سبعة ملوك ساحليين ، من ضمنهم ملوك زنجبار وبمبا لاعلان الطاعة للبرتغال [٧٥] . وبعد فترة قصيرة غادر القائد البرتغالي ـ الذى كانت مسئوليته قيادة العمليات الحربية في البحار الشمالية ومضيق هرمز والبحر الأحمر والمحيط الهندى ـ شرق أفريقيا وأبحر مع سفينتين إلى فارس وترك سلفادو كايتانودى كاسترو (Silvada Catanode Castros) كحاكم لمومباسا مع معسكر مكون من ١٢٠ رجلا [٧٦] .

في الثاني من كانون الثاني عام ١٧٣٠ أرسل الحاكم البرتغالي أسطولا مع (١٢١٥) رجلا إلى شرق أفريقيا لتعزيز السيطرة البرتغالية هناك ، وقبل وصوله التقى في ٢٣ كانون الثاني بزوارق نقلت له أنباء سقوط مومباسا في أيدى العمانيين بعد وصول سفن عمانية تحمل ٧٠٠ رجل بقيادة محمد بن سعيد المعمورى الذى نجح في إستعادة بات [٧٧] واخضاع زنجبار ، وقد عين هذا القائد نائبا للامام هناك .

وعند وصول القوة البرتغالية بقيادة لويس دى ميلو نفسه كان العلم العماني الأحمر يرفرف على الحامية ، وكانت سفن عمانية كبيرة موجودة في ميناء كلنديني . فاضطر القائد للابحار إلى موزمبيق ، وابحر ثانية في نهاية شباط مع تعزيزات من موزمبيق إلى مومباسا في محاولة لاحتلالها ، الا ان الرياح والتيارات المعاكسة ، اضطرته الى العودة إلى موزمبيق وتم التخلى نهائيا عن أية أفكار باستعادة مومباسا [٧٨] . وفي ١٧ مايو من العام نفسه تعرض الاسطول البرتغالي أثناء عودته إلى كوا إلى اعصار مدمر أغرق جميع السفن بما فيها سفينة القيادة التى كانت تقل القائد دى ميلو [٧٩] ، وهكذا انتهى أخر احتلال برتغالي لشرق

أفريقيا ، وفقدوا فرصتهم الوحيدة أثناء انشغال العمانيين بالصراعات الداخلية حول منصب الامامة .

ان نجاح العمانيين فى اقصاء البرتغاليين ارتبط بجملة عوامل أهمها : تنامي قوتهم البحرية ، واستخدامهم للسفن الأوربية الحديثة التى وقعت في أيديهم . كما ان المعاملة السيئة التى تعامل بها البرتغاليون مع شعوب مستعمراتهم قد أثارت موجة شديدة من السخط والكراهية لهم ، مما كان حافزا لهم لطلب النجدة من العرب لطردهم من أراضيهم ، كما حدث بالنسبة للمستعمرات فى شرق أفريقيا .

كما ان البحرية العمانية رغم حداثتها كانت تسير على نظام عسكري دقيق لا يقل عما كان متبعا في الدول الاوربية البحرية كبريطانيا وهولندا ، فكان العمانيون يراقبون حركة قوة أعدائهم بدقة وحرص شديد .

ومن العوامل المهمة التى أسهمت فى إنهيار نفوذ البرتغاليين في البحار نزاعهم المستمر مع منافسيهم الاوربيين ، وحكام الولايات الهندية المختلفة التي كانت سببا مهما في نقص مواردهم .

إعتمدت الهجمات البحرية العمانية ضد البرتغايين على عنصر المفاجأة وسرعة الحركة ، كما ان هذه الهجمات وخاصة في السواحل الهندية لم يكن الغرض منها الاستيلاء على تلك المستعمرات ، وإنما تدمير الوجود البرتغالي فيها .

ولابد من الاشارة الى أن معظم المصادر الاوربية وصفت الصراع البحرى العماني باتجاهين :

الاتجاه الأول : وصفت فيه الجهاد العماني على أنه من أعمال (القرصنة) فى حين حرصت على وصف المآسي التى ألحقها البرتغاليون بشعوب مستعمراتهم ومنها منطقة الخليج العربي على انها من الانجازات القومية الكبرى .

الاتجاه الثانى : انها بالغت فى وصفها للمعارك البحرية فصورت لنا أن البرتغاليين انتصروا في معظم معاركهم البحرية ضد العرب ، وقدرت الخسائر العربية تقديرا لا يصدق مقارنة بخسائر البرتغاليين ـ وكما أشرت سابقا ـ ففي واحدة من تلك المعارك كانت خسائر العرب (١٨٠٠) قتيل يقابلها (٢٨) قتيلا من البرتغاليين[٨٠] .

*****

الهوامش

١ - إشتهر العرب كملاحين مهرة حيث وصلوا إلى سواحل الخليج والمحيط الهندي وجنوب شرق آسيا وشرق افريقيا ، وإستوطنت مجموعات منهم هذه المناطق منذ فترة سبقت العصور الاسلامية . إنظر : يوسف فضل حسين ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، العرب وافريقيا ، بحوث ومناقشات الندوة القطرية لمركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧ .

٢ - رافت غنيمي ، دور عمان في بناء حضارة شرق افريقيا ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الثالث ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٣ - Quoted in: Bathurst, The Yarubi Dynasty of M Oman unpublished ph. b. Thesis (Oxford, 1967) P. 114.

٤ - انطونيو سوسا كوتنهو ، هو احد أعضاء المجلس الثلاثي الذى تولى سلطة البرتغال بعد وفاة الحاكم البرتغالى دوم فيليب Dom Filippe انظر :

Danvers, The Portuguese in India, Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire, London, 1894, Vol II, P. 302

٥ - Bathurst, Op. Cit. P. 115.

٦ - Danvers, Op. Cit. P. 299.

٧ - Bathurst, Op. Cit. P. 119.

٨ - عامر محمد الحجري ، تاريخ العلاقات العمانية الافريقية ، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرقى الجزيرة العربية ، الدوحة ، قطر ١٩٧٦ ، ص ٧٨٤ .

٩ - جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ، ١٩٧٥ . ص ١٦٠ Danvers, Op, Cit. PP. 317-8

١٠- الحجرى ، المصدر السابق ، ص ٧٨٤ ، غنيمى ، المصدر السابق ص ١٦١ .

١١- عدنان هرير جودة ، عمان وسياسة نادر شاه ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٢٩ .

١٢- للتعرف على الشروط التى استسلمت بها كولومبو للهولنديين يراجع :

Danvers, Op, Cit., PP. 317-8

١٣- Danvers, Op, Cit., PP. 321

١٤- صلاح العقاد ، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالى في الخليج ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الرابع ، ص ١٠٢ .

١٥- Bathurst, Op. Cit. PP. 120-121

١٦- المزروعيون او المزاريع : فرع من قبيلة بني ياس التي لا زالت تقطن الساحل العماني ، وقد حكمت هذه الأسرة في شرق افريقيا قرابة مائة عام ، وإمتد سلطانها في أوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالا حتى بنجا جنوبا ، وقد نشر وليم أوين (W. Owen) الرحالة الانجليزي الذى زار شرق أفريقيا عام ١٨٢٤ ملخصا لكتاب وجده في مومباسا عن تاريخ آل المزروعي ضمن كتابه :

Narratives of Voyage to explore the shores of Arabia, Africa and Madagascar, 2 Vols. (London) 1862

إنظر : جمال زكريا قاسم ، الدولة العمانية في شرق افريقيا ، ندوة الدراسات العمانية ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، المجلد الثالث ص ٩٥ .

١٧- العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٤٦ .

١٨- غنيمي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ ، أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرق افريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، سلطنة عمان ، ١٩٧٩ ، ص ٦٦ .

١٩- Bathurst, Op, Cit., PP. 121-2.

٢٠- Danvers, Op, Cit., Vol.II, P.331

٢١- يقع مايلز في تناقض واضح حيث ذكر أن الحملة على ديو كانت عام ١٦٧٠ بعد عامين من تولية الامام بلعرب بن سلطان ، في حين ان الحملة كانت في زمن والده سلطان الذى توفى عام ١٦٧٩ . انظر : مايلز ، الخليج بلدانه ، وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦ ، ص ٢٠٨ .

٢٢- ديو : جزيرة مهمة تقع في الطرف الجنوبي من كوجرات الهندية عند خط عرض ٤٢ ـ ٢٠ شمالا وخط طول ٥٧ ـ ٧٠ شرقا .

٢٣- فالح حنظل ، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ، أبوظبى بلا تاريخ ، جـ ١ ، ص ٨٦ . عائشة السيار ، دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا للفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٧٣ .

٢٤- Bathurst, Op, Cit., P. 123

٢٥- Bathurst, Op. Cit., P. 124

٢٦- لوكهارت ، التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، ترجمة علاء الدين أحمد حسين ، مجلة الخليج العربى ، العدد العاشر ، جامعة البصرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٠ .

٢٧- الحجرى ، المصدر السابق ، ص ٧٨٥ .

٢٨- Quoted in: Bathurst, Op, Cit., PP. 125-6.

٢٩- السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

٣٠- Bathurst, Op. Cit., P. 128-9.

٣١- باسين ، ميناء يقع على ساحل الهند ، يبعد حوالي واحد وعشرين ميلا عن بومباي .

٣٢- السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

٣٣- مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، صالح محمد العابد ، تحرير ساحل عمان وإنهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق ، مجلة آفاق عربية ، العدد الثالث ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص ٤٣ .

٣٤- Bathurst, Op. Cit., P. 131-2.

٣٥- السيار ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

٣٦- Bathurst, Op. Cit., P. 133

٣٧- جودة ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

٣٨- اختلفت المصادر العمانية في التاريخ الحقيقي لوفاة الامام سلطان بن سيف . ففي الوقت الذي يعطي الأزكوى التاريخ المذكور ، فان بن رزيق يعطي يوم ٢٢ تشرين الثانى عام ١٦٤٩ تاريخا لوفاته . ومن الواضح ان المصادر العمانية خلت من تفاصيل هذه الفترة . لذلك فان من المنطقي قبول التاريخ الذى تعطيه المصادر المبكرة لذلك إعتمدت على تاريخ (الأزكوى) .

الأزكوى : تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الأمة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١١٢ .

حميد بن محمد رزيق ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٢٩٢ .

٣٩- الأزكوى ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

٤٠- Bathurst, Op. Cit., PP. 138-9.

٤١- السيار ، المصدر السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ .

٤٢- Bathurst, Op, Cit, P. 140.

٤٣- Danvers, Op. Cit, Vol II, P. 370

٤٤- سالست : جزيرة تقع شمال بومبى مساحتها حوالي ٣٤١ ميلا مربعا، تشتهر بمناطقها الاثرية .

٤٥- مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ ، العقاد ، دور العرب والفرس ، ص ١٠١ .

٤٦- السيار ، المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ ، لوكهارت ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

٤٧- مايلز ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
٤٨- لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، قطر ، الدوحة ، جـ ٢ ، ص ١١١ . لوكهارت ، التهديد العماني ، ص ٩١ .
٤٩- بعث الامراء في شرق افريقيا وفدا إلى الامام سيف يطلبون فيه العون والمساعدة ضد البرتغاليين وقد تشكل الوفد من :
الشيخ احمد المليندى ، وتموت بن موترغو الكليندى ، وموشال بن التنجاني ومعهم ممثل لكل قبيلة وطائفة . انظر : سعيد بن علي المغيرى جهينة الاخبار في تاريخ زنجبار ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٧ ـ ٨ .
٥٠- المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، المغيرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
٥١- Bathurst, Op. Cit, P. 144.
٥٢- السيار ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
٥٣- Bathurst, Op. Cit, P. 146.
٥٤- رودلف سعيد روت ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ ـ ١٨٥٦ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ١٩٨٣ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .
٥٥- Bathurst, Op. Cit, P. 147.
٥٦- قام جنود ناصر بن عبدالله باعتقال قائدهم وعينوا احدهم وهو (سيس رمب) قائدا لهم ، غير ان كبار رجال مومباسا اعلنوا الحرب على هذا القائد ، وتلت ذلك فترة من الفوضى والصراع على السلطة بين حكام مومباسا وبات وعمان .
للمزيد من التفاصيل يراجع : وزارة التراث القومي والثقافة ، العمانيون وقلعة مومباسا ، سلسلة تراثنا ، العدد التاسع ، سلطنة عُمان ، ١٩٨٥ ، ص ١٧ ـ ١٨ .
٥٧- حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .
٥٨- العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٤٢ .
٥٩- قاسم ، الأصول التاريخية ، ص ١٠٩ .
٦٠- المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ، جودة ، المصدر السابق ص ٣٢ .
٦١- قلعة يسوع : انشاها البرتغاليون عام ١٥٩٣ وهي مبنية من الاحجار المرجانية كخط دفاع عن مدخل ميناء مومباسا ولتامين مركزهم على الساحل الشرقى لافريقيا . انظر ، وزارة التراث القومي والثقافة .
العمانيون وقلعة مومباسا ، ص ١٤ .
المعمرى ، المصدر السابق ، ص ٩ .

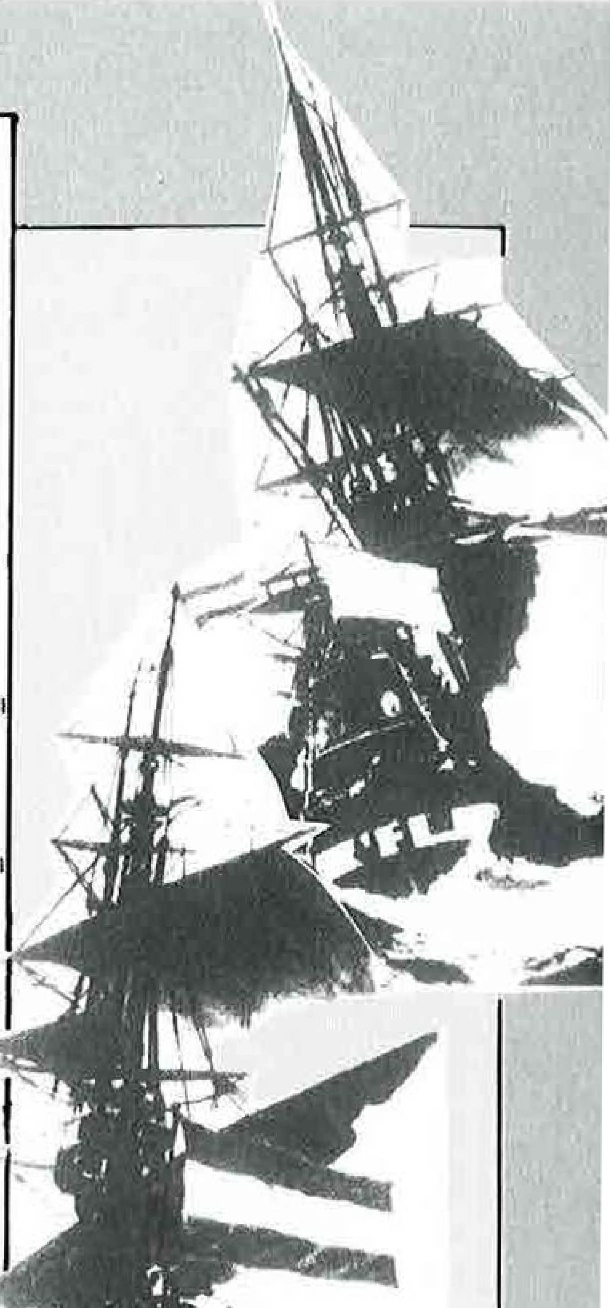
٦٢- Bathurst, Op, Cit., P. 261
٦٣- Quoted in: Bathurst, Op. Cit, P. 264.
٦٤- دامان ، هي احدى المستعمرات البرتغالية على خليج كامباي غربي الهند .
٦٥- جودة ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
٦٦- وصلت معلومات من جاسوس من موزمبيق للبرتغال تضمنت معلومات تفصيلية عن حجم القوات العربية على الساحل ، انظر :
Bathurst, Op. Cit, P. 264-5.
٦٧- تذكر عائشة السيار ، في كتابها (دولة اليعاربة ص ٧٩) ، وكذلك فالح حنظل في كتابه (تاريخ الامارات ، جـ ١ ، ص ١٢٤) أن هذا العدد هو خسائر العرب في حين يبالغ دانفرز (Danvers) بقوله ان انباء موثوقة وردت إلى الحاكم البرتغالي من مسقط تفيد بان خسائر العرب بلغت ١٨٠٠ رجل في هذه المعركة . انظر :
Danvers,Op. Cit, P. 379
٦٨- Quoted in: Danvers, Op. Cit, PP. 379-380.
٦٩- لوكهارت ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .
٧٠- حنظل ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .
٧١- السيار ، المصدر السابق ، ص ٨٠ ، حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣١ .
٧٢- Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, London, Vol. I. PP. 61-2
وإنظر ايضا ، العابد ، تحرير ساحل عمان ، ص ٤٢ .
٧٣- حاول البرتغاليون إعادة سيطرتهم على مومباسا منتهزين فرصة نشوب الصراع الأسرى في عمان ، إضافة إلى حدوث صراعات بين زنجبار وومباسا ، انظر : قاسم ، الأصول التاريخية ، ص ١١٠ - ١١١ .
٧٤- Bathurst, Op. Cit. P. 271
٧٥- Bathurst, Op. Cit., P. 272
٧٦- حنظل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٤ Bathurst, Op. Cit., P. 275
٧٧- Coupland, East Africa and its Invaders from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1850, Oxford, 1938, P. 67.
٧٨- السيار ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .
٧٩- Bathurst, Op. Cit. P. 276
٨٠- Danvers, Op. Cit, P. 379

نظرة جديدة للإنجازات والتجارية

دراسة في عوامل تدهور وانحطاط الإمبراطورية البرتغالية

بقلم الدكتور

عبدالأمير محمد أمين



السّياسية والعسكريّة البرتغاليّة في آسيا

اعتدنا في الوطن العربي قراءة الشيء الكثير عن الانجازات الكبيرة التي حققها البرتغاليون في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية ، خلال القرن السادس عشر في الخليج العربي ، وفي غيره من مناطق الشرق . فقد صار معروفا لدينا ان البرتغال ، وهو ذلك البلد الصغير القابع في زاوية نائية من القارة الاوروبية ، استطاع خلال سنوات قليلة بناء امبراطورية مترامية في الشرق تمتد من شرق افريقيا والخليج العربي والبحر الاحمر غربا الى أرخبيل الملايو وبحر الصين شرقا . والى جانب تلك الانجازات السياسية والعسكرية ، فقد صار معروفا لدينا أيضا ان البرتغاليين استطاعوا السيطرة على طرق التجارة ، وذلك باحكام قبضتهم على المواقع الاستراتيجية والجزر المهمة والممرات المائية ومكنهم ذلك من الهيمنة على التجارة سواء كانت تلك التجارة المباشرة بين اوروبا وآسيا أو تلك التى كانت قائمة بين الموانىء الاسيوية بعضها مع بعض وصار مألوفا ايضا الاعتقاد بأن تلك الانجازات قد صاحبها تحول التجارة بين اوروبا وآسيا من طرقها التقليدية البرية عبر الشرق الأدنى الى الطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح .

لقد صارت المعلومات السابقة شائعة بل اصبحت من الامور المسلم بها . والبحث الحاضر محاولة لتفحص هذه المسلمات فالدراسات الحديثة تلقي اضواء جديدة على طبيعة الوجود البرتغالي في آسيا وتكشف عن نوعية الامبراطورية التي أقامها البرتغاليون في الشرق ، وفي الوقت نفسه تعطي تقييما دقيقا الى حد كبير للمكاسب التجارية والسياسية التي حققوها خلال قيام نفوذهم في القرن السادس عشر .

وتكشف تلك الاضواء ايضا عن مدى المبالغة والتهويل في تقدير الانجازات البرتغالية في المجالات السياسية والعسكرية والتجارية . وهذه الورقة تمثل محاولة لوضع تلك الانجازات في اطارها الصحيح واعطائها حجمها الحقيقي .

حقا لقد نجح البرتغاليون بعد جهود مضنية استغرقت ما يقرب من قرن من ارتياد الساحل الغربي لافريقيا كله .[1] وتكللت جهودهم الاستكشافية بالنجاح في الوصول الى رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٧ ، ثم وصلوا بعد هذا بسنوات قليلة الى الساحل الغربي للهند . وكان ذلك اول اتصال مباشر في التاريخ بين اوروبا وآسيا[2] . واكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح هو من غير شك انجاز هائل ، بل من الممكن القول انه انجازهم الرئيسي ، وهو بحق من أعظم الانجازات في مجال الريادة والاستكشاف خلال التاريخ البشري كله .

أما خطوتهم التالية في تجاوزهم رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى ساحل افريقيا الشرقي ، ثم عبورهم المحيط الهندي ووصولهم ميناء كاليكوت في الهند ، فهذه الانجازات كلها على الرغم من الضجة التي اثيرت حولها ، فإنها لا تقارن من حيث الاهمية باكتشافهم لرأس الرجاء الصالح . وذلك ان الساحل الشرقي لافريقيا لم يكن من الامور المجهولة والمحيط الهندي طريق مسلوك منذ أقدم العصور التاريخية والملاحة بين الخليج العربي والبحر الأحمر وشرق افريقيا من جهة والهند وبعيدا منها الى الشرق كلها امور معروفة ومألوفة . ومجرد نجاح البرتغاليين في الانتقال من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي جعل الامر يسيرا بالنسبة لهم للاستفادة من الخبرات الملاحية الواسعة والمعرفة الكبيرة التي كان يمتلكها التجار العرب وغيرهم من التجار الاسيويين في هذه المياه . بل انهم لم يجدوا عناء كبيرا في الحصول على شخص عربي يساعدهم في اجتياز المحيط الى ساحل الهند . وهكذا بينما صرفوا قرنا من الزمن لارتياد ساحل افريقيا الغربي واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، لم يتطلب الامر منهم بعد ذلك سوى سنوات قليلة لاجتياز المحيط الهندي الى الهند .

حقا لقد حقق البرتغاليون خلال العقدين الاولين من القرن السادس عشر انجازات عسكرية وسياسية كبيرة . فاحتلوا مواقع استراتيجية مهمة مثل هرمز وكوا وملقا ومواقع اخرى على ساحل الهند في الغرب والشرق من «ديو Diu» الى «جاتاكونك Chittagong» وانتشرت قلاعهم في الخليج العربي وسواحل الهند وأرخبيل الملايو وانتزعوا

حقوقا للاتجار في مناطق كبيرة في تايلاند وبرما وكمبوديا . وصارت لهم قاعدة تجارية مع الصين في مكاو وأبعد من ذلك في ميناء تانكاشيما «Tanegashima» الياباني .

واحتفظ البرتغاليون طيلة القرن السادس عشر بامبراطوريتهم الواسعة التي أقاموها خلال العقود الاولى من القرن المذكور . ولعله مما يثير الحيرة والاستغراب ان دولة صغيرة كالبرتغال ذات الموارد البشرية والاقتصادية الضئيلة قد استطاعت ان تقيم الامبراطورية الضخمة . على أية حال ، فإن معرفة طبيعة تلك الامبراطورية قد تزيل الشيء الكثير من ذلك الاستغراب ، فالامبراطورية البرتغالية ذات صفات خاصة تختلف عما ألفه التاريخ من امبراطوريات في عصوره المختلفة .

ونظرة أولية الى خارطة الامبراطورية البرتغالية في الشرق وتقسيماتها الادارية تظهر ضخامة تلك الامبراطورية البرتغالية واتساعها ، لقد كان نائب الملك يتخذ من «كوا Goa» على الساحل الغربي للهند مقرا رئيسيا للامبراطورية البرتغالية . ويفترض انه يشرف ـ من ذلك المقر ـ على بقية انحاء الامبراطورية التي قسمت اداريا الى سبعة أجزاء هي[٢] :

١ ـ الجزء الأول : ويمتد من رأس الرجاء الصالح الى البحر الاحمر وهكذا فإن هذا الجزء يضم جميع ساحل شرق افريقيا .

٢ ـ الجزء الثاني : ويضم جنوب بلاد العرب ومدخل الخليج العربي .

٣ ـ الجزء الثالث : ويمتد هذا الجزء من الخليج العربي الى مصب نهر السند .

٤ ـ الجزء الرابع : ويشمل هذا الجزء الساحل الغربي للهند حتى رأس «كومورن Comorin» .

٥ ـ الجزء الخامس ويشمل هذا الجزء الساحل الشرقي للهند حتى البنغال .

٦ ـ الجزء السادس ويغطي هذا الجزء الساحل الغربي لجنوب شرق آسيا والنصف الغربي لارخبيل الملايو .

٧ ـ الجزء السابع ويشمل هذا الجزء كل المناطق التي تقع شرق الجزء السادس ويضم جزر التوابل في «مولاكاس Moluccas» والجزر المنتجة لخشب الصندل وهي «فلورس Flores» وتيمور Timore» . وكانت «مكاو Macao» ضمن هذا الجزء وكذلك الامر بالنسبة لسيلان .

ويبدو من هذا الوصف للامبراطورية البرتغالية ان الامر مثير مذهل خاصة اذا أخذ بالاعتبار ، كما ذكر صغر البرتغال وضآلة طاقاتها ، ولكن النظرة المتفحصة قد تزيل الكثير من الاثارة والذهول . فالامبراطورية البرتغالية في الواقع ، لم تزد عن كونها مواقع استراتيجية وموانيء ونقاط ساحلية وجزر صغيرة ، شيدت فيها قلاع كبيرة وفرت لها حماية كافية . ولكنها كانت متباعدة ومفصولة ان لم تكن معزولة عن بعضها البعض ولا تكون بمجموعها كيانا سياسيا وعسكريا مترابطا . وهي أقرب الى وحدات سياسية اقطاعية منها الى امبراطورية متناسقة التركيب . بل ان ما ذهب اليه «فان لير Van Luer» وهو «ان الامبراطورية البرتغالية في الشرق لم تكن لتمثل حتى ذلك النوع البدائي من

الاماكن والموانىء عند بداية وصولهم للخليج.[٢٤].

وهذا ما فعله البوكرك في مدينة مسقط في عام ١٥٠٦ وبعد القتل والنهب والحرق والتدمير والأسر، اطلق سراح بعض الرجال والنساء ولكن لم يفعل ذلك الا بعد ان قطع انوفهم وآذانهم.[٢٥].

ولعل ما حدث للسفينة «مريم» خير مثال على القسوة البرتغالية. وكانت هذه السفينة عائدة من الحج الى الهند عندما اعترضها الاسطول البرتغالي قرب ساحل المليار. وكانت تحمل على ظهرها ٣٨٠ راكبا بينهم عدد كبير من النساء والاطفال. وقصفت سفن الاسطول البرتغالي السفينة ويصف أحد رجال الاسطول البرتغالي وضع السفينة «مريم» فيقول: لقد أخذت النيران تلتهم مريم ومن على ظهرها من الركاب وكانت النساء وهن يحملن اطفالهن يصرخن ويستغثن ولكن دون جدوى. ويصف برتغالي آخر شهد المأساة الوضع بشكل أوضح:[٢٦]

«**لقد استولينا على السفينة مريم العائدة من مكة والتي كان على ظهرها ٣٨٠ راكبا وكان بينهم كثير من النساء والاطفال. واستطعنا سلب ١٢,٠٠٠ دكات** ducat منها نقدا كما سلبنا ما قيمته ١٠,٠٠٠ دكات من السلع. ثم حرقنا السفينة مع جميع من كان على ظهرها وكان ذلك في اليوم الاول من شهر تشرين الاول».

وفي الهند قام فاسكودي جاما في عام ١٥٠٢ بتدمير وحرق عدد كبير من سفن المسلمين التي كانت بالقرب من ميناء كاليكوت ثم اسر ثمانمائة من رجال تلك السفن وعمد الى قطع انوفهم وآذانهم وايديهم وأرسلهم الى حاكم كاليكوت مقترحا عليه عرضهم في مدينته. وقام «فنسنت سودر Vincente Sodre» أحد ربابنة السفن في اسطول دي جاما بجلد كبير التجار في كانانور حتى أغمي عليه ثم ملأ فمه بالاوساخ وغطاه بشرائح من لحم الخنزير.[٢٧] وقد لا يكون هناك حدود لامثلة من هذا النوع.

واذا كانت قسوة البرتغاليين وتعصبهم الديني قد حالا دون خلق جو من المحبة والوئام بينهم وبين الشرقيين، فان جهلهم بالمجتمعات الشرقية وتقاليدها وعاداتها قد باعد الشقة بين الطرفين. لم يتفهم البرتغاليون ابدا طبيعة المجتمعات العربية والايرانية والهندية والاندونيسية التي كان يتحتم عليهم التعامل معها.[٢٨] وعلى سبيل المثال لا الحصر لم يستوعب البرتغاليون «نظام الطبقات The caste System» عند الهندوس في الهند. وقد استشاط البوكرك مرة غضبا عندما رفض راجاكوجين طلبه في رفع احد اصدقائه من الهندوس من الطبقة الدنيا التي كان ينتمي اليها الى طبقة أعلى. دون ان يدور في خلده ان مثل هذا الطلب لا يمكن تلبيته، وانه لا يقع في نطاق صلاحيات الراجا المذكور وليس في قدرته. هذا وكثيرا ما امتعض ربابنة السفن البرتغالية من رفض البراهمة تناول الطعام معهم على ظهر سفنهم معللين ذلك بخشية اولئك البراهمة من وضع البرتغاليين السم لهم في الطعام [٢٩].

دون ان يدركوا ان ليس في استطاعة تلك الفئة من المجتمع تناول الطعام مع الاخرين بذلك الشكل.

ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة الى مصير البرتغاليين في الشرق، والذى قد يفوق في آثاره السلبية كل ما ذكر عن تعصبهم وقسوتهم وجهلهم، هو قصورهم في المجال الدبلوماسي وفقدانهم الحس السياسي السليم. فقد كان مثل ذلك الحس يتطلب ادراكا افضل للاوضاع السياسية في الساحة الاسيوية واستيعابا احسن لموقف القوى الشرقية المختلفة. والادراك والاستيعاب السليمين كان بامكانهما خدمة المصالح البرتغالية وذلك بالتحالف مع هذا الفريق او ذاك، بل واستغلال الخلافات والصراعات بين القوى الشرقية عوضا عن التورط في نزاع شامل مع كل قوى الشرق تقريبا. وهذا الذى حدث للبرتغاليين في الخليج العربى وفي شبه القارة الهندية وفي ارخبيل الملايو.

ولما كان البرتغاليون قد اعتبروا المسلمين منذ البداية، اعداءهم الرئيسيين في آسيا فكان يترتب عليهم التعاون مع القوى الاخرى المناهضة للمسلمين. وكان الوضع في الهند مهيئا لمثل هذه السياسة طالما كان هناك صراع مستمر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الامارات الاسلامية والامارات الهندوسية.

لم يستفد البرتغاليون من تلك الظروف فبعد سنوات قليلة من وصولهم الى الهند اشتبكوا في صراع مع حاكم كاليكوت الهندوسي وبعد سنوات قليلة اخرى تورطوا في نزاع مع راجاكوجين وهو حاكم هندوسي آخر وكان خصما ومنافسا لحاكم كاليكوت.[٣٠] ولعل الامر الاكثر خطورة بالنسبة لكل ما سبق هو عجز البرتغاليين عن التحالف مع القوى الهندوسية الكبيرة في شبه القارة الهندية. بل انهم لم يبذلوا جهودا جادة للتحالف ولاقامة علاقات جيدة ووطيدة مع الدولة الهندوسية القوية والمهمة جدا وهي امبراطورية «فيجاياناكار Vijayanagar» في الوقت الذى كانت هذه تخوض صراعا مصيريا مع عدد من الامارات الاسلامية القوية خلال القرن السادس عشر. ثم جاءت معركة «تاليكوت Talikot» في عام ١٥٦٥ التى انهت امبراطورية فيجاياناكار كقوة سياسية فعالة، واخذ مكانتها في هذا المجال عدد من الامراء المسلمين الذين صارت لهم سيادة لا منازع لها في أغلب الجزء الجنوبى للهند. وكان من النتائج المباشرة لذلك النصر الاسلامى اتفاق اولئك الامراء المسلمين على محاربة البرتغاليين بل ومحاولتهم الاستيلاء على كوا عاصمتهم في الشرق.[٣١]

سبق القول ان البرتغاليين حملوا معهم منذ البداية بذور ضعفهم وانحلالهم. واذا وضعت الجوانب السياسية والعسكرية التي عولجت في الصفحات السابقة جانبا. فان مثل هذا القول يتمثل ايضا الى حد كبير في ممارساتهم التجارية. فمن ناحية لم ينجح البرتغاليون في احداث تغيير جدير بالذكر في العلاقات التجارية الاوروبية -

الاسيوية.[٣٢] فلم يزيدوا من حجم التجارة بين القارتين ولم يقدموا سلعا آسيوية الى الاوروبيين لم يكن يعرفها هؤلاء من قبل. وفي الوقت نفسه لم يحملوا معهم من اوروبا سلعا جديدة الى الاسيويين. كما انهم لم يوفقوا في ايقاف نزيف الاموال الذي كانت تعاني منه اوروبا من جراء التجارة مع آسيا. ثم ان البرتغاليين لم يحدثوا اى اثر فعال في التجارة الاسيوية نفسها. لقد احتفظت كلا التجارتين - التجارة الاوروبية - الاسيوية والتجارة الاسيوية بطابعهما التقليدي الاساسي. ولم يحولوا اى منهما الى مشروع استثماري ذي صفة متميزة عما كان مألوفا من قبل. والخلاصة ان البرتغاليين فشلوا في خلق مؤسسات اقتصادية ذات طابع رأسمالي استثماري يستند الى أسس اقتصادية راسخة وفوائد دائمة ومضمونة. وبقيت التجارة البرتغالية حتى النهاية تمثل، كما يصفها بعض الباحثين، «تجارة الباعة المتجولين The Peddlers». ولعل فان لر كان موفقا الى حد كبير فيما ذهب اليه في وصفه للتجارة البرتغالية اذ يقول [٣٣]:

«**ان الانماط التجارية والاقتصادية خلال عهد السيطرة البرتغالية هي نفس الانماط التجارية التقليدية المألوفة دون ان يطرأ عليها تغيير جذري او ابتكار. فهي صغيرة نسبيا في حجمها. وهي بجملتها مشروع ملكي سخرت فيه كل العناصر: الملاحة والسفن والموانىء والضرائب للاستغلال الغاشم ولتوفير الفائدة المباشرة والسريعة**».

بل ان فان لر يذهب الى ابعد من ذلك عندما يؤكد «ان البرتغاليين لم يقدموا عنصرا جديدا واحدا لتجارة جنوب شرق آسيا خلال عهدهم الاستعماري»[٣٤] وما قاله فان لر عن جنوب شرق آسيا لا يمكن الا ان يقال عن التجارة البرتغالية في بقية انحاء القارة الاسيوية التي مارس فيها البرتغاليون تجارتهم.

لقد اتسمت التجارة البرتغالية في آسيا منذ بدايتها بطابع القسر والعنف والاحتكار الغاشم. لقد صارت قصة ذلك الجزء من الحوار بين بعض التجار المسلمين وفاسكودي جاما شائعة ومعروفة فعندما سأله اولئك التجار ما الذي جاء به الى هذه البلاد النائية؟ أجابهم «المسيحية والتوابل». ولكن هناك تتمه لما دار بين الطرفين من حوار قد لا تكون جلبت اهتمام الكثيرين على رغم اهميتها. فقد واصل التجار السؤال «لماذا لم يحاول ذلك ملك قشتالة ولماذا لم يحاول ذلك ملك فرنسا؟ بل لماذا لم يحاول ذلك حاكم البندقية؟ «فكان الجواب: ان ملك البرتغال لا يوافق على ذلك وسوف لن يسمح لهم به» [٣٥] وهكذا ومنذ فجر وجودهم لم يفكر البرتغاليون الا في الاحتكار المطلق وفي تلك الفترة المبكرة من تاريخ البرتغاليين في آسيا، قدم احد تجار البندقية النصح لهم قائلا: «اذا كنتم ترغبون حقا في تجارة ناجحة فعليكم ان لا تنهبوا وتدمروا سفن منافسيكم»[٣٦].

وهذا الطابع القهري للتجارة وللفعاليات البرتغالية في آسيا يبدو واضحا في كل خطوة من خطواتهم، وفي كل التفاتة منهم ويكفي ان نشير هنا الى ذلك اللقب الكبير الذي أطلقه ملك البرتغال على نفسه «سيد الفتوحات

والملاحة والتجارة مع الحبشة وبلاد العرب والهند وايران». (٢٧) كان ذلك فى عام ١٤٩٩ قبل ان يحقق البرتغاليون اى وجود سياسي او عسكرى ذى شأن لهم فى آسيا. وبعد سنوات قليلة عندما توفر لهم مثل ذلك الوجود بادروا بسرعة الى محاصرة البحر الاحمر لضرب خصومهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ولضمان نجاح الاحتكار لتجارة الشرق التى كانوا يخططون لها.

ويرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ان ذلك الحصار كان ضرورة تاريخية. ويعقب البروفسور «نيلز ستينزكارد Niels Steensgaard» على هذا الرأى قائلا: «انه قد تكون هناك ضرورة تاريخية كما يقول اولئك المؤرخون ولكن لم تكن أمام البرتغاليين فرصة للاستفادة من ذلك» (٢٨) لقد عمد البرتغاليون الى حصار البحر الاحمر والى ابعاد بقية الاوروبيين عن رأس الرجاء الصالح قبل ان يحاولوا الاستفادة من اكتشافهم عن طريق المنافسة النافعة. ويعرض «اف. سي لين F.Lane» الامر بشكل اوضح اذ يقول «لم يعتبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح اكتشافا فنيا يمكنهم الاستفادة منه ويعطيهم ميزة على منافسيهم، ولكنهم اعتبروه احتكارا لا يستند الا على القوة الغاشمة(٢٩)

حقا مرت لحظات فى تاريخ البرتغاليين فى الشرق بدا فيها ان امام البرتغاليين خيارين: اولهما المنافسة الحرة والتجارة المسالمة، وثانيهما الاحتكار والربح السريع والمباشر. والتمعن فى نوعية الفئات البرتغالية التى قدمت الى الشرق والخلفيات الاجتماعية التى انحدرت منها تلك الفئات لا يترك مجالا للشك ان الاختيار الثانى كان مناسبا للبرتغاليين اكثر من الاختيار الاول. لم يأت البرتغاليون الى آسيا كتجار وكمستثمرين، بل جاءوا فرسانا صليبيين وسادة اقطاعيين ومغامرين جريئين. وهم من قادة وضباط وربابنة وحكام ينتمون بجملتهم الى الطبقة الارستقراطية البرتغالية. وهم بهذا غير مؤهلين مطلقا للخوض فى منافسة تجارية حرة مع التجار الاسيويين فى القارة الاسيوية ولا مع التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الاوروبيين فى اوروبا. لم تكن المشاريع التجارية موضعا لاهتماماتهم. لقد كانت اهدافهم تتمثل فى السلطة والنفوذ وفى الوظائف العالية والالقاب الكبيرة وبعد كل هذا وذاك الربح الكبير والسريع والمباشر.

والقت الاوضاع الاجتماعية فى البرتغال بظلالها على الوجود البرتغالي فى آسيا. فالاراضى الزراعية فى البرتغال قليلة ومحدودة وهى مملوكة بطبيعة الحال من قبل فئة ارستقراطية صغيرة. وكانت هذه الفئة تستخدم الرقيق المستوردين من افريقيا للعمل فى اراضيها. وتبقى هناك فئة ارستقراطية اكبر واكثر عددا محرومة من امتلاك الارض. ولمنزلتها الاجتماعية واصولها النبيلة لم تكن على استعداد للعمل التجارى او غيره من الاعمال. لقد كانت المناصب الحكومية هى الشىء الوحيد الذى يلائمها ويرضى طموحاتها. ولكن تلك المناصب كانت قليلة ومحدودة ولم تكن على اية حال كافية للجميع. وجاءت

الامبراطورية البرتغالية الى الشرق لتحل جزءا من هذه المعضلة. فقد افسحت المجال امام عدد كبير من أبناء الطبقة الارستقراطية لتولي المناصب التى كانوا يتشوقون اليها. وبقى هناك عدد اخر لم يسعفهم الحظ فى الحصول على شيء. ومثل هؤلاء شدوا الرحال الى الشرق بمبادراتهم الفردية مغامرين وطلاب حظ. وفى سنة واحدة توجه ٢٤٠ من هؤلاء الى آسيا. ولم يكن هناك من رادع امام هؤلاء يمنعهم من اقتراف اى عمل مادام يوفر لهم الربح. لقد مارسوا القرصنة والسلب والنهب وأستخدم قسم منهم من قبل السلطات الملكية لجمع الضرائب. ومنح فريق أخر منهم امتيازا ملكيا خاصا لمزاولة التجارة لحسابهم الخاص.

وبمرور الزمن لم يعد هناك خط واضح بين اولئك الذين شغلوا المناصب بتكليف ملكى وبين هؤلاء الذين فرضوا انفسهم على الساحة الاسيوية. لقد كان هدف الكل الربح السريع وصفة الجميع التفسخ والفساد. لقد كون اولئك وهؤلاء الطبقة البيروقراطية التي تولت شئون الامبراطورية البرتغالية فى أسيا».... وفى مثل هذا الجو، الذى نجد فيه كل فرد سواء كان يشغل أعلى المناصب او ادناها، وهمه الوحيد الحصول على المال فان فرص الابتزاز والفساد لا حدود لها. »(٤٠) وكان وجود مسئول برتغالى نزيه من الامور النادرة جدا. ولعل رئيس قضاء كوا فى الخمسينات كان من تلك الشخصيات النادرة فى هذا المجال. وقد كتب للملك فى عام ١٥٥٢ قائلا:

«لا توجد عدالة فى الهند. فهى لا تتوفر عند نائب الملك. ولا عند الذين هم أدنى منه. الهدف الوحيد للجميع هو جمع المال بكل السبل. ليس هناك احد فى الشرق يثق بالبرتغاليين. مد لنا يد العون ياصاحب الجلالة فاننا غارقون»(٤١)

والحديث عن الفساد والتفسخ فى الاجهزة البرتغالية فى الشرق حديث طويل جدا (٤٢)ويعقب ستينزكارد على البيروقراطية فى الشرق قائلا: «انها افضل الامثلة واوضحها للفساد الدستورى المصمم Constitutionally determined Corruption» (٤٣) وبالاضافة الى الفساد الذى اتسم به البرتغاليون فى الشرق فقد نقلت معها تلك الفئة من المجتمع البرتغالى غطرسة الارستقراطية الاوروبية وتعاليها وتقاليدها.

وحيثما اجتمع ستة او سبعة من الضباط البرتغاليين فى كنيسة او فى شارع او فى اى محل عام آخر اتخذ جمعهم مظهرا رسميا كحفلة راقصة او سباق، وأى خرق من احدهم لقواعد ذلك الحفل الارستقراطى سوف لا ينظر اليه على انه تصرف غير مهذب فحسب بل اهانة لا يمكن التغاضى عنها الا بامتشاق الحسام.(٤٤)

هذه هى الفئة البرتغالية الحاكمة فى الشرق ولا نتوقع منها بطبيعة الحال حكومة صالحة ولا تجارة مثمرة ونافعة. خاصة اذا عرفنا ان التجارة البرتغالية مع آسيا هى احتكار ملكى يشرف على القيام به تلك الفئة البيروقراطية التى سبق الكلام عنها. ولم يكن الملك البرتغالى نفسه اقل رغبة فى الحصول على الربح السريع والمباشر من اتباعه فى الشرق ولم يكن اقل منهم حماسا لجمع المال بأية

صورة ممكنة. ومنذ البداية كانت مصادر دخله تأتى من المصادر التالية:

١- نهب سفن المسلمين واموالهم وبمرور السنين امتد هذا النهب ليشمل المسلمين وسواهم.

٢- جباية الضرائب والرسوم من السفن الاسيوية وفى الموانىء والمواقع البرتغالية.

٣- الفوائد من التجارة الاسيوية الداخلية.

٤- الفوائد من التجارة الاوروبية - الاسيوية.

وحسب تقديرات ج. ن. فونسكو «J.N.Fonseco» فان المصادر الانفة الذكر كانت توفر للخزانة الملكية مليوني ريال سنويا كان نصفها يأتي من السلب والنهب والقرصنة ونصفها الاخر من الضرائب والرسوم والتجارة.(٤٥) وتكون الضرائب جزءا اساسيا من الدخل الملكي وليس من المبالغة فى شىء عندما وصف ملك البرتغال بأنه اكبر جامع ضرائب فى العالم.

جمعت الضرائب بوسائل عديدة منها تلك التى كانت تجىء من المواقع والموانىء البرتغالية التى يهيمن عليها البرتغاليون. وفى مقدمتها كوا وهرمز. ولعل نظام الجوازات«Cartaze system» كان من اهم مصادر الدخل وبموجب هذا النظام تحتم على كل سفينة آسيوية الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة فى احد الموانىء او المواقع البرتغالية. ويحدد فى كل جواز الموانىء التى يحق للسفينة دخولها والسلع التى يسمح لها بحملها. وجميع السفن الاسيوية عرضة للتفتيش فى عرض البحار. وأية سفينة لا تحمل مثل ذلك الجواز او تتخطى الحدود المرسومة لها فيه يكون مصيرها المصادرة او التدمير.

والحقيقة انه لم تكن تلك الجوازات مجرد وسيلة للحصول على الدخل للخزانة الملكية فحسب بل لتوجيه التجار الى الموانىء البرتغالية. وقد أعطى فى حينه مبررا ايدولوجيا لتلك الجوازات، فقيل انها استخدمت لغرض الهيمنة على التجار وقطع خطوط مواصلات المسلمين فى الشرق واضعاف القدرات الاقتصادية والعسكرية للامبراطورية العثمانية خاصة. تلك الامبراطورية التى كانت تهدد فى ذلك الوقت قلب العالم المسيحى. ولا يبدو لهذا التبرير اساس كبير من الصحة. فالمصادر البرتغالية المعاصرة نفسها تشير الى اهتمام السلطات البرتغالية بالدخل الذي توفره تلك الجوازات مباشرة اوغير مباشرة وذلك اكثر من اهتمامها بأية ايدلوجية معينة في هذا الشأن . هذا وبمرور السنين منحت تلك الجوازات للهندوس والمسلمين والارمن واليهود . طالما دفع الجميع الاجور المطلوبة لها .

ويبقى السؤال وهو الى أي مدى نجح البرتغاليون في تطبيق نظام الجوازات وفي تحقيق الفوائد المرغوبة منه ؟ لقد أفلح كثير من التجار الآسيويين في تجنب المسالك البحرية المألوفة وبهذا تحاشوا الرقابة البرتغالية ولم يضطروا الى حمل تلك الجوازات ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى لم يكن باستطاعة البرتغاليين مراقبة وحراسة آلاف الاميال من السواحل والبحار والممرات المائية الممتدة من الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق

افريقيا غربا والى ارخبيل الملايو شرقا. وبعد كل هذا وذاك، فان السلطات البرتغالية وما عرف عنها من تفسخ وفساد لم تكن تتردد في منح الجوازات لمن يرغب فيها لقاء شيء بسيط من المال. وكما وصف احد الملاحين الفرنسيين موقف البرتغاليين من هذا الامر بقوله «في سبيل المال يمكن التجاوز عن اي شيء». (٤٦)

والاساس في التجارة البرتغالية في الشرق انها احتكار ملكي. وينطبق هذا على التجارة الاوروبية ـ الاسيوية وعلى تجارة آسيا الداخلية، وفي المراحل الاولى من الغزو البرتغالي للشرق سمح الملك ما نوئيل بفتح ابواب التجارة الاوروبية ـ الاسيوية للتجارة الخاصة. على ان يكون القائمون بها من البرتغاليين. وعلى ان يكون هناك ترخيص خاص لكل رحلة، وللملك ٣٠٪ من جملة الحمولة. واشترط على التجار تخصيص حيز من السفينة لملاحيها لحمل بضائعهم الخاصة. (٤٧) ولم تكن هذه شروطا مشجعة. ومع هذا وبمرور السنين وتناقص دخل الملك من تجارته مع الشرق ألغيت التجارة الخاصة وصارت التجارة الاوروبية ـ الاسيوية كلها احتكارا ملكيا. وأبقى الحق للملاحين في الاحتفاظ بذلك الحيز من السفينة لسلعهم الخاصة. واشترط عليهم دفع ضرائب على تلك السلع في لزبن. واتضح انه من الصعوبة السيطرة على مثل هذا الوضع. فقد تجاوز ربابنة السفن الملكية والملاحون البرتغاليون فيها ذلك الحيز المخصص لهم وتم ذلك على حساب التجارة الملكية.

اضافة الى هذا فقد استطاع اولئك الربابنة والملاحون التهرب من دفع الضريبة. وكانت لزبن مليئة بالسفن والتجار الاوروبيين من ايطاليين وانجليز وفرنسيين وكان هؤلاء على استعداد لتلقف السلع الشرقية (٤٨) من الربابنة والملاحين قبل ان تصل هذه الى مراكز دفع الضرائب في لزبن.

لقد كان مبدأ السماح للربابنة والملاحين بحمل سلعهم الخاصة على ظهر السفن الملكية من اهم مظاهر الفساد في التجارة البرتغالية وكان من العوامل المهمة التى أدت الى تدنى الارباح التى كان يحصل عليها الملك من تجارة آسيا. وفسر النظام على انه تعويض لما كان يتقاضاه اولئك العاملون فى السفن الملكية من أجور ضئيلة(٤٩) كما قدم تفسير اكثر طرافة وهو ان المسئولين عن تلك السفن سوف يحاربون ويدافعون عن السفن الملكية بشكل افضل اذا ما تعرضت للخطر وذلك لانهم اذ يفعلون ذلك فانهم لا يدافعون عن اموال الملك بل عن اموالهم الخاصة كذلك.(٥٠)

وتفاقم الوضع فى اوائل القرن السابع عشر وتدنى دخل الملك من تجارته الى حد كبير بسبب الممارسات الآنفة الذكر. وحاول الملك اصلاح الامر فالغى النظام القديم وأبدله فى عام ١٦٤٧ بنظام جديد للخدمة فى السفن الملكية تضمن نقاطا مهمة اهمها ان الحصول على رتبة الربان يتوقف على الخبرة والكفاءة ولا يتطلب المنزلة الاجتماعية الارستقراطية والنسب.

ورفعت اجور الربابنة والملاحين وحرموا فى الوقت نفسه من حقهم فى نقل

اي سلع لحسابهم الخاص من اسيا، لقد تعرض هذا الاصلاح للنقد الشديد والاعتراض عليه من اصحاب المصالح الخاصة واضطر الملك الى تعديله فى عام ١٦٤٩ ثم الى الغائه فى عام ١٦٥٢. (٥١)

واعتبرت التجارة الاسيوية الداخلية هى الاخرى احتكارا ملكيا، ولكن الفساد الذى اتسم به الاحتكار الملكي للتجارة الاوروبية - الاسيوية كان له ما يمثله بالنسبة للاحتكار الملكي للتجارة الاسيوية الداخلية. وقبل الافاضة فى الحديث عن دور البرتغاليين فى هذا المجال يمكن القول ان البرتغاليين لم يستطيعوا التأثير تأثيرا يذكر فى طبيعة التجارة الاسيوية الداخلية وفى مقوماتها. فقد بقيت فى جوهرها تبادلا للسلع بين الموانىء الاسيوية نفسها ترتكز فى جملتها على السفن الاسيوية والتجار الاسيويين. ولم تمثل التجارة الاوروبية - الاسيوية سوى جزء ضئيل بالمقارنة بها.

ولعله من المفيد جدا اعطاء فكرة عن حجم التجارتين ولكن هذا ليس بالامر اليسير. ولحسن الحظ عمد بعض الباحثين الى وضع دراسات وتقديرات لتجارة الهند وبعض بلدان أسيا الاخرى خلال القرن السادس عشر، اى فترة النفوذ البرتغالي.(٥٢) وتظهر تلك الدراسات والتقديرات استمرار السمات الاساسية القديمة دون تغيير للتجارة الاسيوية. وهناك تقدير جدير بالذكر هام للغاية على الرغم من كونه لا يتناول الا جانبا محددا من تجارة الهند خاصة باقليم «كوجرات» وضعه موظف برتغالى هو «توم برس Tome Pires» فى اوائل القرن السادس عشر.

لقد ذكر توم برس بشيء من التفصيل صادرات كوجرات الى البلدان الواقعة الى الغرب والى الشرق من ذلك الاقليم الهندى الهام. وجاءت تقديراته كما هى مبينة فى الجدول التالى:(٥٣)

جدول رقم (١)

الغرب	طن	الشرق	طن
اوروبا	٦٠٠٠	بيجوا الخ	٥٠٠٠
شرق افريقيا	١٠٠٠	مالقا	١٠٠٠٠
البحر الاحمر - سفن الحجاج	٥٠٠٠	سومطرة	٣٠٠٠
سفن أخرى	٤٠٠٠	جاوه	٢٠٠٠
الخليج العربى وبلاد العرب	١٠٠٠٠	مالاكاس	١٠٠٠
		الصين واليابان	٣٠٠٠

وبعد الاخذ بعين الاعتبار اهمية اقليم كوجرات كأكبر مصدر للسلع الهندية خلال تلك الحقبة من الزمن، فالجدول يلقى الضوء على حجم صادرات الاقليم واتجاهاتها من ناحية، كما انه يظهر بوضوح ضآلة نصيب التجارة الاوروبية مع آسيا مع ناحية اخرى فهى لم تكن لتمثل سوى حوالى الثمن من مجمل صادرات الاقليم.

هذا ومن الجدير بالذكر هنا ايضا أن البرتغاليين لم ينجحوا طيلة القرن السادس عشر فى زيادة حجم هذه التجارة بين آسيا واوروبا. وعندما حدثت تلك الزيادة فى اواخر القرن المذكور، وازداد الاستهلاك الاوروبي للسلع الاسيوية، لم يتم ذلك على ايدى البرتغاليين وليس عبر رأس الرجاء الصالح، بل تم على يد التجار الاسيويين والايطاليين عبر الشرق الادنى وبطرق القوافل التقليدية.

لقد اعتبرت تجارة اسيا الداخلية، كما ذكر، احتكارا ملكيا. ولكن البرتغاليين فشلوا فشلا ذريعا فى زحزحة التجار الاسيويين والسفن الاسيوية من الميدان، على الرغم من وسائل العنف والقسر التى استخدموها خاصة فى بداية عهدهم. والواقع ان التجارة الاسيوية كانت اكبر بكثير من طاقاتهم وامكانياتهم. فهذه التجارة قديمة العهد قدم التاريخ المكتوب نفسه، راسخة القدم شامخة البناء، ويعتقد فان لر ان عدد السفن البرتغالية العاملة فى سواحل الهند لم يتجاوز فى اية فترة من الفترات سدس السفن الاسيوية العاملة فى تلك السواحل.(٥٤)

ودعنا نرى الان كيف نفذ الاحتكار الملكي لهذه التجارة. كان، من الناحية النظرية، للسفن الملكية الافضلية فى شراء السلع الشرقية من الموانىء الاسيوية، ولا يقدم التجار الاخرون على شراء تلك السلع الا بعد ان تأخذ تلك السفن كفايتها. ومن الناحية العملية لم تسر العملية بهذه السهولة وبهذا اليسر. فقد اصطدم الامر هنا مرة اخرى بتفسخ وفساد السلطات البرتغالية. فقد لجأ المسئولون البرتغاليون الى مختلف الوسائل للاستفادة من هذه التجارة على حساب المصلحة الملكية. فبحجة عدم توفر السفن الملكية عمد اولئك المسئولون فى كوا وفى غيرها من الموانىء البرتغالية الى الاستحواذ على تلك السفن دون ان يظهروا انفسهم بشكل علنى ومباشر بمثل هذه العملية. فقاموا بمنح رخص الشراء الى الاقرباء والاصدقاء، بل وبيعها الى التجار الاسيويين. والواقع ان هذه الممارسات اجهضت الاحتكار الملكي للتجارة. وعلى سبيل المثال منح احد المسئولين البرتغاليين الكبار فى ١٥٤٢ اربعين رخصة لاقربائه مرة واحدة.

ولم يكتف الموظفون الملكيون البرتغاليون بالاستفادة من الاحتكار الملكي بالطرق الانفة الذكر، بل انهم استغلوا السفن الملكية العاملة فى التجارة الى ابعد حدود الاستغلال. وهناك امثلة لا حصر لها فى هذا المجال. ففى إحدى الرحلات التى كانت تقوم بها سفينتان ملكيتان بين الموانىء الاسيوية وكانتا

تحت قيادة مسئول برتغالي كبير شحنت احداهما بأكثر من طاقتها بسلع الموظفين البرتغاليين الامر الذى ادى الى غرقها ووصلت الاخرى سالمة ولكنها لم تكن تحمل سوى بضائع ذلك المسئول.(٥٥) وفى رحلة من البنغال الى الملبار فى عام ١٥٣٠ حملت احدى السفن الملكية ما قيمته ١٢٠٠٠ ريال من البضائع العائدة لربان السفينة ولم تكن تحمل للحساب الملكي سوى ما قيمته ٤٠٠ ريال. (٥٦) والحقيقة ان الفساد والاستغلال الذى مارسه المسئولون البرتغاليون فى التجارة الاسيوية فاق ذلك الذى مارسه اولئك المسئولون فى مجال التجارة الاوروبية ـ الاسيوية. والنتيجة لكل تلك الممارسات واحدة وهي التدنى الكبير فى الدخل الملكي. واذا اخذنا بعين الاعتبار الضغوط المالية الهائلة التى كانت تعانيها الامبراطورية البرتغالية فى آسيا بسبب تفسخ وفساد الاجهزة الادارية فيها من ناحية والحاجة للحفاظ على الممتلكات والقلاع والمواقع والسفن فى الشرق من ناحية اخرى امكننا تصور الازمة المالية التى كانت تأخذ بخناق البرتغاليين.

والى جانب تلك الضغوط الداخلية، فقد عانى البرتغاليون من ضغوط خارجية كبيرة طيلة القرن السادس عشر. فالصراع مع العثمانيين فى الخليج العربى والبحر الاحمر والمحيط الهندى استنفد كثيرا من طاقاتهم. وصراعهم مع الايرانيين خاصة فى اواخر القرن المذكور وأوائل القرن الذى تلاه كان هو الاخر عنيفا ومكلفا. والشىء نفسه يقال عن نزاعاتهم مع القوى المحلية فى الهند وفى ارخبيل الملايو. ولعل اشد الضربات التى تعرض لها البرتغاليون خاصة فى مجال التجارة جاءت من نمو واتساع دور التجار والسفن الاسيوية على حساب التجارة البرتغالية. بل ونجاح الاسيويين فى كسر وتحطيم الاحتكار البرتغالى واختراقهم الحصار الذى فرضه البرتغاليون على بعض مناطق الشرق وخاصة البحر الاحمر. ونجاح الاسيويين فى هذا المجال لم يؤثر فى وضع البرتغاليين فى ميدان التجارة الاسيوية الداخلية، بل اتسع ليشمل التجارة الاوروبية ـ الاسيوية نفسها وقد صاحب هذا التطور تطور اخر يفوقه فى الاهمية وهو انتعاش طرق القوافل التقليدية عبر الشرق الادنى على حساب طريق رأس الرجاء الصالح الذى بقى طيلة القرن السادس عشر محتكرا من قبل البرتغاليين.

ولعل اكثر التحديات خطورة بالنسبة للتجارة البرتغالية والاحتكار البرتغالي، جاءت من نمو قوة كل من سلطنة «اجه Acheh» فى شمال سومطرة، وولاية كوجرات الهندية المهمة. وبقى دور هاتين القوتين فى تحطيم الهيمنة البحرية البرتغالية على المياه الشرقية مجهولا تقريبا، الى ان قام بالكشف عنه بعض المؤرخين (٥٧)، وفى مقدمتهم س. أر. بوكسر. والى حد اقل السيدة ملنك رولوفز.

ويعتقد بوكسر ان سلطنة آجه وولاية كوجرات بدأتا منذ الثلاثينات من القرن السادس عشر فى كسر طوق الحصار البرتغالي وحمل الفلفل والتوابل الى البحر

الاحمر بل انه يذهب الى حد القول انهما بدأتا قبل ذلك. [٥٨] وفى عام ١٥٤٦ عبر ملك البرتغال عن قلقه الى نائبه فى كوا من الانباء المتواترة حول انتعاش تجارة آجه مع البحر الاحمر. وخلال الخمسينات والستينات اتخذت تجارة اجه وكوجرات شكلا اوسع مع البحر الاحمر مما دفع البرتغاليين الى ارسال اساطيل لاعتراض سفن أجه وكوجرات ودارت معارك شديدة قرب سواحل حضرموت ولكنها لم تكن حاسمة. ولم يستطع البرتغاليون وضع حد لتدفق التوابل الى البحر الاحمر.

ومصادر التجار البنادقة المقيمين فى القاهرة اشارت فى عام ١٥٦٥ الى وصول ثلاث سفن من آجه وذكرت ان هناك اثنتين أخريين متوقع وصولهما قريبا ايضا بالاضافة الى ذلك فقد وصلت الى جدة خمس سفن من سومطرة وعشرون سفينة اخرى من مختلف موانىء الهند. وفى العام التالى اى ١٥٦٦، وصلت سفن اخرى الى جدة من آجه وبلغ مقدار ما حملته كل تلك السفن ٢٤٠٠٠ «كانترا Cantera من الفلفل. [٥٩]

ونتيجة لفشل البرتغاليين المتكرر فى اعتراض السفن الاسيوية القادمة الى البحر الاحمر والى التكاليف الباهظة التى كانت تتكلفها الاساطيل التى يرسلونها لايقاف تلك التجارة الاسيوية فقد عدلوا منذ ١٥٦٩ عن ارسال مثل تلك الاساطيل وقبلوا على مضض بالامر الواقع.

وعندما دارت اشاعات فى كوا فى عام ١٥٨٦ حول عزم البرتغاليين على ارسال اسطول قوى للبحر الاحمر لوضع حد لتجارة التوابل هناك علق كثير من الناس ساخرين «ان الفشل سيكون مصير مثل هذا الاسطول المزمع ارساله الى البحر الاحمر. تماما كما كان الفشل مصير جميع الاساطيل التى ارسلها العثمانيون الى المحيط الهندى» [٦٠]

وكتب فرنسيسكو دى سلفيرا، احد القادة البرتغاليين فى مذكراته فى عام ١٥٨٠ «مرت سنوات طويلة منذ ان كان هناك اى من اساطيلنا قد ابحر الى البحر الاحمر. ولذا لم تعد لدينا معرفة بأحوال ذلك البحر. فنحن نجهل الرياح السائدة فيه والموانىء المهمة، ولا نعرف أماكن الارساء ولا مواطن المياه الصالحة للشرب. [٦١]

وصحب نجاح أجه فى اختراق الحصار البرتغالى للبحر الاحمر زيادة ضغطها على ملقا، ذلك الميناء الحيوي الهام للامبراطورية البرتغالية والتجارة البرتغالية فى الشرق كله. وازداد ضغط اجه على ملقا خاصة فى عهد سلطانها «رايات شاه القهار» الذى قيل عنه «لم يكن يتقلب على جانبيه في فراشه دون ان يفكر بالوسائل التى تمكنه من الاستيلاء على ملقا وتدميرها».

وفى فترة الثمانينات والتسعينات من القرن السادس عشر، وبعد ان عجز البرتغاليون تماما فى حصارهم للبحر الاحمر، تحولوا الى محاولة غزو أجه نفسها واحتلالها. وقد رأى المسئولون فى لزبن وكوا وملقا ان هذا هو السبيل الوحيد لحماية التجارة البرتغالية، بل

الامبراطورية البرتغالية. ولكن كل مشاريع غزو اجه لم يحمل محمل الجد والسبب فى ذلك هو عجز البرتغاليين فى توفير السفن والرجال والمال. وقد اعترف احد البرتغاليين المعاصرين بهذه الحقيقة عند تعقيبه على نشاط التجار الاسيويين فى ارخبيل الملايو «لا نستطيع منعهم من ممارسة التجارة، طالما اننا لا نملك الاسطول القوى القادر على تحقيق ذلك.»(٦٢)

وفى عام ١٥٩٦ كتب الملك الى نائبه فى كوا قائلا انه اذا كان لابد من صلح مع آجه فيجب ان يعطينا ذلك الصلح فرصة لتوجيه الهجوم الحاسم. وبعد سنين غير الملك لهجته هذه ونصح بضرورة الاحتفاظ بصداقة حذرة مع آجه.(٦٣)

وكانت كميات الفلفل المصدرة من آجة فى اواخر القرن السادس عشر كبيرة جدا. وقد قدرت كمية تلك الصادرات فى احد التقارير البرتغالية بخمسة عشر آلف بار.(٦٤) ولا يذكر هذا التقرير الكمية التى ذهبت بشكل خاص الى البحر الاحمر وتلك التى ذهبت الى الاسواق الاخرى مثل الصين والهند. ومن حسن الحظ ان هناك تقريرا برتغاليا آخر قدر الكمية المرسلة من الفلفل والتوابل الاخرى والتى وصلت الى جدة من آجه وكوجرات ٤٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ كونتال.(٦٥) وبصرف النظر عن صحة هذه الارقام او عدم صحتها، فان هناك امرا مؤكدا وهو ان كميات التوابل والفلفل التى جاءت الى اوروبا عن طريق البحر الاحمر والتى نقلتها سفن آجة وكوجرات تفوق كثيرا جدا تلك التى نقلها البرتغاليون الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

واذا استعرضنا السلع الرئيسية فى التجارة الاوروبية ـ الاسيوية خلال القرن السادس عشر نجد انها تتضمن التوابل النفيسة والحرير والفلفل. والتوابل النفيسة هى اربعة: القرنفل وجوز الطيب، وقشرة جوز الطيب، والقرفة او الدارسين وتنتج الثلاثة الاولى منها فى جزر صغيرة ومتناثرة فى ارخبيل الملايو. اما الرابع فينتج فى سيلان. وايران هى المصدر الرئيسي للحرير المصدر الى اوروبا، ان لم تكن المصدر الوحيد لذلك. ولا توجد ادلة تشير الى وصول كميات من الحرير الى اوروبا من الصين او من البنغال، وهما البلدان الاخران الرئيسيان المنتجان للحرير فى آسيا. وينتج الفلفل بكميات كبيرة فى جزر ارخبيل الملايو الكبرى: جاوة وسومطرة وفى ساحل الملبار.

وتناقصت كميات التوابل النفيسة التى حملها البرتغاليون الى اوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. وعلى سبيل المثال قدرت حصة البرتغاليين من تجارة القرنفل وهو اهم التوابل النفيسة ب ١٥٪ فقط فى اواخر القرن المذكور.(٦٦)

اما بالنسبة الى الحرير، فلم تمثل هذه السلعة مطلقا طيلة القرن السادس عشر جزءا مهما بالنسبة للتجارة البرتغالية. اذ كان الحرير الايرانى يصل الى اوروبا عبر الطرق التقليدية المألوفة. فهو ينتقل من ايران عبر العراق والاناضول ليصل الى

الهوامش

(١) التاريخ العام للوجود البرتغالى فى آسيا انظر بشكل خاص:
C.R.Boxer, From Lisbon to Goa 1500-1750, London: 1984, Fred; C.Danvers, The Portugeuse in India, 2 Vols. London: 1894; R.S. Whiteway, The Rise of Portuguese Power in India, Westminster:1899.

2. K.G.Jayne, Vasco Da Gama and His Successors 1460-1580, London: 1970.
3. G.Masselman, The Cradle of Colonialism, London: 1963, PP. 223-24.
4. Van Leur, Indonesian Trade and Society, The Hague, 1955, PP. 162-65.
5. C.G.F.Simkin, Traditional Trade of Asia, London: 1968.P.182.
6. Boxer, Op.cit.,P.50.
7. W.H.Moreland,A Short History of India, London: 1956.P.203.
8. J.H.Parry, Europe and A Wider World, 1415-1715; London: 1905,P.94.
9. Simkin, Op.cit., PP.189-191.
10. Ibid.
11. Sir W.W.Hunter, A Brief History of the Indian Peoples, Oxford: 1907,P. 165.

(١٢) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد القاهرة: ص ٢٥.

(١٣) نفس المصدر

14. Jayne, Op.Cit., P.62.
15. Ibid. P. 65.
16. Ibib., 62.

والحقيقة انه يشير هنا الى الهندوس الذين ظنهم مسيحيين.

17. Parry. Op. cit., 96.
18. Ibid.
19. Ibid.
20. Ibid.
21. Ibid.
22. Ibid.
23. Ibid.
24. A.Wilson, The Persian Gulf, London: 1959. PP. 110-128.
25. Ibid. 112-15.
26. Jayne, Op. Cit., P. 65.
لمزيد من المعلومات حول هذه القسوة والوحشية التى مارسها البرتغاليون انظر:
Sir W.W. Hunter, History of British India, 2 Vols. London: 1912-19. Vol. 1, P. 109; B.Schrieke, Indonesian Socialogical Studies, 2 Vols. The Hague, 1955-57, Vol. 1, P. 47.
27. Masselman, Op. Cit., P. 218.
28. Parry, Op. Cit., P. 96.
29. Ibid.
30. Ibid.

(٣١) للاطلاع على الاوضاع السياسية فى شبة القارة الهندية خلال القرن السادس عشر وعلاقة القوى المختلفة بعضها ببعض ومواقف البرتغاليين منها انظر:
H.H. Dadwell (ed.) The Cambridge History of India, Cambridge: 1929; Hunter, A Brief History of The Indian Peoples, R.C. Majumdar and others, An Advanced History of India, London: 1956.

(٣٢) استعمل فى ثنايا هذا البحث اصطلاحان هما التجارة الاوروبية ـ الاسيوية والمقصود به التجارة بين هاتين القارتين. والاصطلاح الآخر التجارة الاسيوية او تجارة أسيا الداخلية والمقصود به التجارة بين الموانىء الاسيوية بعضها ببعض والتى أخذت تعرف خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باصطلاح خاص هو «Country Trade» وقد عمد الباحث فى بحوثه الاخرى الى وضع تعبير عربى هو «تجارة الموانىء الاسيوية» للدلالة على الاصطلاح الانجليزى الآنف الذكر.

33. Van Leur,Op.Cit. 118.
34. Ibid

35. Neils Steensgaard, The Asian Trade Revolution of The Seventeenth Century, London: 1974. P. 84.
36. Ibid.
37. Jayne, Op. Cit. 65.
38. Steensgaard, Op. Cit. 84.
39. F.C. Lane, Venice in History, Baltimore: 1966. PP. 376-77.
40. Masselman, Op. Cit, 220.
41. Ibid. 221.

(٤٢) للاطلاع على المزيد عن تفسخ وفساد البرتغاليين في الشرق انظر:
Hunter, History of British India, Vol. 1, PP. 176-78: Meilink - Roelofez, Asian Trade and European Influence In The Indonesian Archipelago between 1500 and about 1630, Hague: 1962, PP. 125-28.

43. Steensgaard, Op. Cit., 82-83.
44. Ibid. 85.
45. J.N.da Fonseco, Historical and Archaeological sketch of the city of Goa, Bombay: 1878, P. 24.
والريال وحدة النقد البرتغالية الرئيسية وهو من الفضة وفي اوائل القرن السادس عشر كان الريال يعادل مارك فضي بزنة ٥ , ٢٢٩ غرام.
46. W.H. Moreland, From Akbar to Aurangzeb, London: 1923, P.B.
47. Masselman, Op. Cit., P. 220
48. Ibid.
49. C.R. Boxer, From Lisbon to Goa 1500-1750, P. 53.
50. Ibid.
51. Ibid.

(٥٢) من هؤلاء، و. هـ. مورلاند.W.H. Moreland من كتابه القيم India at the Death of Akbar London: 1920.P. 218-22.

53. Tome Pires, Suma Oriental, London: 1944, P. 42.
54. Van Leur, Op.cit., P.
55. Masselman, Op.cit., 218-222
56. Ibid.
57. C.R.Boxer, Portuguese Conquest and Commerce in Sowthern Asia, London: 1985, PP. 415-428; Meilink-Roelofez, Op.Cit.,134-135.
58. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce PP. 415-422.
59. Ibid.

الكانترا Cantra وحدة للوزن تستعمل للتوابل عادة في الاسكندرية

وهي تعادل الكونتال Quintal وهذه وحدة الوزن البرتغالية الرئيسية وتعادل ١١٢ ليبرة انجليزية.

60. Ibid.

61. Ibid.

قارن هذه المعلومات التي اوردها بوكسر والنتائج التي توصل اليها بتلك التي اوردها البروفسور ستينزكارد والتي يقول فيها «اننا متاكدون من ان البرتغاليين قد احتفظوا بسيطرتهم الفعلية على البحر الاحمر حتى مفتتح القرن السابع عشر» ولكن الامر كان يقتصر على السيطرة لا الحصار» ويتضح مما ذكره بوكسر ان راى ستينز كارد ليس له اساس من الصحة.

Steensgaard, Op. Cit., P. 91.

62. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce, PP. 415-422.

63. Ibid.

(٦٤) والبار وحدة للوزن تساوى ٣½ كونتال.

65. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce PP. 415-422.

66. Van Luer, Op.Cit., 162-165.

67. Lone, Op. Cit., P. 170.

68. Steensgaard, Op. Cit., 163-69.

69. Ibid.

70. Ibid.

71. C.R.Boxer, From Lisbon to Goa, 1500-1750, PP. 33-82.

72. Ibid.

73. H.Furber, Rival Empires of Trade, Oxford University Press: 1976. PP. 26-27.

74. J.H.Parry, Trade and Dominion, New Vork: 1971, P. 95.

75. Ibid

76. Boxer, Portuguese Conquest and Commerce, P. 428.

77. Boxer, From Lisbon to Goa, 1500-1750, PP. 49-50

78. Ibid. 50.

79. Tome Pires, Op. Cit., PP. 52-54.

80. Quoted in Simkin, Op. Cit., 189.

81. Meilink-Roelofez, Op. Cit., P. 190.

82. Ibid. 172.

83. Ibid. 172.

84. Quoted in D.G.F.Hall, History of South East Asia, London: 1964. P. 225.

85. Simkin, Op. Cit. PP. 190-91.

86. See:J.G.Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia Vol. 1, Part. 1. S.B.Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf. 2 Vols. London: 1919.

★★★★★

المراجع

المراجع العربية:

- بانيكار، ك.م. آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، القاهرة.

المراجع الاجنبية:

— Boxer, C.R.Portuguese Society in the Tropics, Madisson and Milwoukee: 1965.

— The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825, London: 1969.

— From Lisbon to Goa 1500-1750, London: 1984.

— Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia 1500-1750, London: 1985.

— Danvers, F.C. The Portuguese in India, 2 Vols. London: 1894.

— Report on the India Office Records Relating to Persia and the Persian Gulf, London: 1900.

— Dutt,R.C. The Economic History of India London: 1882.

— Furber, H.Rival Empires of Trade in The Orient 1600-1800,Oxford: 1976.

— Hunter, Sir W.W.A Brief History of Indian Peoples, Oxford: 1907.
— Hunter, H.H.History of British India, 2 Vols. London: 1912-1919.
— Jayne, K.G.Vasco Da Gama and His Successors 1460-1580, London: 1970.
— Lane, Frederick C., Venice and History, Baltimore: 1966.
— Lorimer, J.G.Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, Calcutta: 1908.
— Masselman, George, The Cradle of Colonialism, London: 1963.
— Meilink, Roelofez, Asian Trade and European Influence in the Indonesian Archipelago, between 1500 and about 1630, Hague: 1962.
— Miles, S.B.Countries and Tribes of The Persian Gulf, 2 Vols. London: 1919.
— Moreland, W.H. India At the Death of Akbar, London: 1920.
— From Akbar to Aurangzib, London: 1923.
— A Short History of India, London: 1962.
— Parry, J.H. Europe and Wider World, 1415-1715, London: 1965.
— Trade and Dominion, New York: 1971.
— Schrieke, B. Indonesian Sociological Studies, 2 Vols. The Hague 1955-57.
— Simkin, C.G.F., The Traditional Trade of Asia, London: 1968.
— Steensgaard, Niels, The Asian Trade Revolution of The Seventeenth Century, London: 1974.
— Van Leur, J.C. Indonesian Trade and Society, Haag-Bandung: 1955.
— Whiteway, R.S. The Rise of Portuguese in India, Westminster: 1899.
— Wilson, A. The Persian Gulf, London: 1928.
— Wood, A. A History of the Levant Company, London: 1935.
— Woodruff, William. Impact of Western Man, London: 1966.

★★★★★

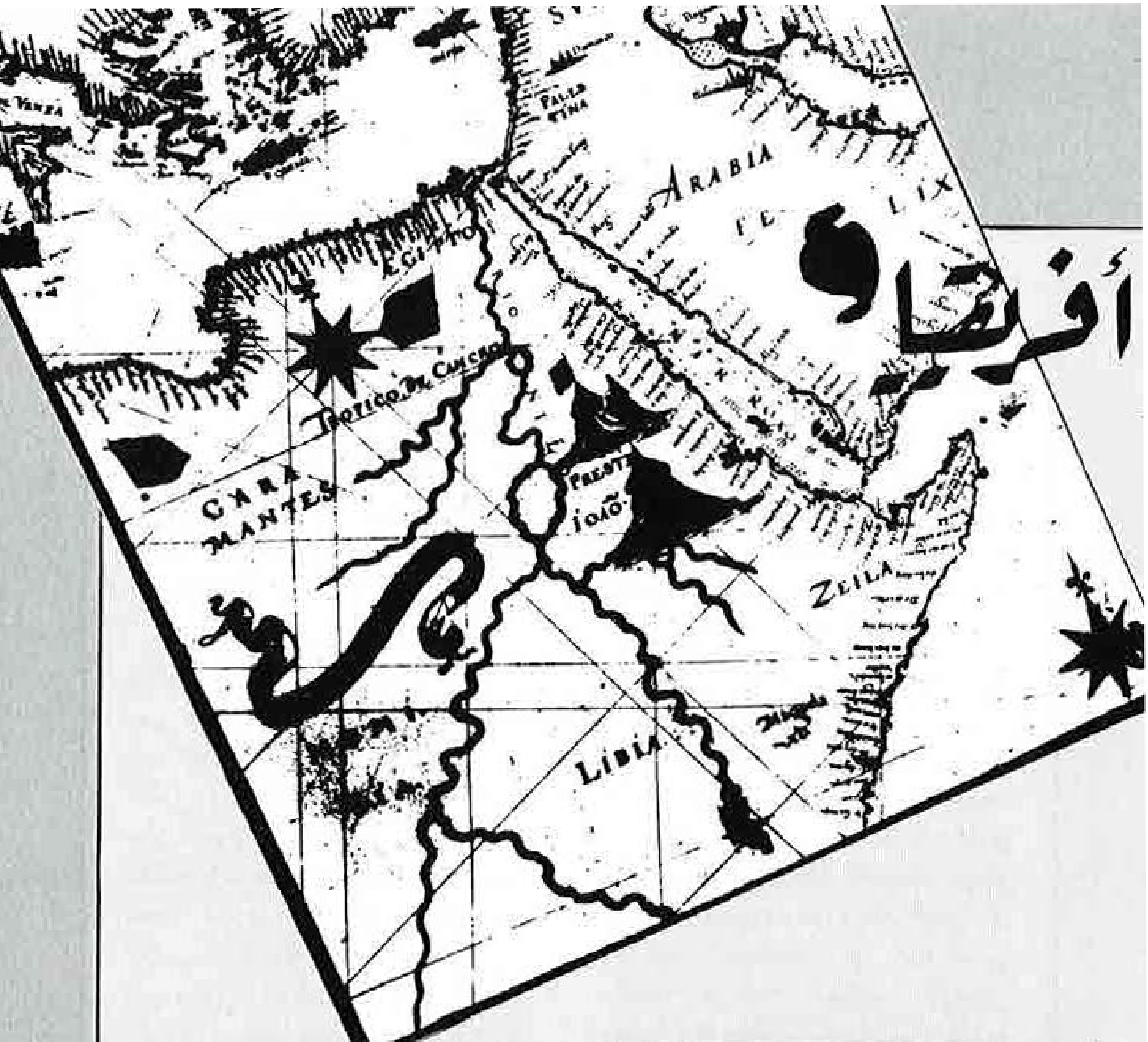
الإسلام والصليبيون في ساحل

الوحشية الصليبية ضد المسلمين

أدت إلى نشر الإسلام داخل القارة

المقصود بساحل شرقي افريقيا تلك المنطقة التي تحتل مساحة كبيرة تمتد بين خط عرض ٥ شمالا و ١٠ جنوبا اى انه يشغل حوالى ١٥ من درجات العرض. والمقصود بساحل شرقي افريقيا فى العصور الوسطى هو ارض الزنج الاسلامية الممتدة من مقديشيو شمالا حتى سوفالا (روديسيا) جنوبا [١] يضاف اليها الحبشة المسيحية ودول الطراز الاسلامى فى منطقة القرن الافريقي، وهى المنطقة التى دخلها الاسلام منذ ان هاجر اليها جعفر بن ابى طالب [٢] وظلت منطقة ساحل شرقي افريقية اسلامية خالصة حتى مجيء البرتغاليين عام ١٤٩٧ م بقيادة فاسكو داجاما .

ونضال المسلمين فى ساحل شرقى افريقيا والحبشة ضد تقدم البرتغاليين واعمالهم الوحشية ضد المسلمين هو الذى نعنيه بالحروب الصليبية لان البرتغاليين نقلوا معهم الى هذه الجهات كل فظائع الصليبيين التى مارسوها ضد المسلمين فى الشرق الاوسط حول بيت المقدس وغيرها من الامارات الاسلامية فى تلك الجهات حتى ليخيل الى الكثيرين ان مسرح الحروب الصليبية قد انتقل الى شرقى افريقية خاصة وقد دخلت هذا الميدان قوى اخرى جديدة تتمثل فى دولة المماليك فى مصر والشام ومن بعدها الدولة العثمانية التى بسطت سيطرتها على الشرق الادنى والاوسط واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع فى مدخل البحر الاحمر الجنوبى



أفريقيا

بقلم : الدكتور
السر سيد. احمد العراقى

وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى الحبشة وسواحل شرقى افريقية ونافسوا البرتغاليين فى المحيط الهندى (٣).

على هذا النحو أضحى النضال الاسلامى فى سواحل افريقيا وداخلها صدى للنضال العثمانى - البرتغالى او النضال الاوربى فى حوض البحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. وبعبارة اخرى فان نضال المسلمين فى سواحل افريقيا الشرقية والحبشة صورة من صور النضال القديم بين الشرق والغرب وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية (٤). وهو ايضا امتداد للصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الذى اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية. وهى تلك الحروب الاستعمارية التى شنتها اوروبا تحت

اسم الدين، ثم ذلك النضال الذى شمل المسلمين وجمع كلمتهم فى ذلك الوقت خلال القرن الحادى عشر الى نهاية القرن الثالث عشر. وتاريخ الاستعمار الاوربى لافريقيا منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها، ملىء بالمآسى، كما انه ملىء بالبطولات القومية الفذة، وهى التى خلدها التاريخ خلال مراحل الكفاح الوطنى .

والحروب الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح بين الشرق والغرب بل وهى اهم الفصول فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب. والصراع بين الشرق والغرب قديم ولايزال قائما حتى اليوم. وهو صراع بين مدنيتين مختلفتين وعقيدتين متباينتين وهو من ناحية اخرى دليل على رغبة بعض الناس فى التسلط على البعض الاخر. ومن صور الصراع بين الشرق والغرب ذلك الذى وقع بين الفرس والاغريق قديما. وامتد الى فجر العصور الوسطى، وهو اول مراحل هذا الكفاح. وكما توغل الاغريق فى قلب آسيا زمن الاسكندر الاكبر كذلك توغل الفرس فى قلب بلاد الاغريق ثم كانت حركة الفتوح الاسلامية الكبرى فى العصور الوسطى ووصول المسلمين الى قلب اوروبا.

ثم جاءت حركة الصليبيين فى العصور الوسطى بهدف ظاهرى هو الاستيلاء على ارض الميعاد، لان خطر استيلاء المسلمين على اوروبا ظل ماثلا فى اذهان الاوروبيين. ولذا فالحرب الصليبية من هذه الناحية رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق وبهذا تكون الحروب الصليبية قد حمت اوروبا من توغل المسلمين فترة طويلة اتاحت الفرصة للغرب ان يقوى نفسه وان ينمى مدنيته الى ان نهض الاسلام مرة أخرى من جديد فى العصور الحديثة من ناحية الضغط على اوروبا على ايدى العثمانيين .

وتعتبر الحروب الصليبية ذروة الاحياء الدينى الذى بدأ فى اوروبا اثناء القرن العاشر، وارتفع شأنه خلال القرن الحادى عشر نتيجة لحركة البعث الدينى والاصلاح الذى نهضت به الحركات الديرية. ونظر بعض الاوروبيين من رجال الدين الى الحروب الصليبية على انها حرب مقدسة ووسيلة للخلاص الروحى وغفران الخطايا وانها الطريق المؤدى لنيل السعادة الابدية. واعتبر الحج الى الاراضى المقدسة من اهم الوسائل للتوبة وهو من اعمال التكفير عن الذنوب مثل الصيام والايذاء البدنى .

ومن صور الحروب الصليبية كذلك ما قام فى غرب اوروبا ضد مسلمى الاندلس سواء اكان من ناحية الفرنجة ام من ناحية مسيحيى اسبانيا وكذلك الكفاح الذى قام به النورمان وغيرهم ضد المسلمين فى صقلية وفى جنوب ايطاليا. وقد وعد البابا خلال هذا الصراع ان من يموت

دفاعا عن الصليب سوف يظفر بالخلاص الروحى. وقد بارك البابوات هذا العمل مما كان له أثره الكبير فى استعادة صقلية من ايدى المسلمين وشجع هذا التوفيق على ارتياد منطقة الشرق الاوسط وسواحل افريقية، لأن البابا كان قد اصدر قرارا بابويا عام ١٤٥٦ يقضى بتقسيم الاملاك بين البرتغاليين والأسبان.

ومن صور الحرب الصليبية فى اوائل العصر الحديث حروب الدول الاوروبية مع العثمانيين والتى اخذت صورة دينية ولا سيما حين تكون حلف مسيحى فى جنوب شرقى اوروبا لمقاومة الزحف العثمانى. وفى اقصى المشرق بجزائر الفلبين كان للمسلمين سلطنة كبرى هى سلطنة بورنيو التى اشتد عليها الصراع بين المسلمين والاسبان فى اوائل القرن السادس عشر وربما كان المستعمرون الاسبان مدفوعين بالحقد على المسلمين الذين كانوا قد استولوا على بلادهم (الاندلس) من قبل. ونظر المسلمون فى جزائر الفلبين الى الحرب ضد الاسبان على انها جهاد فى سبيل الله، وقد دوخوا الاسبان حتى اعترفوا باستقلالهم وذلك فى اوائل القرن التاسع عشر.

والحروب الصليبية التى امتدت نحو قرنين كانت من بعض الاحداث الكبرى التى واجهت المجتمع الاسلامى وكانت أضخم الاحداث بما كان من وقائعها وحروبها وبما كان من اثارها ونتائجها. وسميت هذه الحروب التى خاضتها اوروبا المسيحية ضد المسلمين فى الشرق الاوسط وافريقيا وغيرها من بلاد العالم الاسلامى حروبا صليبية لانها حروب شنتها اوروبا باسم الدين. وفى كل حروب اوروبا ضد المسلمين فى كل مكان حمل الاوروبيون الصليب على صدورهم ونقشوه على اسلحتهم وعلى رؤوس أعلامهم.

اهداف الكشف البرتغالى :

كانت الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع الكشف العام للبرتغاليين الذى وضعه هنرى الملاح ابن ملك البرتغال وبدأه بانشاء معهد بحرى فى مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩ وكما ذكر طرخان فقد اوقف هنرى الملاح حياته وجهوده لتنفيذ المشروع العام لحركة الكشف الجغرافى وكان يرمى من وراء هذا المشروع الى هدفين : (٥).

اولهما : تعقب المسلمين فى شمال افريقيا ونقل الحروب الصليبية الى بلادهم والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ان اصول هذا التكوين لم تكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها فى الشرق الاوسط وفى اسبانيا الاسلامية فى وقت معا خلال القرن الثانى عشر. فيذكر عن البرتغاليين انهم انتهزوا

فرصة مرور حملة صليبية متوجهة الى الشرق لتنضم الى جموع الحملة الصليبية الثانية التى اعدتها اوروبا على اثر سقوط امارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤. والمعروف ان امارة الرها هى اول امارة اسلامية يستولى عليها الصليبيون وهى اول امارة كذلك يستعيدها المسلمون عام ١١٤٤. وقد اغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبى المار ببلادهم بأن البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولا داعى للرحلة الطويلة الشاقة الى الشرق. وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين والفرزيين والفلاندرز والسكندنافيين والالمان والانجليز وقد وافق البعض وتردد البعض الاخر واخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال فى حروبها ضد المسلمين فى بلادهم واستطاعوا انتزاع مدينة الاشبونة (لشبونة) الاسلامية بعد حصار دام أربعة أشهر عام ١١٤٧ وذبحوا حاميتها الاسلامية بعد ان امنوها وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين الى الشرق ولكن اغلبهم بقى فى البرتغال والى هذا الحادث يرجع التحالف الطويل الامد بين البرتغال والانجليز. اذن الفكرة الصليبية واضحة فى مشروع هنرى الملاح للكشف والاستعمار.

الهدف الثانى : الوصول الى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل الى الطريق البحرى والى موانىء المحيط الاطلسى بدلا من موانىء البحر المتوسط على ان هنرى اعلن بعد ذلك انه يريد فتح طريق بحرى الى الهند واماطة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا وتحويل الوثنيين الى المسيحية ومملكة القديس يوحنا هى احدى الممالك المسيحية التى تحدثت عنها اقاصيص الرحالة فى العصور الوسطى، ولكن لم تحدد هذه الاقاصيص موقع المملكة تحديدا واضحا، ولكن فهم أنها تقع فى مكان ما وسط القارة الافريقية ولما لم يعثر البرتغاليون على طول الساحل الغربى لافريقيا على اثر لتلك المملكة فقد رجحوا ان تكون فى الجانب الشرقى للقارة وربما كانوا يعنون بتلك المملكة دولة الحبشة المسيحية. معنى ذلك ان منطقة افريقيا الشرقية المواجهة للمحيط الهندى كانت تحقق كذلك جميع الاهداف بالنسبة للبرتغاليين. فالامارات التى تنتشر على ساحل افريقيا الشرقى امارات اسلامية، وتخضع لحكومة اسلامية مركزية فى كلوة عاصمة امبراطورية الزنج الاسلامية التى تمتد من مقديشيو شمالا الى سوفالا جنوبا يضاف اليها الممالك الاسلامية الموجودة فى منطقة القرن الافريقى وتناصب الحبشة المسيحية العداء وهى ممالك سبع اشتهرت باسم دول الطراز الاسلامى هذا بجانب ان مناجم الذهب الموجودة فى روديسيا خلف هذه الامارات وقد

ظهر ان العرب يستفيدون من هذه المناجم ثم ان مملكة القديس يوحنا تقع قريبة منها [٦] .

ومن العوامل التى أدت الى نجاح هذا المشروع والاستمرار فيه الى نهايته صدور امر بابوى فى عام ١٤٥٦ يثبت حق البرتغاليين فى امتلاك الارض التى يكتشفونها ويقضى بتقسيم المكتشفات الجديدة بين اسبانيا والبرتغال ويجعل الملاحة ما بين غرب افريقيا حتى الهند احتكارا للبرتغاليين بينما يحتفظ الاسبان بالجزء الغربى من الكرة الارضية .

ويضاف الى تلك الاهداف ان اوروبا المسيحية لم تنس ما لحق بها من هزائم انتهت بطرد الصليبيين من العالم العربى. ومنذ ذلك الحين كانت تسعى حثيثا لايجاد طريق يمكنها من تطويق العالم الاسلامى من الجنوب والسيطرة على التجارة الشرقية مصدر رخاء الشرق وقوته. وكانت البرتغال بسبب قربها من مسرح الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى اسبانيا ووقوعها تحت تأثير تجارة جنوة أكثر الدول اهتماما بهذا الامر. وحاولت استغلال فكرة الدوران حول القارة الافريقية التى روج لها الجنويون. ومع ان التجارة الشرقية كانت سببا هاما فى القيام بهذه الرحلات الا ان المحرك الاساسى كان دينيا. بل ان بعض المؤرخين يصفون هذه الرحلات بانها موجة جديدة فى سلسلة الحروب الصليبية . وقد اجمل عمانويل الثانى ملك البرتغال (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) هذه الدوافع عند وصفه لاسباب رحلة فاسكودى جاما الاولى للهند بقوله : ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الهند .

احوال المسلمين عند دخول البرتغاليين السواحل الشرقية الافريقية :

منذ تأسيس سلطنة كلوة عام ٩٧٦ م على يد على بن حسن الشيرازى وحتى دخول البرتغاليين الساحل فى نهاية القرن الخامس عشر كانت لهذه السلطنة السيادة والنفوذ على معظم الامارات الساحلية. وخلال تلك الفترة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والذهب، ونمت ثروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقيا فى الحضارة. ولم تكن كلوة أقوى دول الساحل فقط بل انها كانت اوفرها حضارة وكانت حضارة ذات مظاهر عربية وفارسية. وقد ادخل الشيرازيون اساليبهم فى البناء وفى النقش على الخشب ونسج القطن. وشيدوا عدة مساجد ومبان جميلة ما زالت مخلفاتها باقية الى اليوم. وازدهرت الصناعة والزراعة. واشتهرت كلوة بالنهضة الادبية والعلمية [٧] .

إلا ان هناك عدة عوامل عجلت بسقوط هذه الامبراطورية العظيمة. وقد بدأ الافول السياسى لها منذ نهاية القرن الخامس عشر. ولم يكن هذا الافول نتيجة ظهور البرتغاليين فى شرق افريقيا فحسب، بل كانت هناك عملية تدهور مستمر لهذه الامارات منذ مطلع القرن الخامس عشر تقريبا، ومن اهم العوامل التى اضعفت هذه الامارات تنازعها فيما بينها على السيادة والنفوذ وذلك بجانب الانقسام الداخلى فى حكومة كلوة المركزية فقد اشتد بحيث اصبح سلاطين كلوة الاواخر مسلوبى السلطة والنفوذ وهذا بجانب ضعف الروح العسكرية وتفكك القوات. لذلك كانت أحوال العرش فى كلوة عند ظهور البرتغاليين فى شرق افريقيا فى حالة يرثى لها. فالثابت ان عرش كلوة قد اصابه التصدع والانهيار عقب وفاة السلطان ابى المواهب (١٣٠٨ - ١٣٣٤) الذى يعتبر من اعظم سلاطين امبراطورية الزنج نفوذا وقوة. وقد زار بلاطه الرحالة المعروف ابن بطوطة عام ١٣٣٢ م وشهد بأن عصره يمثل العصر الذهبى لسلطنة الزنج الاسلامية [٨]. وبوفاة هذا السلطان العظيم بدأ يخيم الظلام ويعم التدهور والانحلال فى جسم الامبراطورية اذ حكم فى كلوة سلاطين ضعاف ساعدوا بضعفهم على انهيار هذه الامبراطورية العظيمة. وكانت السلطة الفعلية فى البلاد تحت ايدى الوزراء والامراء الذين كانوا اكثر ثراء ونفوذا واستطاعوا بنفوذهم وقبضهم على ناصية الامور إقصاء السلاطين واستبدال آخرين بهم. ومحمد كيواب هو اشهر هؤلاء الوزراء نفوذا واستبدادا. وهذا يشبه الى حد كبير حجاب القصور فى اواخر الدولة الميروفنجية، ومن نوع صناع الملوك الذين ظهروا فى القرن الخامس الميلادى فى الشطر الغربى من الامبراطورية الرومانية. لذلك عندما وصل البرتغاليون الى ساحل افريقيا الشرقى لم يجدوا سوى بلاط ممزق وقوة عسكرية ضعيفة فضلا عن عدم اتحاد الامارات ووقوفها قوة واحدة. ولعل للعامل الجغرافى اثره فى ان امبراطورية كلوة هذه لم تكن امبراطورية موحدة من نوع الامبراطوريات القديمة او الامبراطورية الاسلامية، وانما كانت امبراطورية من نوع امبراطوريات العصور الوسطى الغربية وابرز هذه الامبراطوريات شبها بها الامبراطورية الانجوقية فى القرن الثامن عشر، التى كانت املاكها موزعة بين القارة الاوربية فى فرنسا وبين الجزر البريطانية المنعزلة عن قارة اوروبا. اى انها لم تكن امبراطورية بالمعنى الصحيح [٩]. وهذا ما يسر مهمة البرتغاليين فى القضاء على عناصرها المتمثلة فى الامارات كل امارة على حدة، دون ان تنهض الاخرى وتنضوى تحت لواء

السلطان الاكبر لمقابلة البرتغاليين قوة واحدة، حقيقة حدث ان تحالفت بعض الامارات معا ضد البرتغاليين، لكن بعد ان فات الاوان وبعد ان سيطر البرتغاليون على شرقي افريقيا، وشنوا حربا متصلة ضد مسلمي الساحل وقد بدأت فترة من الصراع العنيف بين البرتغاليين واهالى المدن الاسلامية الساحلية. فقد هاجم هؤلاء كلوة وممبسة وزنجبار وبدأوا اعمال القرصنة ضد مقديشيو وبراوة. وهكذا نرى ان البرتغاليين يشنون حروبا صليبية ضد المسلمين فى شرقى افريقيا ومن المدهش حقا ان من نتائج الحملة الوحشية ان انتشر الاسلام لأن المسلمين تركوا الساحل امام نيران المعتدين ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل فازداد انتشار الاسلام (١٠).

بدأ البرتغاليون فى ارسال اساطيل ضخمة الى المحيط الهندى. وفى الفترة ما بين ١٥٠٠ ـ ١٥٠٩ سيطروا على معظم ساحل شرقى افريقية وأسسوا عددا من المستعمرات. وقد نجحوا ليس فقط فى اخضاع امبراطورية الزنج بل اخضعوا البلاد التى حول الخليج بما فيها مدن هرمز ومسقط بالاضافة الى اجزاء من سيلان كما ضموا ملقا ومجموعة جزر الملايو وكثيرا من المناطق والمراكز المنتشرة حولها.

البرتغاليون وحركة الجهاد فى شرقى افريقيا:

وصل البرتغاليون الى مالندى (فى كينيا الان) وكان على رأسهم فاسكودى جاما وقد وجدوا ثغرة خطيرة فى مالندى وهى خيانة حاكمها الذى اراد ان يتخلص من تبعيته لسلطان كلوة فارتمى فى احضان الغزاة وقدم لهم جميع انواع المساعدة التى يحتاجون اليها، وكان حاكم مالندى يتمنى ان يجد فى فاسكودى جاما الحليف والصديق ضد امارة ممبسه الاسلامية اذ كانت مالندى فى صراع عنيف مع جارتها اللدود ممبسه منذ ان جعل علي بن حسن مؤسس امبراطورية الزنج مالندى امارة تابعة لممبسه وقد طلب داجاما من حاكم مالندى ان يساعده بمرشد ماهر فى الملاحة الى الهند فامده بالملاح العربى النجدى واسمه شهاب الدين احمد بن ماجد السعدى وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة خبيرة بفنون الملاحة. وامده حاكم مالندى كذلك ببعض الملاحين العرب والهنود. وفى خلال هذه الرحلة تأكد لداجاما اهمية ساحل شرقى افريقيا بالنسبة لامبراطورية البرتغال، واحتكار تجارة التوابل بين الشرق الاقصى واوروبا واحتكار ذهب شرقي افريقيا لان التجار فى الهند كانوا لا يبيعون الا بالذهب.

كانت ممبسه من اكثر الامارات الساحلية التى حاربت البرتغاليين لدرجة ان لقبوها باسم (جزيرة الحرب) لانها كانت شوكة فى ظهورهم وقاومتهم بكل بسالة وشجاعة من اجل المحافظة على تقاليدها وتراثها العربى الاسلامى. وخلال المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون على الساحل كانت ممبسه هى المصدر الرئيسى للثورات والعصيان على سيطرة البرتغاليين وسيادتهم على الساحل الا ان السلاح النارى كان العامل الحاسم فى المعارك وتغلب على الشجاعة والاسلحة البدائية وكان عامل قوة ممبسه وصمودها يكمن فى ازدهار تجارتها وامكانياتها المادية الهائلة. وقد اثبتت كل التقارير انه كان لدى ممبسه عند ظهور البرتغاليين على الساحل مخازن وكميات ضخمة من الذهب والفضة والعاج والاحجار الكريمة والاقمشة الهندية والفارسية وكميات وفيرة من الارز والعسل والدواجن بالاضافة الى قطعان الماشية والضأن وكانت تجارتها مزدهرة مع سوفالا وكل امارات ساحل شرقى افريقيا الاخرى، بالاضافة الى دول البحر الاحمر والخليج العربى والهند. [١١] .

نظم شيخ ممبسه المقاومة من العرب والافريقيين وانتظمت الجميع روح المقاومة التى امتدت الى زنجبار وبمبا وكلوة ومقديشيو التى اضطر البرتغاليون الى ضربها بالمدافع، وقاومت مقديشيو جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاخضاعها لانها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها لذا كانت مركزا للمقاومة وظلت تناصب البرتغاليين العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل [١٢] .

تمكن البرتغاليون من كسر شوكة المقاومة بفضل السلاح النارى الذى يمتلكونه. وعندما خلا الميدان لهم انتزعوا التجارة البحرية من العرب وتفرغوا لتنظيم شئونهم فى الساحل الشرقى الافريقى وقرروا منذ البداية الاكتفاء بالاستيلاء على المنافذ البحرية كشرط ضرورى لضمان التفوق البحرى. وقسم البرتغاليون الامبراطورية الى أربع مجموعات من المحطات البحرية لكل منها حاكم يعينه نائب الملك فى الهند الذى اتخذ مقره فى جوا بالهند، وهذه المجموعات هى ساحل شرقى افريقيا. وهرمز وتوابعها على ساحل العرب. وجزيرة سيلان. وملقا. وفيما يختص بشرقى افريقيا، فقد ارتكز البرتغاليون على القسم الجنوبى من الممتلكات العربية الاسلامية بسبب اعتدال المناخ وقرب مناطق الجنوب من مناجم الذهب الداخلية. وفيما يتعلق بالمناطق الشمالية اكتفوا بالاعتماد على محالفة حكام مالندى الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين معونة عسكرية [١٣] .

أبدت اليمن ومصر اهتماما شديدا بالغزو البرتغالي ولكن امكانياتهما البحرية كانت ضئيلة فالدولتان لا تملكان اسطولا حربيا يقوى على مواجهة الخطر البرتغالي. وفي عام ١٥٠٧ غامر السلطان عامر بن عبدالوهاب الذي كان مشغولا ببعض الفتن الداخلية بحملة واحدة مكونة من اربع عشرة سفينة وستمائة مقاتل بعضهم من الطلاب المتطوعين ضد البرتغاليين في الهند ولم يعرف شيء عن مصير تلك الحملة. ومن قبلهم سعى المماليك لمواجهة البرتغاليين لفك الحصار الذي فرضوه على السفن والتجارة العربية في المحيط الهندي وتلبية لاستنجاد ملك اليمن بهم (١٤) وكانت خطتهم تقوم على تقوية الحكم المملوكي في البحر الاحمر وسواحله بما في ذلك ميناء جده وبخاصة بعد ان اعلن البرتغاليون عزمهم على مهاجمة الحرمين الشريفين وتخريبهما وفي سنة ١٥٠٥ بعث السلطان قنصوه الغوري باسطول حربي بقيادة حسين الكردي فشيد تحصينات جيدة في ميناء جدة لرفع كفاءتها القتالية ثم استولى على سواكن وزار بعض الموانيء اليمنية ثم عدن ثم خرج لمواجهة البرتغاليين حيث اصطدم بهم امام ديو وتمكن بمعاونة بعض الامارات الهندية من احراز نصر جزئي لم يدم طويلا اذ حلت الهزيمة به في فبراير سنة ١٥٠٩ فانسحب الى البحر الاحمر تاركا المحيط الهندي تحت سيطرة البرتغاليين الذين زادت جرأتهم (١٥).

ولما تكررت الاعتداءات البرتغالية على البحر الاحمر استنجد قنصوه الغوري الذي كان يعد العدة لمواجهة اخرى مع البرتغاليين في الهند بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) يطلب منه مده بالاخشاب والعتاد فامده با يزيد بما يحتاج اليه هدية مضافا اليه نحو الفين من البحارة بقيادة سلمان الويس للمساعدة في تشييد السفن والمشاركة في حملة الهند (١٦).

وبدخول العثمانيين القاهرة في ١٣ ابريل ١٥١٧ طويت صفحة عن عهد رائع من انبل العهود الاسلامية كللت فيها مساعي المماليك بالنصر على المغول والصليبيين ولكنها اخفقت في رد عادية البرتغاليين وورث العثمانيون دولة المماليك وتبنوا سياستها في مواجهة الخطر البرتغالي والدفاع عن البحر الاحمر وحماية الحرمين الشريفين (١٧).

تفرغ العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني الى بلاد الشرق الاوسط وافريقيا فتمكنوا من انتزاع العراق من الصفويين عام ١٥٣٤ وبذلك اصبح العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية في القسطنطينية. وقد سعى الصفويون كثيرا لاسترداد العراق من العثمانيين وتمكنوا بالفعل من الاستيلاء على

بغداد فيما بعد فى عام ١٦٠٢ الا ان حكمهم الجديد لم يستمر طويلا اذ تصدى لهم السلطان مراد الرابع ودحرهم وافتتح العراق مرة ثانية عام ١٦٣٨. وتابع العثمانيون مجهوداتهم لبسط سيادتهم على سائر اجزاء شبه الجزيرة العربية كاليمن وسواحل البحرين وعدن ومسقط وكان هدفهم الاساسى هو حماية الاماكن المقدسة بالذات من عبث البرتغاليين وغاراتهم المتكررة. وبالرغم من مجهودات العثمانيين الكبيرة لمحاربة البرتغاليين واسقاط نفوذهم التجارى فى شرق افريقيا وتحطيم التطويق البحرى الذى احكموه على الطريق التجارى الى مصر والمنطقة العربية الا انهم عجزوا تماما عن طرد البرتغاليين من الخليج العربى، وضرب نشاطهم فى المحيط الهندى، كما فشلت جهود المماليك فى تحقيق ذلك من قبل. واخيرا فقد لقى الاسطول العثمانى هزيمة ساحقة من الاسطول البرتغالى فى جزيرة ديو عام ١٥٣٨ (١٨).

ورغم فشل العثمانيين فى تحطيم الحصار الاقتصادي الذى فرضه البرتغاليون على المنطقة العربية، الا انهم استطاعوا ان يخففوا الضغط على التجار العرب والموانىء والامارات العربية الساحلية فى عمان ومسقط والخليج العربى. كما انهم تمكنوا من احباط كل المحاولات لتكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والاحباش ضد القوى العربية الاسلامية فى البحر الاحمر وشرقى افريقيا (١٩).

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون منذ ايام السلطان سليمان القانونى يواجهون قوة اسلامية كبرى، وهى قوة العثمانيين الذين بسطوا سيادتهم فى هذه الاثناء على سواحل البحر الاحمر واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وانشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون واسسوا فى كل منها ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم. وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الافريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء. فقد عرفت القوتان المتناحرتان ان الغزاة الجدد يتسلحون باسلحة نارية ومدافع ولن تستطيع احداهما مقاومتهم غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الاهداف التجارية ولدى المسلمين بالحبشة معلومات وافية عنها. اما الحبشة فكان الامر مختلفا بالنسبة اليها فهى مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك ادنى احتمال لامكان استعداء الاتراك على المسلمين الاعداء اذن لا بد من محاربة مسلمى الحبشة واحلافهم الجدد لكن اسلحة الاحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هى

القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك وهذه لا تجدى فتيلا امام الاسلحة الحديثة آنئذ اذن لا بد من عون خارجي متفوق فى التسلح والنظام على العدو الاقوى كما يتفق مع الاحباش فى العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه العجوز الوصية على لبناد (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) ان المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الاوروبية استعانة جدية فعالة فحين سمعت بانتصارات البرتغال فى المحيط الهندى طلبت مساعدتهم ومن ثم توالت البعثات الحبشية الى اوروبا منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا فى روما [٢٠] .

كان دافع (هيلانه) الحقيقي لارسال هذه البعوث الى اوروبا هو املها فى الحصول على مساعدات مسيحية لوقف نشاط مملكة اوفات الاسلامية اكبر دول الطراز الاسلامى فى القرن الافريقى ومن البديهى ان يرحب الاوروبيون باقامة علاقات مباشرة مع مملكة (القديس يوحنا) فقد يمكنهم هذا التحالف من ضرب الحركة الاسلامية فى شرقى افريقيا وتطويق العالم الاسلامى من الجنوب وايجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر ومن جانب اخر فان هذا التحالف المسيحى قد اقض مضجع العثمانيين الذين كانوا فى غضون ذلك فى صراع من اجل السيطرة والهيمنة على الطريق التجارية البحرية فاقاموا اتصالهم مع مملكة اوفات الاسلامية وذلك لافساد الخطة الصليبية واقتضت مصلحة التحالف والتعاون مع المسلمين فى دول الطراز الاسلامى فى الحبشة تزويدهم بالمعدات الحربية والتأييد المعنوى وانقذهم ذلك من خطر ماحق [٢١].

توالت المساعدات العثمانية لمملكة اوفات وازدادت فى عهد المجاهد الكبير احمد بن ابراهيم الجران (الأشول) وذلك لاجهاض حركة التعاون الحبشى البرتغالى الذى ظهر انه يهدد النفوذ العثمانى فى البحر الاحمر ويهدد الحرمين الشريفين اللذين دخلا فى نطاق الدولة العثمانية. وبفضل المساعدات العثمانية المستمرة تمكن المسلمون من فتح معظم الاراضى الحبشية. وتمكنت مملكة اوفات من توسيع الرقعة الاسلامية ونشر الاسلام في داخل الهضبة الحبشية [٢٢]

على هذا النحو اضحى النضال الاسلامى داخل افريقيا صدى للنضال العثمانى البرتغالى او النضال الاوروبى فى المحيط الهندى والبحر الاحمر ثم البحر المتوسط بعد ذلك. او قل إن نضال الممالك الاسلامية فى شرق افريقية والقرن الافريقى ضد الحبشة أصبح صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب وهو

من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين العرب المسلمين وأوروبا وصداه داخل الجزيرة العربية .

استمرت سيادة البرتغال على معظم ساحل شرقى افريقية حتى القرن الثامن عشر وعند ذلك تخلص العرب من الحكم البرتغالى وذلك على يد عرب عمان الذين تمكنوا من طرد البرتغاليين من هذا الساحل وتأسست سلطنة عمان فى زنجبار على يد السلطان السيد سعيد (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) وحكمت هذه السلطنة الساحل الشرقي لافريقيا واصطبغت المنطقة بالصبغة العربية التى كانت لها من قبل وعادت جميعها للحكم العربى الاسلامى ما عدا موزمبيق التى ظلت مستعمرة برتغالية. واستمرت السيادة لعرب عمان على معظم اجزاء افريقيا الشرقية حتى زوالها ببداية التدخل الاوروبى فى القرن التاسع عشر. واصبح شرقى افريقيا محط انظار الاوربيين لمناخه المعتدل ومما شجعهم كذلك نشاط البعثات التبشيرية الكنسية فاستطاعت فرنسا ان تمد نفوذها الى تنجانيقا واستأثرت المانيا بمناطق كثيرة الا ان املاكها صفيت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتحولت شرقى افريقيا الالمانية الى تنجانيقا البريطانية. وتأسست شركة جنوب افريقيا فاعلنت بياسا لاند محمية بريطانية بينما تركت روديسيا الجنوبية والشمالية فى يد الشركة البريطانية حتى تحولت الاولى الى مستعمرة عام ١٩٠٣م ومنحت حق الحكم الذاتي. اما روديسيا الشمالية فقد اتحدت اجزاؤها سنة ١٩٢٤ ثم اتحدت هذه الاقاليم الثلاثة سنة ١٩٥٣ .

واستمر الصوماليون يكافحون التدخل الاجنبى والمد المسيحى الصليبى ولكن ما أن انتصف هذا القرن حتى بدأت الحركات الوطنية تؤتى ثمارها وتم الاستقلال .

ولم تتوقف، الهجمات الصليبية الشرسة المتمثلة فى التدخل الاوربى الاستعمارى وابرز ما يتمثل ذلك فى هجمات اثيوبيا المتكررة على الصومال العربى والمساعدات الاثيوبية المتواصلة لاعداء الثقافة العربية والفكر الاسلامى فى جنوب السودان .

★★★★★

الهوامش

(١) انطونى سلوى (ترجمة) ، افريقيا الجغرافية الاجتماعية ص ١٥ . الدناصورى ، جمال الدين ، جغرافية افريقية واستراليا ص ٧٠ . القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) ابن الاثير ، ابو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيبانى ، (ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م) الكامل فى التاريخ جـ ٢ ، ص ٥١ . ابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢، هـ/١٣٣٢ م ، المختصر فى تاريخ البشر . جـ ١ ، ص ١٨ ، القاهرة .

(٣) طرخان : ابراهيم على : الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٦٦ وما يليها ، مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ، القاهرة ١٩٥٩ .

(٤) طرخان : نفس المرجع ، ص ٦٨ .

(٥) طرخان : البرتغاليون فى غرب افريقيا ص ٢٢ وما بعدها ، مستخرج من مجلة كلية الأداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الأول ـ مايو ١٩٦٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٦) طرخان : البرتغاليون فى غرب افريقيا ص ٢٣ .

(٧) الشيخ محي الدين ، كتاب السلوة فى اخبار كلوة .

(٨) ابن بطوطة ابو عبد الله على محمد بن عبد الله اللواتى الطنجي (ت ٧٧٩ هـ/١٣٦٩ م) : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار القاهرة ١٣٢٢ ص ١٩٤ .

(٩) الامبراطورية الانجوقية : نواتها دوقية نورماندیا بشمالى فرنسا ويرجع قيام هذه الدوقية الى عام ٩١١ زمن شارل البسيط من أواخر الملوك الكارولنجيين ، فقد منح النورمان هذه المنطقة اتقاء لشر غزوهم . اتسعت هذه الدوقية تدريجا وفى القرن الحادى عشر فتح الدوق وليام الفاتح انجلترا عام ١٠٦٦ م . ثم توسعت حتى شملت فى زمن هنرى الثانى فى القرن الثانى عشر الميلادى كونتيه انجو ومين وبلوا ودوقيه أكوتين وعرفت بهذا الاسم نسبة الى كونتيه انجو التى كان يحكمها ابوهنرى الثانى . وتضم الامبراطورية

الانجوقية كذلك : انجلترا ـ بعض اجزاء من ايرلندا ـ السيادة على استكلندا ـ وفى فرنسا : نورمانديا واكوتين وانجو ومين وبلوا .

(١٠) حمدى السيد ، الصومال ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، مقديشو ١٩٦٥ .

(١١) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، زنجبار ، ص ٢٦ ، القاهرة ١٩٥٩ .

(١٢) ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن عمر الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم ١١ تاريخ ورقة ٣٨ ، ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله . (٨٧٠ هـ ٩٤٧/١٤٦٥ ـ ١٥٤٠ م) قلادةالنحر فى وفيات اعيان الدهر ، جـ ٣ تحقيق ودراسة محمد عبد العال احمد ، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٩٩ . نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٤ .

(١٣) زنجبار ، ص ٢٢ .

(١٤) ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل ، الروضتين فى اخبار الدولتين (بدون تاريخ) ، جـ ٢ .

(١٥) محمد زغلول عبد ربه ، البرتغاليون فى البحر الأحمر (ندوة البحر الاحمر ، عين شمس ، القاهرة ، عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى المجلة المصرية التاريخية ، المجلد ١٤ ز ١٩٦٨) ١ ـ ٤٣ .

(١٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط والتجارة فى البحر الاحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ ، ندوة البحر الأحمر ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩ .

(١٧) محمد أحمد انيس : الدولة العثمانية فى الشرق العربى ، القاهرة (بدون تاريخ) . محمد امين صالح ، تجارة البحر الاحمر فى عصر المماليك الشراكسة ، ندوة البحر الأحمر ، عين شمس ، ١٩٧٩ .

(١٨) ديو مرفا تجارى هام على الساحل الغربى للهند : انظر السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٦٠ .

(١٩) راشد البراوى ، الصومال ، ص ٢١ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢٠) السيد مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٢١) قلادة النحر ، جـ ٢ ، ص ١١١ ـ ١١٣ ، ١٢٣ ـ ١٢٥ . يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد ، غاية الامانى فى اخبار القطر اليمانى تحقيق وتقديم سعيد عاشور ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٢٢) الامام احمد بن جرا (الجران) كلمة جرا او جر الصومالية : اليد اليسرى ، وجرا معناها الأشول او الأعسر ، انظر : عرب فقيه ، شهاب الدين احمد بن عبد القادر الجيزانى ، تحفة الزمان او فتوح الحبشة حققه فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١٩ .

أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة

رحلة سليمان السيرافي من الكتابات الرائدة في

ابن ماجد قدم للبحرية العالمية ثروة هائلة من

أحمد بن ماجد بن محمد السعدى، شهاب الدين، المعروف بأسد البحر كما لقب بالمعلم، يعتبر من اشهر ربابنة العرب وأبرز علماء فن الملاحة، وأعرفهم بمسالك البحار، له التاليف النافعة فى الملاحة وعلم البحار وهو الذى اخترع الإبرة المغناطيسية والتى كانت العامل المهم فى تسهيل معارف طرق البحر واتجاهات المسالك. لم يتيسر لنا تاريخ مولده، الا اننا يمكننا تحديد تاريخ وفاته على الارجح بحدود سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨ م.



ان العرب منذ القديم وهم يركبون البحر ولهم فيه خبرة كبيرة ومعرفة جيدة، وقد وصفهم المقدسى بقوله: « ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها ».



البحرية

الرحلات العالمية

المعلومات القيّمة

بقلم : الدكتور حسين أمين

ولعل أول رحالة عربي اسلامي قام برحلة سجلها بشكل وثائقي هو سليمان التاجر السيرافي الذي عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وقد سجل هذا الرحالة الاسلامي رحلته بشكل دقيق وما شاهده من العجائب في الهند والصين واندونسيا، وهو من كبار تجار المسلمين المغامرين سار من بلده سيراف الى سواحل الهند والصين واندونسيا ونزل في موانئها وابتاع من البضائع المختلفة واتصل باهلها ودرس أحوالهم، وبين لنا صورة واضحة لمسالك البحار والخلجان وما جابه من المصاعب والاهوال وما صادفه من العجائب والغرائب كما ذكر أهم البضائع التجارية التي يتاجر بها الرواد من البحارة العرب .

وأمدنا سليمان السيرافي بملاحظات قيمة عن حياة الناس في الاماكن التي ارتادها مثل سكان الهند والصين وبين

وضعهم السياسى وعقائدهم الدينية وحالتهم الاقتصادية وأهم منتجاتهم الزراعية والصناعية، ومن يطالع ما اورده سليمان السيرافى فى مذكرات رحلته يتلمس انه أمام شخصية على جانب كبير من الفهم الجغرافى والتاريخى والاجتماعى، وانى أرى ان رحلة السيرافى من الكتابات الرائدة فى مجال الرحلات العالمية .

كما يعتبر المسعودى الرحالة البغدادى المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م من الرواد الكبار والذى جاب البحار وأفادنا بمعلومات قيمة عن مشاهداته العديدة، وهو من الذين ركبوا البحر من بلاد عمان مع جماعة من نواخذه السيرافيين وهم أرباب المراكب، وزار الهند وسيلان وزنجبار وجزيرة مدغشقر كما زار مناطق اخرى فى العالم الاسلامى، واخيرا حل بمصر حيث توفى هناك، وهو الاخر إتسم وصفه لمشاهداته بأنه وصف خبير مجرب وله ملاحظات قيمة فى مجال الرحلات البحرية النادرة فى التاريخ .

وتتابع الرحالة المسلمون فى مراحل التاريخ المختلفة مثل ناصرى خسرو المتوفى ٥٤٢هـ/١٠٦٠م والشريف الادريسى ت/٥٦٠هـ/١١٦٤م وابن جبير ت/٦١٤هـ/١٢١٧م وابن بطوطة ت/٧٧٠هـ/١٣٦٩م، وغيرهم كثيرون كانوا أمثلة رائعة فى تقديم المعلومات القيمة والتى ساعدت على تسهيل الرحلات وركوب البحار وازدهار التجارة العالمية ووصف المدن والبلدان والبحار وأحوال الناس وحياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

ونلاحظ ان علم الجغرافية والرحلات الجغرافية والتجارة العربية الاسلامية ازدهرت بشكل مطرد مع قوة المسلمين ودرجة ثبات حكمهم والتعاون الوثيق مع حكوماتهم المختلفة، وتطورت وسائل البحرية العربية الاسلامية من بناء السفن بأنواعها المختلفة وإستخدامهم البوصلة للدلالة فى البحار والخرائط التى تبين طرق الملاحة الصالحة، ومواقع الموانىء الآمنة، وكذلك فان ضعف حكومات المسلمين بشكل عام وسيطرة الاجانب عليهم، سبب ضعفا فى عملية الملاحة واضطراب امورها كما فسدت التجارة وارتبكت الاحوال الاقتصادية فى عموم العالم الاسلامى، الا انه بالرغم من كل هذه المعوقات فقد حاول الكثير من البحارة والملاحين العرب وبخاصة اولئك الذين كانوا يقيمون فى منطقة عمان والخليج العربى بشكل عام جوب البحار والقيام برحلات بحرية لنقل البضائع التجارية بين مناطق الخليج العربى ومناطق الهند وجنوبى اسيا وغيرها من المناطق الاسيوية والافريقية .

ولعل ابرز من ظهر فى البحار العالمية فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى هو الملاح العربى الذائع الصيت احمد بن ماجد الذى كان المثل الرائع للربان العالم والخبير ذى التجارب الكثيرة والذى قدم للجغرافية بعامة وللبحرية العالمية بخاصة فوائد نافعة ساعدت على اختصار طرق الملاحة وازدهار التجارة بين عموم البلدان، وأبعدت السفن عن مواقع الخطر والهلاك، كما قدمت للبحارة معلومات قيمة عن مسالك البحار وظروفها الجغرافية المختلفة .

ويبدو أن ابن ماجد ورث الخبرة العالية فى العلوم البحرية عمن سبقه من العرب الذين عاشوا فى العصر العباسى المتأخر بخاصة، وقد ذكرهم فى كتابه المعروف بالفوايد وهم محمد بن شاذان وسهل بن ابان والليث بن كهلان، وقد أشاد بعلمهم وخبراتهم كما ذكرهم فى شعره، كقوله :

يا ابن شاذان ياسهل وثالثهم
السابقين بعلم معجب حسن
علم نفيس ولكن من تداوله
سواكم فهو منسوب الى الغبن
خلفتمونى وحيدا فى الزمان وقد
كنتم ثلاثة احبار على الزمن

وقد نعتهم ابن ماجد بالليوث اى ليوث البحر لخبرتهم وتجاربهم الكثيرة وشجاعتهم ونجاحهم فى ركوب البحر، ويبدو ان ابن ماجد استقى من خبراتهم ومعلوماتهم كما استفاد من تجاربهم، الا اننا لم يصلنا شىء من اثار اولئك الثلاثة المشاهير، واخذ ابن ماجد وبمرور أيام حياته فى اسقاط كل المعلومات الخاطئة التى اتبعها الملاحون الذين سبقوه، وصار يتبع الاساليب العلمية الناجحة فى تحقيق اهدافه في الملاحة ، وقد بدا ذلك بوضوح فى كتاباته وتآليفه وأراجيزه المشهورة واشعاره المتوازنة، ومن يطالع كتاب الفوايد ، الذي هو باعتقادي من أثبت الكتب التى تعنى بالأسفار البحريه يجد نفسه امام شخصية علمية فذة ذات تجارب وخبرة عظيمة استمدها من تمريناته وتدريباته مع العديد من البحارة العرب ومن أصالة تربيته، لقد انحدر احمد بن ماجد من أسرة عمل معظم افرادها بالملاحة وكان أبوه وجده معلمين، والمعلم فى مصطلح اهل البحار الشخص الذى لديه إلمام تام بالسفن او بغاطسها اذا كان كبيرا او صغيرا ولديه دراية بعلم الفلك وقدرة على تحمل المسئولية فى قيادة السفينة وسلامتها وامن من فى معيته من العاملين معه فى السفينة، كما يكون على معرفة بمواقع الموانىء والشواطىء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة والهضاب والجبال، وعليه أن يكون أخر من يترك السفينة فى اى ظرف كان وبذلك يحفظ السفينة وأحوالها ويكون أهلا لقيادتها، ويعرف المعلم ايضا بالربّان، ويدعى والد احمد بن ماجد بربّان البرين اى ساحلى البحر الاحمر، هذا وكان والده ايضا قد دون ملاحظاته وتجاربه البحرية فى أرجوزته المعروفة بالارجوزة الحجازية والتى ضمت اكثر من الف بيت فى وصف الملاحة على سواحل البحر الاحمر، وكانت تجارب احمد بن ماجد مع والده ذات اثر فى اجراء التصويب على المعلومات التى ورثها عن والده وجده معتمدا على ملاحظاته الخاصة والمعلومات التى استمدها من تجاربه وخبراته فى هذا الباب، يقول ابن ماجد : « كان جدى نادرة فى معرفة احوال البحر، واستفاد منه والدى، وقد اخذت أنا علم الرجلين مع كثرة التجربة » وفى موضع أخر يذكر ابن ماجد : « كان جدى محققا فى علم البحر مدققا، وزاد عليه الوالد بالتجريب والتكرار، وفاق علمه علم أبيه، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبا من أربعين سنة حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين » .

ويقول ابن ماجد : « ان والدى نظم الارجوزة الحجازية ومع ذلك كله قد

أصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل، وكانت ارجوزة الوالد خيرا لى من جميع ميراثه الذى تركه لى كله » .

حقا ان ابن ماجد نادرة من نوادر النتاج الحضارى الانسانى فهذا العربى الذى ظهر فى رأس الخيمة وقد تحلى بالصبر والأناة والعلم الغزير والثقافة الواسعة، وتمثلت فيه صفات الرجولة المثالية من شجاعة واقدام وتواضع وتسامح وإرادة قوية على احكام القيادة وإدارة السفن بشكل يستحق الانتباه والتقدير والاعجاب

ان ابن ماجد ترك ثروة طائلة من المعلومات الجغرافية التى استفاد منها الاجانب بشكل خاص، ولم يهتم بها الا القليل من ابناء العروبة، فازدهرت تجارة الاوروبين وتقدمت سفنهم وتخلفت تجارة العرب وضعفت حركتهم البحرية، ولعل من أبرز مؤلفاته كتاب الفوايد فى اصول علم البحر والقواعد، ويذكر ابن ماجد انه إختصر كتابه هذا من عشرة اجزاء كان قد الفها فى موضوع علم البحر خشية الاطالة، وانه ألف هذا الكتاب بعد تجارب وخبر امتدت لخمسين عاما .

إن كتاب الفوايد الذى صنفه ابن ماجد وضع له مقدمة أبان فيها الهدف من تصنيفه لهذا الكتاب، وذكر فى متن الكتاب اثنتى عشرة فائدة، تكاد تكون كل فائدة تختص بموضوع ملاحى، ففى الفائدة الاولى بين اصل كل اساس من أسس علم البحر، واوضح فى الفائدة الثانية قواعد علم البحر وما ينبغى لقائد السفينة ان يعرفه من القضايا والمهمات الجغرافية والطبيعية المختلفة مثل المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياسات والإشارات وحلول الشمس والقمر فى البروج والمنازل، والارياح ومواسمها ومواسم الاسفار وآلات السفينة وما تحتاج اليه وما يضرها وما ينفعها ومطالع النجوم ومغاربها والبرود وعلاماتها .

ومن المفيد ان نشرح هذه المصطلحات التى وردت فى الفايدة الثانية، فالمنازل جمع منزلة، ذلك ان العرب قسموا الفلك لنزول القمر الى ثمان وعشرين منزلة، منها اربع عشرة منزلة فى النصف الشمالى منها سبع منازل لبروج الصيف ومثلها لبروج الخريف ، واربع عشرة منزلة فى النصف الجنوبى، سبع منازل لفصل الشتاء ومثلها لفصل الربيع .

والاخنان جمع خن، وعلماء البحر قسموا الدائرة الافقية المحيطة بسطح الكرة الارضية الى اثنين وثلاثين جزءا وكل جزء يعرف بالخن، ويعرف الخن ايضا ببيت النجم وبيت الريح، والخن فى اللغة العربية يعنى مدخل الطريق. اما الدير جمع ديرة وهو جهاز لقياس سير السفينة، ويعرف ايضا بالبوصلة .

اما الباشيات فهى قياسات صعود ونزول نجم الجاه فى مداره حول القطب. اما القياسات جمع قياس فهى عملية فلكية يستخدم فيها الاسطرلاب مثلا لتحديد مكان او طريق السفينة او الآلة التي تحدد ارتفاع النجوم. اما الاشارات جمع اشارة فهى مصطلح بحرى يعنى تحديد وجهة الطريق ومكان الميناء .

والبروج وعددها اثنا عشر برجا واطلق الفلكيون على كل برج اسم لحلول الشمس فيه. اما البرور جمع بر اى الارض او الجزيرة، والعلامات جمع

علامة وفى مصطلح اهل البحر الاشارة التى يستدل بها على الاقتراب من الارض مثل الطيور او الاسماك او طحالب الماء .

وفي الفائدة الثالثة وصف ابن ماجد المنازل ومنافعها للملاحة البحرية كما وصف نجومها وقياساتها وباشياتها ومواقعها فى البروج .

واخذ ابن ماجد فى الفايدة الرابعة فى وصف كواكب الاخنان وقياساتها وبيت الابرة والتى تعنى البوصلة. وخصص الفايدة الخامسة الى ما يحتاج الملاحون معرفته لفصول السنة والتقاويم وبين فى هذه الفايدة ما ابتكره فى فن الملاحة .

وجعل ابن ماجد الفايدة السادسة لشرح الدير، وفى الفايدة السابعة اخذ فى شرح الباشيات والقياسات، اما الفايدة الثامنة فجعلها خاصة باشارات البرور وعلامات الاقتراب من اليابسة كما بين صفات المعلم الناجح. وفى الفايدة التاسعة وصف دورة البحر فى جميع الدنيا، وفى هذه الفايدة اخذ ابن ماجد فى وصف جميع سواحل العالم المعروفة عند الملاحين العرب .

وفى الفايدة العاشرة قدم ابن ماجد وصفا للجزر المشهورة والمعمورة، وفى الفايدة الحادية عشرة بين مواسم السفر من بر العرب وبر الهند والسند وجزيرة القمر الى بر الزنج (الصومال). اما الفايدة الاخيرة وهى الثانية عشرة فقد خصصها فى وصف السفر فى البحر الاحمر ومجاريه وجزره وشعابه والمناطق الخطرة والآمنة فيه مبتدئا من ميناء جدة الى باب المندب .

ونظم ابن ماجد العديد من الاراجيز وتكاد تكون كل ارجوزة تخص موضوعا بحريا معينا او أنها تخص الكلام على طريق بحرى معين، ومن اراجيزة المشهورة قبل كتابته كتاب الفوايد ارجوزته الكبيرة المعروفة (حاوية الاختصار فى اصول علم البحار) والتى نظمها فى مدينة رأس الخيمة مسقط رأسه، وهى مكونة من احد عشر فصلا يكاد كل فصل يخص احد المواضيع البحرية، ويمكن اعتبار هذه الارجوزة مختصرا لعلم الملاحة البحرية، واوضح ابن ماجد فى الفصل الاول العلامات التى تشير الى قرب الساحل، مثل الطحالب والطيور والاسماك وغير ذلك. وفى الفصل الثانى بحث فى منازل القمر وبيوت البوصلة وفى الاصابع، والاصابع وحدة قياس المسافة بين القطب والنجوم المجاورة والافق .

وفى الفصل الثالث بحث فى مسائل التوقيت، وخصص الفصل الرابع لموضوع المواسم، وأجمل ابن ماجد فى الفصول الخامس والسادس والسابع والثامن الكلام على طرق الملاحة البحرية المختلفة فى البحر العربى والمحيط الهندى، وبحث فى الفصل التاسع فى موضوع الارصاد. وبحث فى الفصلين العاشر والحادى عشر فى مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة .

ومن أراجيزة المشهورة، أرجوزة تحفة القضاة والتى تصف طريقة ايجاد القبلة اى موقع مكة المكرمة بواسطة خطوط الطول والعرض او بالبوصلة وأرجوزة بر العرب فى الخليج العربى وفيها وصف جذاب لجزيرة البحرين وخارج وداس وخيرى وطنب وهنجام .

ومن الجدير بالذكر ان ابن ماجد قدم

أين تقع بلاد واق الواق
كما حدّدها الجغرافيون العرب

العلاقات التجارية بين ... كما يعكسها البلدانيون العرب



الخليج العربي وشرق أفريقيا في العصر الوسيط

كان لسكان الخليج العربي صلة قديمة بشرق أفريقيا ، ويبدو من المعلومات المتوافرة بين أيدينا ان التجارة كانت الحافز الاول والأهم في هذه الصلة ، فقد كانت مصالحهم في ساحل شرق افريقيا هي امتداد لتجارتهم في الخليج العربي والبحر الاحمر والمحيط الهندي بصورة عامة . فالتجارة التي دفعت العرب الى الابحار الى شرق افريقيا حاملين معهم المواد التي يرغب بها سكان تلك المنطقة ، ليأخذوا بدلها منتجات الشرق الافريقي ، جعلتهم أقدم من عرف افريقيا الشرقية وأول من اتصل بسكانها[١] .

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

ظل الاتصال بين الخليج العربي وشرق افريقيا ينمو ويتسع قبل الاسلام ، وساعد في ذلك جملة عوامل نذكر منها ، الطبيعة المناخية لشرق افريقيا والتي يسرت الملاحة في الخليج العربي ، ونقصد بذلك حركة الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي والتي مكنت السفن العربية الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود . ففي شهر تشرين الثاني من كل سنة تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الشمال والشمال الشرقي ولمدة اربعة أشهر فتنطلق السفن العربية معها من الخليج العربي الى ساحل افريقيا الشرقي ، أما في شهر نيسان من كل سنة فتنعكس العملية حيث تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الجنوب والجنوب الغربي لمدة اربعة اشهر أخرى فيخرج العرب بسفنهم التجارية معها من شرق افريقيا للعودة الى اوطانهم(٢) . وقد ظلت الرياح الموسمية هذه سرا من الاسرار التي احتفظ بها التجار العرب (والهنود) لانفسهم ، والتي مكنتهم من السيطرة على التجارة مع شرق افريقيا ، الى ان تمكن ملاح اغريقي في القرن الأول الميلادي من كشف اتجاه هذه الرياح(٣) . كما كان لعرب الخليج من الامكانيات ما سهل لهم عملية الاتصال بشرق افريقيا عن طريق البحر ، مثل المهارة الملاحية الناجمة عن البيئة البحرية التي عاشها سكان الخليج ومعرفتهم الجيدة بالفلك والانواء . اما القرب المكاني بين سواحل الخليج والسواحل الشرقية لافريقيا فقد شجع سكان الخليج على الاتصال بشرق افريقيا ، وأخذ دور الوسيط التجاري في نقل منتجات شرق افريقيا وبضائعه الى الاسواق العالمية التي كانت تطلبها . ولم يكتف العرب بهذا الدور ، اذ بسبب التفاوت الزمني للرياح الموسمية صيفا وشتاء ، فقد اهتموا بايجاد مراكز ومحطات تجارية لهم في الساحل الافريقي الشرقي استخدمت كأسواق للتبادل التجاري ، وبصورة تدريجية تحولت هذه المراكز الى اماكن استقرار مؤقت او دائم للعرب وهي التي مكنتهم من متابعة أعمالهم التجارية(٤) . ويبدو ان المستقرين العرب الاوائل في ساحل افريقيا الشرقية ، كانوا أول حلقة اتصال بين الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية وبين افريقيا الشرقية .

واذا كانت الصفقات التجارية قد جذبت عرب الخليج الى شرق افريقيا قبل الاسلام ، فإن ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي قد رافقه تغير تام في علاقات الخليج العربي بالشرق الافريقي ، ونقصد بذلك ان أول خطوات الاستقرار الدائم واقامة كيانات عربية اسلامية في شرق افريقيا كانت على يد عرب الخليج . فالصلة بين المنطقتين لم تقم على أساس التبادل التجاري فقط ، بل زادت

العلاقات وتنوعت في مختلف المجالات ، ولعل ما يؤكد ذلك الآثار التي ترتبت على الهجرات العربية الى شرق افريقيا في مجالات الدين ، واللغة والجنس ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

ومما يجدر ذكره ان العوامل القديمة ظلت تلعب دورها في جذب عرب الخليج المسلمين على الهجرة الى الساحل الافريقي الشرقي والاستقرار فيه . فأهل الخليج استمروا على ما كانوا عليه قبل الاسلام ملاحين يتمتعون بمهارة فائقة ، وتجارا بارزين مشهودا لهم بالخبرة ، كما ظلت موانيء الخليج بعد الاسلام مراكز تجارية مزدهرة تنطلق منها السفن الشراعية باتجاه الشرق الافريقي ، وظلت الرياح الموسمية تتحكم في مسير هذه السفن الى شرق افريقيا . وفضلا عن ذلك فإن هناك عاملا جديدا هو بعد منطقة شرق افريقيا عن الصراعات السياسية والدينية التي شهدتها الدولة العربية الاسلامية في العصر الوسيط ، الامر الذي جعل افريقيا الشرقية محط أنظار الهاربين من الاضطهاد أو الاندحار السياسي .

والملاحظ ان الهجرات من الخليج العربي الى ساحل شرق افريقيا قد بدأت متقطعة منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي وزادت بصورة تدريجية ، وأولى هذه الهجرات هي هجرة عمانية من قبيلة الأزد بقيادة سليمان وسعيد من بني الجلندي . وكانت أسرة الجلندي قد سيطرت على عمان حتى نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي(٥) ، وفي أيام حكم الاخوين سليمان وسعيد اصبحت عمان ملجأ لبعض العناصر المناهضة للحكم الاموي ، ولذلك قررت الخلافة الاموية على ايام عبدالملك بن مروان ، ارسال جيش الى عمان لاعادتها الى طاعة الدولة المركزية وقد نجح هذا الجيش الذي جهزه الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الاموي على العراق في مهمته عام ٧٥هـ/٦٩٥م ، وانهزم آل الجلندي(٦) . وقد لجأ الزعيمان سليمان وسعيد وجموع كبيرة من الأزد الى شرق افريقيا . وفي هذا يقول سرحان بن سعيد الازكوي : لما شعر سليمان وسعيد بالعجز امام جيش الحجاج حملا ذراريهما وسوادهما ومن خرج معهما من قومهما ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك(٧)» وليس معروفا بصفة اكيدة مكان استيطان بنى الجلندي في شرق افريقيا ويفترض انهم أقاموا في جزيرة باتا (احدى جزر ارخبيل لامو)(٨) .

وتعاقبت الهجرات من الخليج العربي الى شرق افريقيا بعد ذلك ، ففي نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وصلت هجرة عربية من منطقة الاحساء ، وكانت هذه الهجرة بزعامة قبيلة الحارث العربية بقيادة سبعة أخوة

بعد اختلافهم مع حاكم الاحساء . وقد هبط بنو الحارث بسفنهم الثلاث في ساحل بنادر في افريقيا الشرقية ، وعملوا على تدعيم سيطرتهم في المنطقة حيث أسسوا مدينة مقاديشو ، وكذلك مدينة براوه في الساحل الافريقي الشرقي(٩) . وقد خضع الساحل الافريقي الشرقي ولمدة قرنين من الزمان لمشيخة مقاديشو التي أسسها بنو الحارث .(١٠)

في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، وصلت الى ساحل افريقيا الشرقي هجرة كبيرة من عمان تزعمها سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني ، وكان النبهانيون حكام عمان قد رحلوا الى مدينة باتا في الساحل الشرقي لافريقيا بعد انهيار دولتهم على يد اليعاربة عام ٦٠١هـ/١٢٠٣م . وقد استقبل النبهانيون استقبالا طيبا في باتا من قبل سكانها ، الذين كان معظمهم من عرب الخليج ، وتزوج سليمان النبهاني من ابنة حاكم المدينة المدعو اسحق ، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لصهره سليمان الذي اصبح أول حكام الاسرة النبهانية في شرق افريقيا .(١١) وعندئذ اصبحت باتا مركزا للسلطة النبهانية في ساحل افريقيا الشرقي وغدت أقوى سلطة في الساحل في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، حيث استطاعت ان تمد سيطرتها على طول الساحل ، وعلى أيام النبهانيين انتعشت حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا . استمرت سلطة النبهانيين العمانيين في الساحل الافريقي الشرقي الى ان انتهى بهم الامر ، وبعد مراحل طويلة من القوة والضعف ، بالخضوع الى السلطة العربية في زنجبار خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادي .(١٢)

ومن الجدير بالاشارة ان هجرات عرب الخليج واستقرارهم في شرق افريقيا لم ينقطع ابدا ،(١٣) اذ شجعت الدوافع التي أشرنا اليها على توثيق الصلات بين الخليج وشرق افريقيا ومن المؤكد ان هذه الروابط والصلات العميقة بين الخليج والشرق الافريقي وتنوعها قد حفزت الكتاب العرب ، وفي طليعتهم البلدانيون ، على الكتابة عنها والكشف عن بعض جوانبها . وستكون الصفحات التالية محاولة لدراسة أهم مدونات البلدانيين العرب لتبيان اهمية هذه المصادر وامكانية مساهمتها في التعرف على العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا .

البلدانيون العرب وشرق افريقيا

تعد كتب البلدانيين العرب من المصادر المهمة عن صلة الخليج العربي بشرق افريقيا ، ومازالت هذه المصادر بحاجة ماسة الى دراسة شاملة لتبيان اهميتها وامكانية

مساهمتها في هذا الموضوع .

فبعد النجاح السياسي والحربي الذي ظفرت به الدولة العربية الاسلامية في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، تحفز رجالاتها الى اقتحام ميادين المعرفة المتنوعة وكان في مقدمتها نشأة علم البلدان (وهو المعروف في المصطلح الحديث بالجغرافية الوصفية) ، وذلك لان الدولة العربية الاسلامية بعد ان أصبحت قوة عالمية وامتدت رقعتها الى مسافات واسعة كانت بحاجة الى هذا العلم كأداة للتعرف على أراضيها وحدودها وللحصول على معلومات دقيقة عن الاقطار المتاخمة لها . كما ان التجارة المزدهرة في الدولة العربية الاسلامية كانت تريد من هذا العلم ان يكون لها هاديا ومرشدا في دولة مترامية الاطراف واسعة الارجاء مختلفة الشعوب والاجناس والألسنة ، وكان التجار يريدون معرفة السبل والمسالك وماذا يعطون وماذا يأخذون ، ولقد وجدوا في هذا العلم بغيتهم ، فأقبل عليه رجال الدولة والتجار يطلبون أصحابه ، فظفر بتأييد أتاح له ان يتطور تطورا سريعا ، حتى أصبح في اوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي علما كامل المعالم والأسس ، ولا سيما ان هذا العلم قد تيسر له رجال علماء أفذاذ ، جاب الكثير منهم الاقطار وتحملوا المشاق ، فتعرفوا على المسالك والطرق والناس ، ووقفوا على طبيعة البلاد التي زاروها وعرفوا أحوالها ، ودونوا ما رأوا وما سمعوا ، حريصين على تبيان الحقيقة قدر الامكان فكانت كتاباتهم مصادر يهتدى بها كل باحث .

لقد استهوى شرق افريقيا والخليج العربي البلدانيين العرب (كما استهوى التجار ، وقد وصل الينا اخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة بشكل يتيح لنا تقصي اخبار صلات الخليج بشرق افريقيا ولا سيما التجارية منها . ولا بد لنا من الاشارة الى ان المعلومات التي جاءتنا في هذه المدونات وبخاصة ما يتعلق منها بشرق افريقيا ، غير وافية بالحاجة . كما ان بعضها كانت تخالطه الاسطورة أو الخيال ، لكن هذا لا ينقص من قيمتها في كونها مصدرنا الوحيد في الكتابة في هذا المجال ، وامكانية استخلاص الكثير من الحقائق منها . ولعل عذر اصحاب هذه المصنفات ، ولا سيما الاوائل منهم ، ان شرق افريقيا يعد مناطق متطرفة عن قلب العالم الاسلامي فلم يحظ بشيء كثير من اهتمامهم .(١٤)

لا يقدم لنا البلدانيون الاوائل الا معلومات مقتضبة جدا عن شرق افريقيا ، وعلى الرغم من ان المنطقة الاخيرة تقع ضمن دائرة النشاط التجاري للدولة العربية الاسلامية في المحيط الهندي ، الا انها بالنسبة لهم كانت تقع خارج نطاق اهتمامهم وان مجال حصولهم على المعلومات

الخاصة بها كان أقل مما هو عليه بالنسبة لمناطق اخرى ، ويمكن ان يقرن ذلك بقلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى اذا قورن بالنشاط التجاري للعرب المسلمين مع الشرق الاقصى . وعلى أية حال ، فإن الاشارات الاولى التي وصلتنا عن شرق افريقيا تشير اليها اشارة عامة ببلاد الزنج.[١٥]

ومن بين كتب البلدانيين الاولى التي وصلتنا ، رحلة قام بها تاجر يدعى سليمان في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي . وقد قام سليمان برحلاته في الخليج العربي قاصدا الهند والصين في فترة بلغ فيها النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية قمته ولا سيما مع الشرق الاقصى . أما فيما يتعلق بطبيعة الاسفار التي قام بها سليمان واهدافها فلا نكاد نعرف عنها الا اليسير جدا . وتتألف رحلة سليمان التاجر من قسمين : الأول كتب حوالي عام ٢٧٣هـ/٨٥١م من قبل مؤلف مجهول . أما القسم الثاني فقد حرره شخص من سيراف اسمه ابو زيد حسن تراءى له ان يتمم رحلة سليمان في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . والذي يهمنا في هذه الرحلة ، وعلى الرغم من طبيعتها القصصية ، انها تحوي معلومات عن الرياح والطقس والمخاطر البحرية ومناطق الوقوف وما شابه ذلك في المحيط الهندي . والى جانب ذلك فإنها تحوي معلومات قيمة عن السواحل الشرقية لافريقيا ، اذ انها تصف بلاد الزنج وملوكها وبعض الخصائص الاجتماعية للزنج ، والأهم من ذلك كله الاشارة الى ان سكان هذه البلاد من الزنوج يعرفون العرب ولهم هيبة عظيمة في قلوبهم.[١٦] ، ولعل هذه المعرفة نتيجة وصول التجار العرب الى مناطقهم .

أما المدونات الرئيسية التي تعيننا في فهم علاقات الخليج العربي بشرق افريقيا - وفي مقدمتها العلاقات التجارية - فقد جاءت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وأهمها مؤلفات المسعودي . وقبل ان نتكلم عن أهمية معلومات المسعودي يجب ان نتساءل عن سبب غزارة المعلومات التي دونها البلدانيون العرب كما ونوعا في القرن المذكور ، وللاجابة على هذا التساؤل لابد من الاشارة الى ان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، شهد اضطرابات في بلاد الصين فكان ذلك بداية لضعف التجارة مع المشرق الاسلامي ، اذ لم تعد المواصلات البحرية تجرى بانتظام بين الخليج والشرق في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.[١٧] وقد مهد هذا الامر لانتعاش التجارة وانتظامها بين الخليج وافريقيا الشرقية ، ابتداء من القرن

٤هـ/ ١٠م[١٨] وفضلا عن ذلك فقد انتقل النشاط التجاري للدولة العربية وثقله في القرن التالي من الشرق الى البحر الاحمر كما سنشير الى ذلك .

يحتل المسعودي المكانة الاولى بين البلدانيين العرب في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ولا سيما انه جمع أكثر ما كتبه عن طريق المشاهدة والاختبار والاسفار .[١٩] وعلى الرغم مما يؤخذ عليه ، من قلة معلوماته عن شرق افريقيا ، ولا سيما ان زمن وصول المسعودي الى تلك المناطق كان عند تأسيس المدن والامارات العربية الاسلامية ، فإنه يورد في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» معلومات تعتبر مهمة وتشكل لنا البدايات الاولى والاصلية لدراسة العلاقات العربية الافريقية ، ولا سيما التجارية منها بين الخليج وشرق افريقيا . وعلى هذا الاساس اعتبر بعض الباحثين المختصين بتاريخ شرق افريقيا كتاب المسعودي أحسن مصدر عن هذه المنطقة .[٢٠] فقد رحل المسعودي مع البحارة من عمان وسيراف عدة مرات ، وأقام في ساحل افريقيا الشرقي زمنا ، وحاول ان يتخطى الساحل الى الداخل ولكنه لم يصل الى ابعاد كثيرة [٢١].

ويعد وصف المسعودي لبلاد الزنج من الاعمال الاصيلة بصورة عامة ، ولا سيما انه اعتمد في معلوماته على ملاحظاته الشخصية ، وعلى مصادر مختلفة مكتوبة وشفهية ، أخذها في الغالب من تقارير رحالة مختلفين لم يذكر اسماءهم ، ومن أصحاب السفن المبحرين بين الخليج وشرق افريقيا .[٢٢]

ومعلومات المسعودي عن بلاد الزنج تشير الى أصل الزنج وأماكن استقرارهم ، فضلا عن وصفه لنظمهم الاجتماعية من طرز اللباس والمأكل . كما يذكر منتجات الشرق الافريقي المتنوعة والتي جذبت السفن الخليجية الى شرق افريقيا . كما اعطى المسعودي تقريرا مهما عن طبيعة الرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا ، ولا سيما فيما يتعلق بالطريق التجاري في مراحله ومخاطره والمدن التي تبدأ السفن بالانطلاق منها أو الارساء فيها . كل هذه المعلومات ، على الرغم من قلتها وسطحيتها في أحيان كثيرة واختلاطها بالاساطير ، فإنها تحتل أهمية كبرى في قضية العلاقات التجارية بين الخليج وشرق افريقيا .

ظل القرن ٤هـ/١٠م يمدنا بمعلومات كثيرة عن موضوع التجارة بين العرب وشرق افريقيا . ويتضح لنا ذلك بصورة جلية في سلسلة المصنفات التي تعكس طراز «المسالك والممالك» التي ركزت على وصف العالم الاسلامي . وتبدأ هذه السلسلة بالاصطخري الذي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، والذي لا نجد في كتابه «المسالك والممالك» أية

معلومات عن شرق افريقيا . أما ابن حوقل فقد اهتم بالكتابة عن افريقيا ، واذا تركنا قضايا التشابه العديدة بينه وبين الاصطخري ، فإننا نجد في كتابه «صورة الارض» الذي يمثل رحلته في القرن ٤هـ/١٠م ، الكثير من المعلومات عن القسم الشمالي من شرق افريقيا لا سيما مناطق الحبشة والنوبة ، أما القسم الجنوبي من المنطقة فلم يحظ منه الا بإشارات قليلة جدا ، منها غنى بلاد الزنج بمعدن التبر ، وتجارتها مع الشعوب الاخرى ، ولعل عذره في عدم اهتمامه بالكتابة عن بلاد الزنج ، هو كونها من المناطق الواقعة خارج حدود الدولة العربية الاسلامية التي كرس لها كتابه .[٢٣]

أما المقدسي الذي يعد آخر بلداني القرن ٤هـ/١٠م ، فإنه قد رسم خطة مؤلفه على الفكرة السابقة في التركيز على وصف بلاد الاسلام ، ولذا نجد ان معلوماته نادرة عن شرق افريقيا .

ازدادت المعلومات عن شرق افريقيا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، وتشكل هذه المعلومات اضافة جديدة ومهمة ولا سيما في موضوع التجارة في شرق افريقيا ، والتي نشطت في الحقبة القريبة من ذلك القرن ، بعد ان تحولت حركة الملاحة من طريق الخليج العربي الى البحر الاحمر بسبب الاضطرابات السياسية في منطقة الخليج .[٢٤]

لقد خلف لنا ابوعبيد البكري الذي كان يعيش في الاندلس في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عددا من المؤلفات من بينها كتابه «المسالك والممالك» الذي يعد مصدرا هاما في تاريخ افريقيا . ونحن لا نعرف ان البكري قد زار شرق افريقيا ، ولكن الذي نعرفه انه جمع معلوماته عن طريق التجار والرحالة الذين التقى بهم في الاندلس ، فضلا عن المدونات والمؤلفات العربية الكثيرة التي كانت تحت تصرفه في مدينة قرطبة ، والتي أفناها دراسة وتحليلا . أما معلوماته عن شرق افريقيا فهي قليلة ومقتضبة اذا قورنت بمعلوماته عن غرب افريقيا ، ولعل السبب يعود في قلة اهتمام التجار والرحالة الاندلسيين بمناطق شرق افريقيا لبعدهم عنها . لقد انحصرت معلومات البكري عن افريقيا الشرقية في وصفه لحدود هذه البلاد وذكر سكانها الزنوج من حيث أصولهم وتواجدهم في بلاد الزنج واسماء ملوكهم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن الذين سبقوه من الكتاب ولا سيما المسعودي[٢٥] كما يتطرق الى ذكر منتجات بلاد الزنج ولا سيما التجارية منها والتي تحمل الى الخليج العربي والشرق الاقصى[٢٦] وهي معلومات طريفة ومهمة لموضوع بحثنا .

أما المجموعة التالية من المعلومات عن افريقيا الشرقية والنشاط التجاري

للعرب فيها ، فقد ارتبطت بالادريسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي . ففي كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» نجد تأكيدا للعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العرب وشرق افريقيا والتي أولاها كل اهتمامه . وعلى الرغم من ان الادريسي لم يرحل الى شرق افريقيا الا انه من المؤكد قد سمع وقرأ كثيرا عنها ، ولا سيما انه كانت تحت يده مادة كثيرة ، ولذا فقد جاء وصفه لهذه المنطقة وعلاقاتها التجارية غاية في الاهمية . فهو أول من تحدث عن مدن الساحل الافريقي الشرقي وجزره وعن النشاط التجاري الذي تتميز به وهذا ما لم يذكره من سبقه ، ولعل ذلك يعود لان الفترة التي ألف الادريسي فيها كتابه كانت فترة ازدهار كبيرة لتجارة العرب مع شرق افريقيا .(٢٧) ويولي الادريسي اهتماما خاصا بتجارة الحديد السائدة في مدن شرق افريقيا (٢٨) ، في حين لا نجد لديه معلومات مهمة عن تجارة الذهب والعاج المشهورة . ونحن لا نعرف من أين جاء اهتمامه بتجارة الحديد ، هل كان قد انتبه الى ان شهرة تجارة الذهب والعاج في شرق افريقيا ، تدعوه الى ان يثير انتباه التجار والرحالة الى تجارة معدن مهم ومتوافر في شرق افريقيا وهو الحديد ؟ ويبدو ان معرفته عن شرق افريقيا حتى مومباسا كانت واضحة جدا ، ولكن ابتداء من هناك فإن معلوماته عن أرض الزنج تصبح غامضة ، ومن الواضح أن هذا الأمر كان نتيجة للمعلومات المشوشة التي كانت لديه(٢٩) فمثلا يذكر ان مدينة براوة لاتزال وثنية(٣٠) ، لكن المعروف ان الاسلام قد دخلها منذ زمن سابق ، كما انه لم يتعرض لمدينة مقاديشو التي كانت تفرض سيطرتها على كثير من مدن الساحل على أيامه وكانت تشهد نهضة تجارية واسعة ، في حين انه ذكر مدنا كانت تابعة لها مثل براوة .

وفي اواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي عاش بلداني آخر وهو ياقوت الحموي ، الذي عرف بأسفاره التجارية العديدة ، وقد اعتبر البعض مصنفه «معجم البلدان» من أفضل الكتب الجغرافية في العصر الوسيط ، فهو يبحث في هذا المعجم أصل الموقع الجغرافي ونشأته والظروف التي احاطت بذلك ومن سكنه من العلماء والفقهاء ، والدور التاريخي الذي لعبه ، وبذلك فإن مادة ياقوت متنوعة للغاية(٣١) وقد أفادته الأسفار التي قام بها في زيادة معرفته بالمسالك التجارية المطروقة في عهده ومنتجات البلاد التي زارها . وعلى الرغم من قيمة المعلومات التي دونها ياقوت في معجمه الا ان المادة التي احتواها عن شرق افريقيا مقتضبة وقليلة جدا ، وتكاد تكون نادرة في علاقات الخليج التجارية بالشرق الافريقي ، فهو يذكر مثلا نشاط مدينة مقاديشو التجاري

إضطرابات الصين في أواخر القرن

زادت من النشاط التجاري العربي مع

وارتحال التجار اليها لجلب المتاع منها ولا سيما الخشب والعاج متوقفا عند هذا الحد[٣٢] كما يهمل ذكر الكثير من مدن شرق افريقيا التي كان لها نشاط تجارى متميز في ايامه .

في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بلغ النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية أوجه حيث كانت السفن التجارية في ذلك القرن تجوب البلاد في كل اتجاه وتصل الى كل الاسواق النائية ، وعلى رأسها اسواق شرق افريقيا الغنية بالذهب والعاج والحديد ، مسترشدة بخرائط مفصلة حوتها كتب الجغرافية العربية ، وفي هذه الحقبة بالذات يطالعنا ابن سعيد بكتابة «الجغرافية» . وعلى الرغم من انه نقل الكثير من معلوماته عمن سبقه الا انه جاء بالشيء الجديد جدا فيما يخص سواحل افريقيا الشرقية ، التي لم يزرها بنفسه على حد اعترافه ، لكنه استقى مادتها من ملاح عربي لا نعرف عنه سوى ان اسمه «ابن فاطمة» كان يعيش على اغلب الظن في القرن ٧ هـ/١٣م وقد أبحر هذا الرجل في سواحل افريقيا الشرقية وبلغ سفالة وجزيرة مدغشقر .[٣٣]

أما معلومات ابن سعيد عن بلاد الزنج فتتصف بالجدية والاصالة وهي التي سمحت له ان يحدد بكثير من الدقة مواقع المدن والجبال ومجاري الانهار في المنطقة ، كما ان اعتماده على أسفار ابن فاطمة قد اتاح له مادة أصلية لم يعرفها من سبقه (ولا سيما عن جزيرة مدغشقر)[٣٤] وهذه المادة تعيننا كثيرا في رسم الطريق الذي كانت تسلكه السفن التجارية في شرق افريقيا .

أما القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي فإنه حافل ايضا في مجال المعرفة العربية بشرق افريقيا ، ولعل كتاب ابن بطوطة «تحفة النظار وغرائب الامصار وعجائب الاسفار» ، هو اهم ما يسترعى الانتباه . فقد كان ابن بطوطة آخر رحالة عربي كبير جاب العالم الاسلامي باجمعه .

التاسع الميلادي

الساحل الأفريقي

ويقول عنه كراتشكوفسكي[٣٥] انه «مهما اختلفت الآراء فيه فإنه من المستحيل انكار انه آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية . ولعل ذلك يرجع الى كونه قد حصل على معلوماته عن طريق اسفاره الى مختلف البلاد وانه لم ينقلها عن غيره . وكان ابن بطوطة قد عزم على السفر لتأدية فريضة الحج ، ولكن عصا الترحال أخذته الى مختلف الاقطار ولم يعد الى مدينة طنجة الا بعد أكثر من ربع قرن ، والذي يهمنا هو زيارته الى شرق افريقيا والتي تمت عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، حيث تحول من عدن الى زيلع (في الصومال) متجها الى مدن ساحل الزنج مثل مقاديشو (في الصومال) وومباسا (في كينيا) وكلوة (في تانزانيا) . ثم عاد الى اليمن ومنها الى عمان ودخل الخليج العربي ووصل الى البحرين والقطيف .[٣٦] هذه المراحل التي قطعها ابن بطوطة بين شرق افريقيا والخليج مهمة جدا لموضوع البحث ، ذلك لانها تدل على الطريق المعروف آنذاك عند التجار الذين يمارسون عبره نشاطاتهم بين منطقتي الخليج وشرق افريقيا . كما احتوت الرحلة على معلومات مهمة عن النشاط التجاري في مدن الساحل الافريقي الشرقي ، بل ونتائج هذا الاتصال الطويل الذي أثمرت بصورة واضحة ايام ابن بطوطة ، حيث يسجل لنا استخدام اللغة العربية كلغة رسمية في مدينة مقاديشو ، واتباع نظم الحكم ذات المنحى العربي ووجود المدارس الفقهية في مجال الدين ، وكذلك يسجل لنا التأثير العربي ولا سيما لسكان الخليج في طرز البناء في شرق افريقيا[٣٧] ، وفي هذا كله تأكيد على صلات الخليج العربي بشرق افريقيا .

على ان مما يؤخذ على رحلة ابن بطوطة انها ليست من تصنيف ابن بطوطة نفسه بل تمثل صياغة أدبية لروايته كتبها الأديب الغرناطي محمد بن جزي الكلبي بأمر من الحاكم المريني ابن عنان (٧٤٩ ـ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٥٨م) الذي شهد عهده وعهد سلفه ابي الحسن ازدهارا للثقافة وتشجيعاً للأدب في بلاد المغرب .

وعلى أية حال ، فقد جعلنا من رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي خاتمة للمدونات التي استقينا منها مادة هذا البحث ، بإعتبار انه لم تجر رحلة عربية على غرارها فيما بعد .

حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا

الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا

سوف يتم تحديد معالم حركة التجارة بين الخليج العربي وشرق افريقيا طبقا لما ورد من معلومات في مدونات البلدانيين العرب ، وتشمل اولى معلوماتهم وصفا لمناطق شرق افريقيا وسكانها وتعتبر هذه المعلومات بيانات مهمة للتجار وربابنة السفن التجارية فهي تعرفهم على تلك المنطقة وبالتالي تسهل عليهم الوصول اليها ، كما انها تقوم دليلا على معرفة التجار العرب بشرق افريقيا ولا سيما اذا اخذنا في الاعتبار ان التجار كانوا أهم الينابيع التي استقى منها البلدانيون العرب معلوماتهم .

ومن المؤكد ان التعرف على الزنوج واماكن استقرارهم واقسام بلادهم مهم جدا في حركة التجارة بين العرب وسكان شرق افريقيا ، فقد اطلق البلدانيون العرب «بحر الزنج» على الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي يطل عليه الشاطىء الشرقي الافريقي ، كما سمي الشاطىء المطل على هذا البحر باسم «بلاد الزنج»[٣٨] وحددوا الاقليم الجغرافي الذي تقع فيه بلاد الزنج ، وقسموه الى اربعة اقسام كل له صفات خاصة . ونجد ان هذا التقسيم واضح حتى في اشارات المسعودي الغامضة عن الساحل ، والتي اصبحت أكثر وضوحا عند الادريسي ، ولذلك سيكون اعتمادنا عليهما بالدرجة الاولى في وصف اقسام شرق افريقيا ، مؤكدين على اهميتها بالنسبة لحركة التجارة .

وهذه الاقسام هي :

* **بربرا** : وهي كما يقول المسعودي «وله «البحر الحبشي» خليج متصل بأرض الحبشة يمتد الى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربري ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل .. وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج .. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد»[٣٩] كما يضيف قائلا : «ان أرباب المراكب العمانيين يعرفون هذا البحر ويعرفون أمواجه العظيمة» .[٤٠]

ويبدو ان البلدانيين العرب بعد المسعودي حاولوا تحديد اخر حد بلاد بربرا ، فابن سعيد يقول : ان نيل مقديشو هو آخر بلاد بربرة ، وأول بلاد الزنج[٤١] ، لكنه لم يحدد امتداد منطقة بربرا شمالا . أما ياقوت فإن فكرته عن بربرا واضحة فهو يقول انها تقع بين الحبشة وارض الزنج .[٤٢] وبذلك يمكن القول ان بلاد بربرا تؤلف الآن السواحل الشمالية والشرقية من الصومال (وتعرف بساحل بنادر) وان التجار العرب في الخليج ـ ولا سيما

العمانيين ـ كانوا يمارسون التجارة مع هذه المنطقة .

* **بلاد الزنج** : وتمتد من مقاديشو التي اعتبرت اول بلاد الزنج (٤٣) الى سفالة.(٤٤) يقول المسعودي (ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب في أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال».(٤٥) كما يضيف المسعودي : «ان الفيلة كثيرة في ارض الزنج ومنها يتجهز التجار بالعاج الذي يحمل الى مناطق الخليج والشرق الأقصى».(٤٦)

أما الادريسي فيفصل لنا في مدن بلاد الزنج ، فيذكر ملندة بأنها مدينة على الساحل ، «وهي مدينة كبيرة وأهلها يحترفون الصيد برا وبحرا فيصيدون في البر النمور والذئاب ويصيدون في البحر ضروبا من الحيتان . وعندهم معدن حديد يحفرونه ويعملونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم(٤٧) ان لهذا النص قيمته حيث يشير الى ان حركة التجارة في هذه المدينة كانت تقوم على تجارة الحديد . كما يشير الى احتراف اهل مدينة مومباسا لاستخراج الحديد ويقول : «انها مدينة على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين وليس عليه شيئا من العمارة وفي هذه المدينة سكنى ملك الزنج واجناده».(٤٨) أما آخر بلاد الزنج فيحددها الادريسي بما يلي : «ومن منبسة الى قرية البايس ستة ايام في البر والبحر . وقرية البايس قرية جامعة أهلة بالناس .. وهي آخر عمالة الزنج ويتصل بها ارض سفالة».(٤٩)

* **سفالة** : ويشار الى بلاد سفالة باسم «سفالة الزنج» ايضا(٥٠) ، كما سميت بأرض الذهب أو التبر.(٥١) وكانت مقصد اصحاب المراكب الخليجية(٥٢) من أجل الحصول على الذهب . ويشير البلدانيون العرب الى بعض مدن سفالة مثل بتينة(٥٣) ، وحيونة التي كانت مقر ملك سفالة ، ويبدو انها كانت مركزا تجاريا حيث يتاجر أهلها بالذهب والفضة وهي آخر عمائر بلاد سفالة.(٥٤)

* **الواق واق** : تكمل هذه المنطقة صورة بلاد الزنج ، ومع هذا فقد وضعت بشكل غامض حيث قيل بان اراضيها تمتد الى جنوب منطقة سفالة . وفي الوقت الذي نجد فيه المسعودي لا يذكر أي شيء عن الواق واق ، فإن الادريسي بعده بقرنين يشير الى وجود «مدينتين حقيرتين (في واق واق) وسكانهما قليل لضيق عيشهما وتكدر رزقهما وليس بأرض هؤلاء القوم شيء من الذهب ولا يخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولا دواب»(٥٥) ويدل هذا على ان هذه المنطقة لم تكن محط أنظار التجار العرب . ولم تسهم في حركة النشاط التجاري في شرق افريقيا بسبب عدم توفر المنتجات التي ينشدها التجار .

وعلى أية حال ، فإن منطقة الشرق

اتجاه الرياح الموسمية .. سر احتكره عرب الخليج

حتى القرن الأول الميلادي

الافريقي ، التي تشمل ما نسميه اليوم بالصومال وكينيا وتنزانيا وموزامبيق ، قد شهدت نشاطا تجاريا عربيا واسعا ، وكان هذا النشاط الركيزة الرئيسية في قيام العلاقات العربية - الافريقية في العصر الوسيط .

بعد هذه الصورة التفصيلية لاجزاء الشرق الافريقي كما عكستها كتب البلدانيين العرب ، نحاول رسم الطريق التجاري الذي يربط منطقة الخليج العربي بشرق افريقيا .

أما الطريق التجاري الذي تقطعه السفن ما بين الخليج العربي وشرق افريقيا ذهابا وايابا ، فنستطيع ان نتتبع مراحل السير فيه ومحطات توقف السفن فيه والمخاطر التي تتعرض لها ، في جميع مدونات البلدانيين العرب . وعناية هؤلاء واهتمامهم بوصف الطريق بين الخليج وشرق افريقيا تقوم دليلا على وجود الصلة القوية بين المنطقتين ولا سيما الصلة التجارية .

ومن الجدير بالذكر ان كتب البلدانيين العرب الاوائل لا تحتوي على تفاصيل لجميع مراحل الطريق الذي يصل بين الخليج وشرق افريقيا ، فبينما تفصل هذه الكتب مراحل السفر في مياه الخليج العربي والبحر العربي ، فتصف موانئهما وظروف الملاحة فيهما ، نجدها لا تذكر أي معلومات عن مراحل السير في بحر الزنج ، وانما تكتفي بالاشارة الى وجود طريق بحري ما بين الخليج يمر بعمان وعدن الى بلاد الزنج[٥٦] ويمكن ان يعزى ذلك الى قلة النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا في القرون الاسلامية الاولى اذا ما قورن بحركة التجارة بين الخليج والشرق الاقصى حيث كان الاخير محط اهتمام الدولة العربية الاسلامية ايام العباسيين .

فقد سجلت تجارة الخليج ما بين

القرن الثاني الى القرن الخامس الهجري/الثامن ـ الحادي عشر الميلاديين تطورا كبيرا مع الشرق الاقصى حيث جذبت منتجاته التجار العرب . ولكن في القرن ٥هـ/١١م بدأت القلاقل والاضطرابات السياسية في الخليج تؤثر على هذه التجارة فاضعفتها واخيرا تحولت نشاطات التجار العرب الى البحر الاحمر وشواطىء بلاد الزنج بعد انهيار الدولة العباسية.(٥٧) وبدات تجارة الخليج مع الشرق الاقصى بالضعف ، كما أشار المسعودي الى ذلك بالتفصيل(٥٨)، منذ القرن ٤هـ/١٠م بعد الاضطرابات التي حلت بالصين . وتأثرت هذه التجارة ايضا ، كما يشير ابن حوقل ، بالاضطراب السياسي والفوضى التي وقعت في البحرين (بسبب سيطرة القرامطة) ، مما شجع القبائل البدوية على ان تفرض سيطرتها على الطرق التجارية التي لم تعد آمنة.(٥٩)

ومنذ القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى نجد تفاصيل دقيقة عن الطريق التجاري الذى يربط الخليج العربي بشرق افريقيا، اذ كانت الرحلة الى شرق افريقيا تبدأ من منطقة البصرة (فى الأبلة) ثم الى القطيف (في الاحساء)، ثم الى البحرين وقطر ثم الى بلاد عمان فبلاد المهرة ثم الى ارض الشحر (حضرموت) حتى تصل المراكب الى عدن ومن هناك اما ان تذهب السفن شمالا الى سواحل جزيرة العرب الغربية او شواطىء افريقيا المطلة على البحر الاحمر، أو ان تذهب جنوبا الى بحر الزنج حيث شواطىء افريقيا الشرقية(٦٠) ولعل ما يورده البلدانيون العرب ما يوضح ما ذهبنا اليه. فالمسعودي يقول : «ان نهاية الخليج الشمالية هي أرض البصرة بعدها «بلاد البحرين وقطر وشط بني جذيمة وبلاد عمان وارض مهرة الى رأس الجمجمة الى ارض الشحر والاحقاف وفيه جزائر كثيرة....» (٦١) أما البكري فبعد ان يصف مراحل السير التي تبدأ من منطقة البصرة الى «قطيف والبحرين وعمان ثم يمر متخذا الشمال على ساحل البحر حتى يأتى الى عدن.. وعدن منتهى العنق الذى يخرج من البحر، ثم ينعطف هذا العنق فى عدن فيمضى منعطفا على جزيرة العرب مستقبلا الشمال فمن يمين الذاهب منه جزيرة العرب والى يساره بلاد السودان».(٦٢) ويمكن ان نسمى هذه المرحلة الاولى من الطريق التجاري بين الخليج العربي وشرق أفريقيا، تتبعها المرحلة الثانية والتى تبدأ من منطقة الشحر بين عمان وعدن (فى حضرموت)، وتنتهي بسفالة الزنج آخر منطقة تصلها السفن العربية.(٦٣)

تبدأ الرحلة كما ذكرنا من الشحر باتجاه جنوبي غربي مارة (برأس جورد فوي) الى جزيرة سوقطرة ومن هذه الجزيرة تبحر السفن الى أول مرفأ افريقى هو رأس حافوني (يعرف

اليوم برأس حافون على الساحل الصومالي)، ومنه جنوبا الى مقديشيو اول بلاد الزنج[٦٤]، ثم الى المدن الساحلية الواحدة تلو الاخرى حيث تبحر السفن الى براوة ثم تدخل مدينتى باتا ولامو وبعدها تتجه المراكب جنوبا الى مالندي ومومباسا وهي من المراكز التجارية المهمة في الساحل. وحين تبحر المراكب من مومباسا تلتزم الطريق المحاذي للساحل الافريقي الى أن تتمكن من عبور قناة زنجبار، ثم تدخل جزيرة زنجبار، وقد تزور السفن قبل زنجبار جزيرة بمبا، والى الجنوب فى زنجبار تتجه المراكب الى مدينة كلوة المركز التجاري المهم.[٦٥] وقد تسير بعض المراكب من مومباسا مباشرة باتجاه الجنوب حتى تصل الى آخر قرية في بلاد الزنج وهي البايس، وبعدها تدخل الى أرض سفالة فتمر على أهم مدنها ومنها بتهنة، وحنظمة ودندمة التي هي آخر قواعد بلاد سفالة. وقد تبحر السفن من بلاد سفالة الى جزر القمر [٦٦]. كما قد تزور بعض السفن جزيرة مدغشقر أيضا.

ولعل من الضرورى هنا الاستشهاد ببعض ما كتبه البلدانيون العرب وهم يصفون لنا الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا توضيحا وتأكيدا للمراحل التى تقطعها السفن فى المرحلة الثانية من رحلتها فى الخليج الى شرق افريقيا. إذ يذكر ابن خرداذبة ان عدن هى مركز لتجميع البضائع القادمة من الخليج ـ ولا سيما البصرة ـ والقادمة من بلاد الزنج والحبشة وغيرها. وبذلك تكون هذه اول اشارة ـ وان كانت مقتضبة وغير مباشرة ـ الى ابحار السفن بين عدن وشرق افريقيا عبر طريق معلوم[٦٧].

اما المسعودى فقد كان من المؤكد على علم بالطريق البحرى بين الخليج وشرق افريقيا وان لم يورد تفاصيله. فقد تحدث عن رحلات تجار الخليج ولا سيما عرب عمان من الازد الى بلاد الزنج، وكان هو نفسه قد أبحر عدة مرات مع السفن الخليجية من عمان الى افريقيا الشرقية، حتى وصل الى جزيرة قنبلو، فهو يقول :

«واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو فى بحر الزنج، وفى هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربرى، وبلاد حفوني (حافون)، اكثر مساحة مما ذكرنا (قدرها المسعودي بطول خمسمائة ميل وعرض مائة ميل) موجه عظيم كالجبال الشواهق... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الازد... وينتهى هؤلاء في بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا، والى بلاد سفالة والواق واق فى اقاصي ارض الزنج والاسافل فى بحرهم... وقد ركبت انا

هذا البحر من مدينة سنجار في بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين وهم ارباب المراكب.. واخر مرة ركبت فيه سنة اربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان...»[٦٨] ويضيف المسعودي في مكان آخر واصفا قنبلو بقوله :

«أنها جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين الا أن لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة... وذلك في مبدأ الدولة العباسية، ومنها الى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزرا منهم لذلك، لا عن طريق التحصيل والمساحة».[٦٩].

ان اهتمام المسعودي بجزيرة قنبلو يرجع الى بقائه فيها لمدة، وهي اخر محطة وصلها في ترحاله في الشرق الافريقي، اما بلاد سفالة فلم يزرها بل أخذ اوصافها من اصحاب المراكب من عرب الخليج الذين يصلون اليها. وقد كانت جزيرة قنبلو وما تزال مجال نقاش بين الباحثين من اجل معرفتها بالضبط. ومع أن المسعودي أورد بعض التحديدات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة، لكنها لا تعيننا على وضع تحديد نهائي لها ولا سيما ان هناك جزرا متعددة في الساحل الافـريقي الشرقي تنطبق عليهـا أوصاف المسعودي كلا أو جزءا.

لقد حاول ترمنكهام[٧٠] عرض نصوص الجغرافيـين العرب التي تصف جزيرة قنبلو وكل ما يتصل بها مبتدئا بالمسعودي ثم ابن حوقل وبزرك بن شهريار والبيروني، وكذلك يورد معلومات الادريسي ويـاقوت وابن سعيد ؛ وبعد دراسته لهذه النصوص يتوصل الى الخلاصة التالية، حيث يقول : «كما هو واضح من الخرائط الخاصة باوائل الجغرافيين وروايات الرحالة الى شرق افريقيا، فان قنبلو من الممكن ان تكون مستقرا للقادمين الاجانب على جزيرة في ذلك الساحل [ساحل افريقيا الشرقي] كأن تكون بمبا او زنجبار او مافيا، وليست مدغشقر».[٧١].

وهكذا نجد فيما دونه المسعودي تأكيدا واضحا على الصلة التجارية بين الخليج العربي وشرق أفريقيا. ولكن ممـا يستـدعى الاسف أن المسعودي لم يفصل في مراحل الطريق الذي سار فيه فلم يذكر المدن والمراكز التجارية الساحلية التي اسسهـا العرب او التى وصلوا اليها في الشرق الافريقى منذ زمن بعيد قبل بدء المسعودي برحلاته الى تلك المنطقة، والتى كانت على ايامه محطات تجارية للسفن العربية القادمة في الخليج. ان هـذه المعلومـات المهمة الخـاصة بالطريق التجاري الذي يربط بين الخليج وشرق افريقيا في مرحلته الثـانيـة (اي شـواطىء الشرق الافريقي) نجدها بصورة تفصيلية في مدونات البلدانيين العرب الذين كتبوا بعد المسعودى، حيث يقدمون لنا وصفا للمدن الساحلية في افريقيا

الشرقية ونشاطها التجاري.

فالادريسى يذكر مدن الساحل الافريقي الشرقي بصورة متتالية، فكأنما يسير على الساحل وينتقل من مدينة الى أخرى محددا المسافات بينها، ثم يشير الى الجزر المقابلة للساحل مؤكدا في ذلك على النشاط التجاري لهذه المدن والجزر. فهو بعد أن يتكلم عن منطقة بربرة (بربرا) ينتقل الى ارض الزنج حيث يبدأ بوصف مدينة ملندة فيقول :

«مدينة ملندة في بلاد الزنج ثلاثة أيام في البحر بلياليها وملندة على ضفة البحر على خور ماء عذب وهي مدينة كبيرة... وعندهم معدن حديد يحتفرونه ويعملونه وهو جل مكسبهم وتجارتهم. ومن هذه المدينة الى ممبسه على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج على البحر وعلى ضفة خور كبير تدخله المراكب مسير يومين.. ومن منبسه الى قرية البايس سعة البر ومجر أو نصف في البحر... وهي أخر عمالة الزنج وتتصل بها ارض سفالة».[٧٢].

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مناطق سفالة فيذكر مدنها بقوله : «فمنها (قرية البايس) على الساحل الى مدينة تسمى تهنته ثمانية ايام في البر ومجر ونصف في البحر. وبلاد تهنته ايضا في سفالة.[٧٣] كما يذكر من مدن سفالة مدينتين حيث يقول : «حنطمة ودندمة وهي على ضفة البحر وهما صغيرتان وأهلهما في ذاتهم قلة وفي أنفسهم أذلة وليس بايديهم شيء يتصرفون به ويعيشون منه الا الحديد. وذلك ان في بلاد سفالة يوجد في جبالها معادن الحديد الكثير واهل جزاير الزايج وغيرهم من ساكني الجزائر المحيطة بهم يدخلون اليهم ويخرجون من عندهم الى سائر بلاد الهند وجزائره ويبيعونه بالثمن الجيد لان بلاد الهند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد.. وبين جنطمة ودندمة مجريان في البحر، ودندمة هذه آخر قواعد سفالة ويتصل بارض سفالة ثلاثة مدن احداها تسمى ميونة لاخيل عندهم وهذه المدينة على خور تدخله المراكب المسافرة اليها ومنها الى مدينة بوخة على الساحل... ومن مدينة بوخة الى مدينة جنطمة في البحر، وبها معادن التبر وفي بلاد سفالة أجمع يوجد التبر».[٧٤]

ان المعلومات التي أوردها الادريسى عن مدن الساحل الافريقي يؤكدها ابن سعيد وابو الفدا اللذان ينقلان عنه في الغالب. فابن سعيد وابو الفدا يؤكدان لنا ان (خافوني) الجبل المشهور عند المسافرين في منطقة بربرا هو الذي تستقبله السفن بعد خروجها من جزيرة سوقطرة[٧٥]. ثم يتكلم ابن سعيد عن مدينة مقاديشو اول بلاد الزنج مشيرا الى كونها «مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين)[٧٦]. ثم يذكر ابن سعيد مدن الزنج المشهورة مثل ملندة

وممبسه (ممبصة) وكونهما مركزين لحط السفن، ثم ينتقل الى منطقة سفالة مشيرا الى مدينة بتينة «وهي على ذيل جوف عظيم يدخل في البحر»، ثم يتكلم عن عمائر السفاليين... واكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور». ثم ينتهى الى مدينة ليرانة التي يقول عنها «انها للمسلمين كمقدشو، واهلها مجتمعون فى الاقطار، وهى بلد حط واقلاع». أما مدينة دغواطة «فهي اخر مدن سفالة واخر العمارة في البر المتصل بهذا البحر»(٧٧).

وبذلك تكون مدينة دغواطة أخر المدن التي تصلها سفن العرب المسلمين حيث نجد بعدها بلاد الواق واق التي لم تسهم بأى نشاط تجاري عربي، حيث يقول الادريسى في ذلك : «ويتصل بارض سفالة ارض الواق واق وبها مدينتان حقيرتان وسكانهما قليل لضيق عيشهما وتكدر رزقهما وليس بارض هؤلاء القوم شىء من الذهب ولا يخرج من عندهم تجارة ولا مراكب ولا دواب».(٧٨).

وهكذا تصل رحلة الخليج التجارية الى اخر بلاد سفالة لتعود بعدها محملة بمنتجات الشرق الافريقى الى الخليج العربي في الطريق الذى سلكته في ذهابها.

المنتجات الرئيسية المتبادلة بين الخليج وشرق افريقيا

تكشف مدونات البلدانيين العرب أهمية شرق افريقيا كمصدر لا غنى عنه لمعادن وثروات عدة دخلت في التجارة العالمية المعروفة انذاك، ومن الممكن القول أن من العوامل التى تحكمت فى الاتصال بين الخليج العربي وافريقيا الشرقية، المنتجات الافريقية التى دفعت التجار العرب للوصول الى سواحل افريقيا الشرقية وممارسة نشاطاتهم التجارية فى تلك المنطقة ومبادلة بضائع افريقيا وسلعها مع البضائع التي يحملونها من الخليج والتي يرغب فيها سكان الشرق الافريقي.

يزودنا البلدانيون بصورة عامة باسماء البضائع والسلع الداخلة في التجارة الغربية مع افريقيا الشرقية، حيث نجد من بينها الذهب والحديد والعاج والعنبر والاخشاب والجلود وما الى ذلك.

ويعد الذهب المادة المهمة التي كانت وما زالت اساسا لتهافت الدول في الحصول عليها من اجل دعم مركزها الاقتصادي والسياسي معا. وقد ادرك التجار العرب ـ ومن بينهم تجار الخليج ـ أهمية شرق افريقيا كموطن لتوفر هذا المعدن الحيوى، فعملوا كل جهدهم في الحصول عليه وحمله الى مراكز الخلافة العربية الاسلامية. فالمسعودي يعطينا صورة مهمة عن هذه المادة واندفاع العمانيين للحصول عليها فيقول اثناء حديثه عن الزنوج وسكناهم في بلاد الزنج : «وتمتد مساكنهم الى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج واليها تقصد مراكب

العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج، وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة، واقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجائب».(٧٩)

وبعد قرنين من الزمان يؤكد لنا الادريسي أهمية هذه المنطقة كمصدر لتجارة الذهب حيث يقول: «ومدينة دغوطة آخر بلاد سفالة، وبهذه المدينة يوجد التبر مثلما يوجد في بلاد سفالة».(٨٠)

وعلى الرغم أن جميع نصوص البلدانيين العرب تؤكد وجود الذهب في منطقة سفالة لا غيرها، فان ابن بطوطة يشير الى ناحية مغايرة بقوله: «أن الذهب يجلب الى سفالة فى منطقة يوفي. وان بين سفالة ويوفي في بلاد الليمين مسيرة شهر، ومن يوفي يؤتى بالتبر الى سفالة»(٨١). ولكننا للأسف الشديد لا نعرف شيئا عن يوفى ابن بطوطة ولم يوضح هو نفسه اين تقع فهل هي منطقة تابعة لسفالة، ام أنها منطقة في داخل افريقيا الشرقية، ومنها يتم جلب الذهب الى سفالة وبهذا تكون سفالة بموجب هذا الافتراض الاخير مركز تجميع الذهب الوارد اليها من الداخل. ويفترض ترمنكهام(٨٢) ان الذهب يأتي من منطقة الواق واق الى سفالة، بيد ان هذا الافتراض لا يتفق مع نص الادريسي الصريح، الذي اشرنا اليه انفا، والذي يذكر ان منطقة الواق واق منطقة فقيرة لعدم وجود الذهب في أراضيها وتبعا لذلك لا نجد فيها اي تجارة بحرية او برية.(٨٣).

تؤكد جميع النصوص التي بين أيدينا أن التجار العرب كانوا يحملون بضائعهم التي يرغب بها سكان منطقة الذهب (سفالة) ليأخذوا بدلها الذهب، ولنترك البلدانيين العرب يصفون لنا طريقة المتاجرة بالذهب بين التجار العرب والزنوج. فياقوت يرى بانها كانت تتم كالآتي:

«والحكاية عنهم (أهل سفالة) كما حكينا عن بلاد التبر بارض جنوب المغرب انهم يجلب اليهم الامتعة ويتركها التجار ويمضون ثم يجيئون وقد تركوا ثمن كل شيء عنده، والذهب السفالي معروف عند تجار الزنج.»(٨٤).

ومعنى ذلك أن الحصول على ذهب سفالة يتم بطريقة «تجارة الذهب الصامتة» التي كانت متعارفة في غرب أفريقيا والتي وصفها ياقوت بصورة تفصيلية(٨٥)، ولكن من الملفت للنظر أنه لم يصف طريقة أدائها في شرق افريقيا واكتفى بالقول انها تجري بنفس الطريقة التي كانت قائمة فى غرب أفريقيا.

أما العاج فقد كان من منتجات الشرق الافريقي المهمة، التي جذبت تجار الخليج للاتجار مع تلك المناطق. ويبدو أن العاج كان متوفرا بكثرة فى افريقيا الشرقية التى اعتبرت المصدر الرئيسى لهذه المادة فى العصر الوسيط. وفي هذا يسجل لنا المسعودي الاتي:

عرب الخليج أول من عرف أفريقيا الشرقية

وأول من اتصل بسكانها

«والفيلة في بلاد الزنج في غاية الكثرة، وحشية وكلها غير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئا في حروب ولا غيرها، بل تقتلها... لأخذ انيابها، فمن ارضهم تجهز انياب الفيلة» (٨٦). ومعظم عاج الشرق الافريقي كان يصدر الى الخليج العربي، وبالتحديد الى عمان ومن عمان يعاد تصديره الى المناطق التي تطلبه ولا سيما الهند والصين، حيث كان ملوك تلك البلدان يستخدمونه في صناعة ادوات الشطرنج والنرد. وقد امتاز عاج افريقية بجودته وكبر حجمه على ما ذكر المسعودى (٨٧).

وتعد مقاديشو اهم مركز فى شرق افريقيا يتزود منه التجار العرب بالعاج، ومنها يحمل الى مختلف البلاد(٨٨) كما كانت معظم مدن الساحل الافريقى الشرقي ـ على ما يبدو ـ توفر العاج للتجار الذين يطلبونه حتى اعتبر في بعض المدن الزنجية أهم من الذهب(٨٩).

ويشكل الحديد مادة اساسية أخرى جذبت التجار العرب إلى افريقيا الشرقية، التى غدت اهم مصدر لهذه المادة. ويبدو أن تجارة الحديد كانت قد شهدت ازدهارا كبيرا في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وليس أدل على ذلك مما ذكره الادريسى بقوله : «وملندة على ضفة البحر.... وهي مدينة كبيرة... وعندهم معدنِ حديد يحتفرونه ويعملونه وهو جلّ مكسبهم وتجارتهم. ومن هذه المدينة الى مدينة منبسة على الساحل مسافة يومين وهي مدينة صغيرة للزنج واهلها محترفون باستخراج الحديد من معدنه».(٩٠)

ومن المناطق التي توفر فيها الحديد وامتاز بكثرته وجودته بلاد سفالة، حيث كانت بعض مدن هذه المنطقة (مثل جنطمة ودندمة) تعتمد عليه في معيشتها وتجارتها.(٩١) ويستدل مما ذكره الحميري في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أن

صناعة الحديد أصبحت من الصناعات المهمة في شرق افريقيا.[٩٢]

كما أشتهر شرق أفريقيا بوجود الانواع الجيدة من المواد العطرية التي نالت شهرة بين العرب. ويعدّ العنبر من اهم انواع الطيب الذى وفرته بلاد الزنج، فهو ينبت في قعر بحر الزنج كما ينبت الفطر والكمأة[٩٣].

ويبدو ان سكان شرقي افريقيا كانت لهم طرق خاصة بجمعه، واول من وصف هذه الطرق المسعودي. اذ يذكر ان لأهل السواحل التي يوجد فيها العنبر نجب يركبونها في الليل، ويسيرون بها على الساحل وفي الجزر القريبة منه حيث يتوفر فيها العنبر والذي يكون قد قذفه البحر بفعل الرياح. ويظهر ان هذه النجب كانت مدربة فما ان تحس بوجود العنبر حتى تبرك فيأخذ اصحابها ما يجدونه من العنبر.[٩٤] اما الطريقة الاخرى لجمع العنبر فتكون مع اشتداد البحر وقذفه للعنبر من قعره فتبتلعه الحوت المعروفة بالاوال فتموت لحالها وتطفو على الماء. وكانت عادة الزنوج رصد هذه الحيتان، فما ان يروها حتى يرموا حبالهم وكلاليبهم لاصطيادها، ثم يستخرجون العنبر من بطونها.[٩٥].

وكان العنبر يصدر عادة الى مناطق الخليج ولا سيما العراق[٩٦] حيث ازداد طلب الخلفاء والامراء عليه كثيرا لجودة نوعه، ولهذا اصبح مادة مهمة في النشاط التجاري بين الساحل الافريقي الشرقي والخليج العربي.

واتجه التجار الى مناطق توفره فى شرق افريقيا مثل مالندي ومقاديشو وغيرهما.[٩٧].

ويعدّ شرق افريقيا من المواطن الرئيسية لكثير من الحيوانات التى لها سوق رائجة في مناطق مختلفة من اجل استخدامها لشتى الاغراض. فقد توفر في هذه المنطقة النمور والفيلة والزرافات وغيرها. والفيلة ـ كما اسلفنا ـ كانت مرغوبة للحصول على عاجها، كما استخدمت وسيلة لركوب الخلفاء والامراء في الاعياد والمناسبات.[٩٨] اما النمور الزنجية وجلودها فقد كانت معروفة لدى التجار، حيث وصفت جلودها على انها من أفضل الانواع، واستخدمت لصناعة السروج. أما الزرافات فقد حملت من بلاد الزنج الى الملوك والامراء كهدايا لغرابتها.[٩٩]

وأخيرا عرف عن الشرق الافريقي انه مركز مهم لكثير من انواع الاخشاب الثمينة والمرغوبة، كالابنوس والصندل والساج التي تنمو في غابات بلاد الزنج. والذي يبدو ان مقاديشو كانت مركزا مهما لتزويد التجار بها ولا سيما الصندل والابنوس الذى شكل مادة اساسية في تجارتها.[١٠٠]كما صدرت زنجبار خشب الابنوس [١٠١]. ويبدو ان السفن العربية كانت تحمل الاخشاب من شرق افريقيا الى الخليج العربي من اجل استخدامه في بناء مدن هذه المنطقة واعداد سقوف للبيوت[١٠٢]،

فضلا عن استخداماته المعـروفة الاخرى.

اما عن المواد التي كان يحملها التجار العرب من الخليج العربي الى الشرق الافريقي ليبادلوها بالمنتجات التي ذكرناها باعتبارها الركن الثاني الذي كان يتحكم في النشاط التجاري بين الجانبين، فلا نجد لها اي ذكر في كتب البلدانيين العرب. ولعل العذر في ذلك انها كانت معروفة بالنسبة للتجار واصحاب المراكب في ذلك العصر.

النظم البحرية والتجارية.

ان النشاط التجاري بين الخليج والشرق الافريقي الذي قام على تبادل منتجات الطرفين المتنوعة، تطلب اتباع نظم وتقاليد بحرية وتجارية متطورة لتنظيم هذا النشاط. فالرحلة التجارية الطويلة بين الخليج العربي وشرق أفريقيا اقتضت من التجار وربابنة السفن معرفة مراحل هذا الطريق اولا والعوامل التي تتحكم فيه والمخاطر التي تجابه السفن التجارية ثانيا.

وسبق ان اشرنا بصورة تفصيلية الى مراحل هذا الطريق. اما الجانب الثاني من الامر فيمثل العوامـل والمخاطر التي تتحكم في الـرحلة التجارية بين الخليج وشرق افريقيا، واهمها معرفة الرياح الموسمية التي تسير بموجبها السفن التجارية سواء في الخليج او بحر الزنج وفي هذا يقول المسعودي : «ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفون في اوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادة وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ابّان هيجانه واحوال ركوده وثورانه».(١٠٣) ثم يتحـدث عن الـريـاح المـوسميـة واتجاهاتها وكيف ان اصحاب السفن من اهل الخليج يعرفون ان الرياح تهب في موسمين : ففي الشتاء تندفع الرياح باتجاه الجنوب الغربي فتخرج السفن من الخليج الى شرق افريقيا وتستمر هكذا لمدة ستة أشهر، اما في الصيف فتندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن العربية من العودة من شرق افريقيا الى اوطانهم في الخليج(١٠٤) وهكذا استطاع تجار الخليج العربي بفضل هذه المعرفة والمعرفة الفلكية الوصول الى سواحل الشرق الافريقي بسلام.

كان من الضرورات التى يعرفها التجار والملاحون الذين يـزاولون نشاطهم التجاري بين الخليج وشرق افريقيا وجود المخاطر عبر الطريق البحري. فالسفن التجارية الخارجة من منطقة البصرة والاتية عبر الخليج تلاقي في طريقها المنعطفات الضيقة والصعبة والهوارات الكثيرة وكثرة اللصوص. وقد تحـدث عدد من البلدانيين العرب عن هذه المخاطر وكيفية التغلب عليها. فابن حوقل، الذي ينقل عن الاصطخري، يشير في خلال حديثه عن الخليج العربي قائلا: وفي هذا البحر هيارات كثيرة

ومعاطف صعبة وأجـوان مختلفة واشدها ما بين جنابة والبصرة فانه مكان يسمى هور جنابه وهو مكان مخوف لا يكاد تسلم منه سفينة من هيجان البحر»(١٠٥).

وقد وضعت الحلول لمجابهة هذه المخاطر، فقد تم انشاء برج او فنار من الخشب اطلق عليه البلدانيون اسم «الخشبات» في منطقة البصرة، وهو عبارة عن «أربع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل يهتدى به، ويُعلم به المدخل الى الدجلة، واذا ضلت السفينة فيه خيف انكسارها لرقة الماء...»(١٠٦) واذا انحدرت السفن التجارية في مياه الخليج فعليها ان تتجنب هجمات اللصوص والقراصنة، ولذلك فان السفن كانت، في اغلب الاحيان، تحمل المقـاتلـين والنفـاطـين ردًا لهـذه الهجمات(١٠٧)

ولا تقل المخاطر التي تجابه حركة السفن التجارية في مرحلتها الثانية بين الخليج وشرق أفريقيا ونقصد بذلك رحلتها في بحر الزنج صعوبة عن المرحلة الاولى، حيث تظهر الامواج العالية والاهوال التى لا تحصى كثرة فيه. ويصف المسعودي امواج هذا البحر بأنها عظيمة كالجبال الشواهق، وان ارباب المراكب من أهل الخليج العربي، ولا سيما العمانيين، يقولون عنه «أنه موج اعمى يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض ما يكون فى الاودية، لا ينكسر موجه، ولا يظهر في ذلك زبد، كتكسر سائر البحار، ويزعمون انه موج مجنون»(١٠٨) ويبدو ان هذه الاهوال قد اتت على الكثـير من السفن الخليجية التي ركبت بحر الزنج، وقد اكد ابن سعيد في القرن ٧ هـ/١٣ م هذه الاهوال والمخاطر التي تجابه السفن في بحر الزنج(١٠٩) ولكن هذا الامر لم يثن التجار العرب عن المتاجرة مع شرق أفريقيا محاولين التغلب على صعابه بالمعرفة والتجربة الطويلة.

ومن الجدير بالملاحظة، ان الحركة التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا تطلبت تأمين مناطق وقوف للسفن التجارية ومراكز لتجميـع البضائع واماكن أمنة يمكن للتجار العرب اللجوء اليها في الفترة الواقعة بين موسمي الرياح الموسمية ؛ وهذا ما سنحاول التطرق اليه من خلال الاشارة الى محطات. الوقوف فى شرق افريقيا ومن ثم ما يقابلها في الخليج العربي.

كانت جزيرة قنبلو اقدم محطة تجارية لجأ اليها تجار الخليج العربي باعتبارها مركز وقوف لهم للانطلاق الى سفالة الزنج وربما كانت مركزا لتجميع البضائع التى يراد حملها بعد ذلك الى الخليج العربي (١١٠) حتى القرن الرابع الهجري / العـاشر الميلادي. اما بعد ذلك فقد حلت مقاديشو محلها مركزا لوقوف السفن التجارية يمكث فيها التجار العرب

فترة محددة ويمارسون نشاطهم التجاري لحين مغادرتهم للسواحل الافريقية. وربما اكتسبت هذه المدينة اهميتها باعتبارها مدينة كبيرة لاستقبال التجار في ساحل بلاد الزنج، كما أشرنا انفا. ومنذ القرن ٧ هـ/١٣م اصبحت مدينة مقاديشو مركزا ومحطة تجارية مهمة للتجار العرب، حيث يذكر ابن سعيد، نقلا عن الرحالة ابن فاطمة الذى زار هذه المدينة «انها مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على السن المسافرين وهي مقدشو»(١١١). ويضيف أيضا «واهلها مجمعون فى الاقطار، وهي بلد حط واقلاع»(١١٢) وليس هناك أفضل من شهادة ابن فاطمة عن المكانة التي كانت تتمتع بها هذه المدينة في الساحل الافريقي الشرقي.

احتفظت مدينة مقاديشو بمكانتها التجارية - كما يبدو - في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي فابن بطوطة الرحالة العربي المشهور الذي زار هذه المدينة واقام فيها مدة من الزمن يشير بعد أن يصفها بأنها مدينة متناهية الكبر، فان «اهلها تجار اقوياء»، وأن المراكب تصل الى مرساها باستمرار وفى مختلف الاقطار، وان حكام هذه المدينة وسكانها كانوا دائما مستعدين لاستقبال السفن التجارية وما تحمله من بضائع وسلع، ولهم في ذلك تقاليد خاصة(١١٣).

ومن المراكز التجارية المهمة التى كانت تتوقف فيها السفن مدينة مومباسا، ويسميها الكتاب العرب (منبسة)، ويبدو أن وقوعها على ضفة خور كبير قد سهّل دخول السفن التجارية اليها.(١١٤) ومع اننا لا نريد أن نخوض هنا في جميع المحطات والمراكز التجارية التي تتوقف عندها السفن التجارية العربية لشراء بعض البضائع او للراحة او للتزود بما تحتاج اليه وما الى ذلك، وهي من المؤكد نفس المدن والمراكز التي وصفناها في مراحل الطريق التجاري بين الخليج وشرق افريقيا التي اشرنا اليها ؛ فاننا في الوقت نفسه نشير الى آخر محطة تجارية يقصدها التجار العرب ويستقرون فيها ردحا من الزمن من اجل جمع البضائع المتوفرة فيها، ونقصد بذلك منطقة سفالة بمدنها المتعددة. ولعل المسعودي كان اول من أشار الى وصول تجار الخليج، ولا سيما العمانيين، الى بلاد سفالة الواقعة فى اقاصي بلاد الزنج. وكان غرض التجار من قيادة مراكبهم الى تلك المنطقة هو الحصول على الذهب الذى يعد اول منتجات المنطقة واهمها فضلا عن الحديد. ويبدو ان التجار العرب كانوا يعرفون المدن السفالية التي تعد مراكز لتجميع الذهب الذى يحمل من مناجمه، واهم هذه المدن بتينه وجنطمة وبوخة وبسطة ودغواطة(١١٥)

أما أهم المحطات والمراكز التجارية

الواقعة على الطريق التجاري الذي يربط الخليج بشرق افريقيا في مرحلته الاولى، والتي كانت تتلقى الضائع التجارية الواردة الى الخليج وتخزينها من اجل تصديرها الى بلدان العالم المختلفة فنذكر منها على سبيل المثال عمان والبصرة. فقد عرفت عمان بخصوصيتها في النشاط التجاري بين الخليج وشرق افريقيا، باعتبارها قاعدة الخليج التى تستقبل السفن القادمة اليه والذاهبة منه الى مختلف الاقطار. وقد تكلم معظم البلدانيين العرب عن نشاط عمان التجاري، باعتبارها تتمتع بموقع استراتيجي يجعلها محطة تجارية في التجارة الذاهبة والقادمة من شرق افريقيا(١١٦).

وكانت البصرة الواقعة في رأس الخليج العربي الشمالي من الموانىء الرئيسية المهمة في الخليج لمكانتها التجارية حيث اعتبرها اليعقوبي. «مدينة الدنيا ومعدن تجارتها واموالها»(١١٧). وهي على حد قول المقدسي «فرضة البر ومطرح البحر»(١١٨) وهكذا فان موقع البصرة الاستراتيجي قد جعلها اشبه بمجمع تسويقي تخزن فيه البضائع الواردة التي تحملها السفن من الاقطار المختلفة وفي مقدمتها شرق افريقيا ليعاد توزيعها على المراكز التجارية التي تطلبها. والى جانب ذلك فان البصرة تعد أول محطة تجارية تنطلق منها السفن الخليجية في رحلتها الى شرق افريقيا لتعود محملة بالذهب والعاج والعنبر والاخشاب الثمينة.

ولا بد ونحن بصدد التنظيمات الخاصة بالنشاطات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا من الاشارة الى ان السفن التي تنقل البضائع من شرق افريقيا واليها كانت مراكب يمتلكها عرب الخليج وهذا ما أكدته لنا نصوص البلدانيين(١١٩) فالادريسي يشير الى ذلك بصورة صريحة بقوله : «وليس للزنج مراكب يسافرون فيها وانما تدخل اليهم المراكب من عمان وغيرها... فيبيعون هناك متاعهم ويشترون متاع الزنج»(١٢٠) وكان يقود هذه المراكب عادة ربابنة عرب متخصصون بالسفر الى شرق افريقيا نظرا لطبيعة بحر الزنج واهواله التى سبق الحديث عنها، أما ملكية هذه المراكب فاما انها كانت تعود الى تاجر هي وحمولتها(١٢١)، او انها تستأجر من مالكها ويكون عادة من ربابنة السفن المشهورين في السفر بين الخليج وبلاد الزنج (١٢٢).

ومن التنظيمات التجارية الجديرة بالذكر ان التجار العرب القادمين الى مدن الساحل الافريقي الشرقي يجدون فيها من المرشدين أو الوكلاء المحليين الذين يساعدونهم في اقامتهم وتصريف بضائعهم وشراء ما يريدون. ولعل ما شاهده ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي في مدينة مقاديشو خير ما يوضح لنا

ذلك، فهو يقول :

«ما ان يعلم اهل مقديشو بوصول سفينة الى ميناء مقديشو، حتى يرسلوا الصنابيق وهي القوارب الصغار اليها، وفي كل واحد منها جماعة من أهل مقديشو، يصعدون الى المراكب ومع كل واحد منهم طبق فيه الطعام يقدمه الى احد تجار السفينة القادمة، ولا يكتفي بذلك، بل يدعوه الى النزول عنده، وهكذا يغادر كل تاجر في السفينة الى دار نزيله من سكان مقديشو، وتكون مهمة النزيل عادة مساعدة التاجر في بيع ما عنده اولا، ثم مساعدته في شراءما يريده ثانيا. ويخبرنا ابن بطوطة ـ أن هذه العادة لا تتبع مع التاجر الكثير التردد على مقديشو، بسبب معرفته بها وبأهلها، حيث تترك له حرية النزول حيث يشاء»(١٢٣).

ويبدو أن حاكم مقاديشو كان هو الاخر يهتم بشأن السفن التجارية القادمة الى مدينته، فهو الاخر كان يرسل صنبوقه لدى وصول اية سفينة للسؤال عن المكان الذي قدمت منه، ومن هو ربّان السفينة وصاحبها، وما هي نوع البضاعة التي تحملها، ومن هم التجار القادمون فيها فاذا تم له معرفة ذلك، فانه يدعو من يستحق النزول عنده الى ضيافته.(١٢٤) ولم يشر ابن بطوطة الى اوصاف الشخص الذى ينال ضيافة السلطان، هل هو اغنى التجار، أم هل هو حامل البضائع التي يرغب فيها حاكم مقاديشو، او انه صاحب معرفة بالسلطان او غير ذلك من الاوصاف ؟ وهكذا نجد من اعراف اهل مقاديشو التجارية ما يدل على وجود تقاليد ورسوم معروفة لمن مارسوا النشاط التجاري مع شرق افريقيا.

وهكذا تعكس لنا صفحات هذا البحث صورة عن اهم ما احتوته مدونات البلدانيين العرب من معلومات عن العلاقات التجارية بين الخليج العربي وشرق افريقيا. وبالرغم من ان معلوماتهم في هذا المجال كانت في كثير من الاحيان قليلة وربما ناقصة، فان ذلك لم يمنعنا من رسم صورة مناسبة لطبيعة تلك العلاقات على ضوء ما ذكره البلدانيون العرب. كما ان ما أورده هؤلاء من معلومات يدل على قدم وسعة العلاقات التجارية بين الجانبين وعمقها، تلك العلاقات التي كانت ذات أثر كبير ليس فقط في نشر العقيدة الاسلامية بين سكان الشرق الافريقي، وانما في الاستقرار المؤقت او الدائم للتجار العرب في المراكز التجارية في افريقيا الشرقية، وما تبعه من تغيرات واسعة في الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المنطقة.

الهوامش

١ ـ سبنسر ترمنكهام، الاسلام في شرق أفريقيا، ترجمة احمد عاطف النواوي (القاهرة، ١٩٧٣) ص ٣٥.

٢ ـ ابو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد (القاهرة ١٩٦٤)، ج١ ص ١١٥ : انظر ايضا محمد عبد الغني سعودي، الاتصالات العربية الافريقية في العصور القديمة، في : العلاقات العربية الافريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، د. ت) ص ص ٢٤ ـ ٢٦.

٣ ـ جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد العاشر (١٩٦٧) ص ٢٨١.

٤ ـ خولة شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة في جامعة بغداد. كلية الآداب، ١٩٨٠، ص ١٤٠.

٥ ـ للتفاصيل انظر. ج. س. ولكنس بنو الجلندي في عمان (عمان، ١٩٨٢) ص ٥.

٦ ـ عامر محمد الحجري، «تاريخ العلاقات العمانية الافريقية : بداية التواجد العماني في شرق افريقيا»، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة، قطر، ١٩٧٦) ص ص ٧٧٦ ـ ٧.

٧ ـ تاريخ عمان : كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي (عمان، ١٩٨٠) ص ٤٢.

٨ ـ أحمد حمود المعمري، عمان وشرقي أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبدالله (عمان، ١٩٧٩) ص ٤٣.

٩ ـ قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص ٢٨٧.

١٠ ـ محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الافريقية في العصور الوسطى في : العلاقات العربية الافريقية، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، د.ت) ص ٤٨.

١١ ـ جمال زكريا قاسم، الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية (القاهرة، ١٩٧٥) ص ٦١ : انظر ايضا :.A. Warner, "A Sahili History of Pate",
Journal of African Society, Vol. XIV, (1913), P. 153.

١٢ ـ قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق افريقيا، ص ص ٣١٢ ـ ١٤ .

١٣ ـ لقد توالت هجرات عدد من الاسر العمانية الى شرق افريقيا بحيث استطاعت السيطرة على هذا الساحل منها، اسرة اليعاربة، والاسرة المزروعية، واسرة البوسعيد. للتفاصيل انظر : نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان (القاهرة، ١٣٤٧) ج٢ ص ٩٨، ٢٢٠ : مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسا (عمان، ١٩٨٠) ص ص ١٥ ـ ١٦ : قاسم، استقرار العرب، ص ص ٣١٤ ـ ٦.

١٤ ـ ابو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الارض (بيروت، د.ت) ص ٦٣ : قاسم الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية، ص ٥ : ,S. Trimingham
Notes on Arabic Sources of Information of East Africa in: East Africa and the Orient, ed. by H. Neville Chittick and Robert I. Rotberg. (African Publishing Company, New York, 1975), (Appendix I,) P. 273.

١٥ ـ أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، ١٨٨٩) ص ٦.

١٦ ـ أبو زيد السيرافي، أخبار الصين والهند ضمن كتاب (في رحلات العرب)، (بيروت، ١٩٧٤) ، ص ٧٤.

١٧ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ٣١٨ : سليمان التاجر، أخبار الصين والهند ضمن كتاب (في رحلات العرب) (بيروت، ١٩٧٤) ص ٢٢ .

١٨ ـ جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ص ٢٢٩ ـ ٣٠ .

١٩ ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان (القاهرة، ١٩٦٣) ج١ ص ص ١٨٣ ـ ٥.

٢٠ ـ J.S. Trimingham, "The Arab Geographers and East African Coast in: East Africa and the Orient, ed. by Chittick and Rotberg (New York, 1975), PP. 129-30; Chittick," The People of the East African Coast, in: East Africa and the Orient, P. 23.

٢١ ـ المسعودي، مروج الذهب ج١ ص ١٠٨ .
T. Lewicki, Arab external sources for the history of Africa to the South of ـ ٢٢
Sahara (Waroclaw, 1969), PP. 38-9.

٢٣ ـ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٦٣ : كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٠٣ .
٢٤ ـ انظر ر. ج. لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيرا ومصيرا، ترجمة محمد أمين عبدالله (عمان، ١٩٧٠) ص ص ١٩ ـ ٢٠ .
٢٥ ـ انظر ابو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري، المسالك، والممالك، مخطوطة مصورة محفوظة في مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب / جامعة بغداد رقم ١٢٦٠، وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة نور عثمانية في اسطنبول تحت رقم No. 3034 ج٢ ورقة ١٨٧ أ. والحقيقة اننا اعتمدنا هذه المخطوطة لان فيها معلومات كثيرة عن شرق افريقيا لا توجد اطلاقا في كتاب البكري المنشور.
٢٦ ـ البكري، المصدر نفسه، ورقة ١٨٧ أ.
٢٧ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٨٧ .
٢٨ ـ ابو عبدالله محمد بن محمد الشريف الادريسى، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين ـ اكسفورد، محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم (١٥ ـ جغرافية)، ورقة ٦٠ . وتمتاز هذه النسخة المخطوطة لكتاب الادريسى ـ حسب علمنا ـ بان فيها من المعلومات عن شرق افريقيا مالم يتوافر في النسخ المنشورة الاخرى.
Lewicki, op. Cit, P.65. . ٢٩

٣٠ ـ الادريسى، المصدر السابق، ورقة ٥٢ .
٣١ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ص ٣٣٤ ـ ٥ .
٣٢ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان (دار صادر ـ دار بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩) ج٥ ص ١٧٣ .
٣٣ ـ كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ج١ ص ص ٣٥٨ ـ ٩ .
٣٤ ـ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي (بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٣ (المقدمة) .
٣٥ ـ تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١ ص ٤٢١ .

٣٦ - محمد بن عبدالله اللواتي المعروف بابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت، ١٩٧٩) ج١ ص ١٦ .
٣٧ - ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج ١ ص ١٨٠ - ٨٢.
٣٨ - المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٦، ١١٠، الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ١٩؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٩؛ البكرى، المصدر السابق، ج ٢ ورقة ١٨٧ ب، ١٨٨ أ.
٣٩ - مروج، ج ١ ص ١٠٧.
٤٠ - المصدر نفسه.
٤١ - ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٢؛ انظر ايضا شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (لايبزك، ١٩٢٣) ص ١١١.
٤٢ - معجم، ج ٢ ص ١٠٦.
٤٣ - ياقوت الحموي، معجم، ج ٥ ص ١٧٣؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٠، ص ٦٢.
٤٤ - ياقوت، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٤؛ المسعودي، المصدر السابق ج ٢ ص ٦.
٤٥ - مروج الذهب، ج ٢ ص ٦.
٤٦ - المصدر نفسه.
٤٧ - نزهة المشتاق، ورقة ٥٢.
٤٨ - المصدر نفسه، الورقات ٥٢ - ٣.
٤٩ - المصدر نفسه، ورقة ٥٣.
٥٠ - شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ١١٤.
٥١ - الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٧٠.
٥٢ - المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٧.
٥٣ - الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣.
٥٤ - ابن سعيد، المصدر السابق.
٥٥ - نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.
٥٦ - ابو علي احمد بن عمر بن رسته، كتاب الاعلاق النفيسة (ليدن، ابريل، ١٨٩١) ص ٨٦، ابو بكر احمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (ليدن، ١٣٠٢) ص ١١.

٥٧ ـ لندن، المصدر السابق، ص ٢١، نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت، ١٩٦٢) ص ٢٢٤، عبدالجبار ناجي، العلاقات التجارية بين البحرين والعراق خلال العصر الوسيط، مجلة الوثيقة (البحرينية)، العدد السادس السنة الثالثة (يناير، ١٩٨٥) ص ١٠٨.

٥٨ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ٣٠٨.

٥٩ ـ ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٤٧، ناجي، المصدر السابق ص ١١٧ ـ ٨.

٦٠ ـ المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١١٠، ابن الفقيه ـ المصدر السابق، ص ١١، ابن حوقل، المصدر السابق ص ١٦، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١٦٧، ١١١٥.

٦١ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ١١.

٦٢ ـ المسالك والممالك، ج ١ ورقة ٦٧.

٦٣ ـ ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، ١٨٨٩) ص ٦٠ ـ ٦١ الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣، عماد الدين بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان، تحقيق البارون ماك كوكيني ديسلان (باريس، ١٨٤٠) ص ١٥١ ـ ٥٢.

٦٤ ـ المسعودي، المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨١، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٣.

٦٥ ـ سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان في امجادها البحرية، عدد ٨ (عمان، ط ٢، ١٩٨٠ ص ٦٨ ـ ٧٠.

٦٦ ـ الادريسي، المصدر السابق، الاوراق ٥٢، ٦٠، ٧٠.

٦٧ ـ المسالك والممالك، ص ٦٠ ـ ٦١.

٦٨ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ١٠٧ ـ ٨.

٦٩ ـ مروج الذهب، ج ١ ص ٩٨.

٧٠ ـ Trimingham, The Arab Geographers and the East African Coast, pp. 129-36.

٧١ ـ Ibid, P. 136

٧٢ ـ نزهة المشتاق، الورقات ٥٢ ـ ٥٣.

٧٣ ـ المصدر نفسه، ورقة ٥٣.

٧٤ ـ المصدر نفسه ورقة ٦٠.

٧٥ ـ الجغرافية، ص ٨١، تقويم البلدان، ص ١٥١.

٧٦ ـ الجغرافية، ص ٨٢.

٧٧ - ابن سعيد، المصدر نفسه، ص ٨٣ - ٥، ابو الفداء المصدر السابق، ص ١٥٢.
٧٨ - نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.
٧٩ - مروج، ج ٢ ص ٦.
٨٠ - نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.
٨١ - رحلة ابن بطوطة، ج ١ ص ٢٨٣.
٨٢ - Trimingham, The Arab Geographers, p. 20 ويبدو ان ترمنكهام يبنى افتراضه هذا بوجود مناجم الذهب في شرق افريقيا على اشارة ابن الفقيه الى «ذهب واق واق».
٨٣ - نزهة المشتاق، ورقة ٧٠.
٨٤ - معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٢٤.
٨٥ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ١٢ - ٣.
٨٦ - مروج الذهب، ج ٢ ص ٦.
٨٧ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٦، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ورقة ١٨٨م.
٨٨ - ياقوت، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص ٦٢.
٨٩ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٨٤.
٩٠ - نزهة المشتاق، ورقة ٥٢.
٩١ - المصدر نفسه، ورقة ٦٠، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣.
٩٢ - محمد عبدالمنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس (بيروت، ١٩٧٥) ص ٥٥٢ - ٥٥٤.
٩٣ - المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٥١، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص ٦١، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٥م.
٩٤ - مروج الذهب، ج ١ ص ١٥٠.
٩٥ - المصدر نفسه، ج ١ ١٥٠ - ١، انظر ايضا البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٥م.
٩٦ - المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٥١، البكري، المصدر السابق ج ١ ورقة ١١١٥.
٩٧ - ياقوت، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني المصدر السابق ص ٦٢.
٩٨ - المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ ص ١٢.
٩٩ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٤، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١١٨٨.
١٠٠- ياقوت، المصدر السابق، ج ٥ ص ١٧٣، القزويني، المصدر السابق، ص ٤٤.
١٠١- شيخ الربوة، المصدر السابق ص ١٦٢.

١٠٢- ياقوت المصدر السابق، ج ٥ ص ١٩٣، ابو الفداء، المصدر السابق، ص ٣٢٧.
١٠٣- مروج، ج ١ ص ١١٢.
١٠٤- المصدر نفسه، ج ١ ص ١١٥ - ٦.
١٠٥- صورة الارض، ص ٥٢.
١٠٦- المصدر نفسه، ص ٥٢، المقدسي البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن، ١٩٠٦) ص ١٢، المسعودي، المصدر السابق ج ١ ص ١٤٩.
١٠٧- المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢، الادريسي، المصدر السابق ورقة ٥٥.
١٠٨- مروج الذهب، ج ١ ص ١٠٧.
١٠٩- الجغرافية، ص ٨١ - ٤.
١١٠- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ٩٨، ١٠٧ - ٨.
١١١- الجغرافية، ص ٨١.
١١٢- المصدر نفسه، ص ٨٤.
١١٣- رحلة ابن بطوطة، ج ١ من ص ٢٧٩ - ٨٠، انظر ايضا شيخ الربوة، المصدر السابق، ص ٢٦٩.
١١٤- الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن بطوطة، الرحلة، ج ١ ص ٢٨٣.
١١٥- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٢، ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٨٣، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٣.
١١٦- المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ من ص ٦ - ٧، ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٥٤ - ٥، المقدسي، المصدر السابق، ص ٩٢، البكري، المصدر السابق، ج ١ ورقة ١٨٧ أ ب، الادريسي المصدر السابق، ورقة ٥٥، ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨٥.
١١٧- البلدان، ص ٣٢٣.
١١٨- احسن التقاسيم، ص ١٢٨.
١١٩- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٧، الادريسي، المصدر السابق، ورقة ٥٣.
١٢٠- نزهة المشتاق، ورقة ٥٣.
١٢١- ابن بطوطة، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٧.
١٢٢- المسعودي، المصدر السابق، ج ١ ص ١٠٨.
١٢٣- الرحلة، ج ١ ص ٢٧٩.
١٢٤- المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٨٠.